تاريخ مصر الحديث

دكتور
صلاح أحمد هريدى
أستاذ التاريخ الحديث و المعاصر
كلية الآداب جامعة الإسكندرية
فرع دمنهور

مكتبة بستان المعرفة
طباعة ونشر و توزيع الكتب
٠١٢/١١٥١٢٣٧ -٠٤٥/٢٢١١٤٩٥

تاريخ مصر الحديث

دكتور

صلاح أحمد هريدى

كلية الآداب بدمنهور

جامعة الإسكندرية

2009

مكتبة بستان المعرفة

طباعة ونشر وتوزيع الكتب

☎: ٠٤٥/٢٢١١٤٩٥&٠١٢/١١٥١٢٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد رسول الله ﷺ وبعد ... أقدّم هذه الدراسات عن تاريخ مصر العثمانية ، ويتحدث الفصل الأول من هذا الكتاب عن الفتح العثمانى لمصر ونتائجه . وتعرضت للعلاقات المملوكية العثمانية ، حيث كانت حسنة وتدهورت بعد ذلك . ولذلك فقد كانت العلاقات حسنة فى أول الأمر ، ووضح ذلك عندما كان يحقق أى طرف نصراً على القوى المعادية ، فيقوم الطرف الآخر بإرسال التهانى وإقامة البشائر. وظهر ذلك واضحاً فى عهد السلاطين المماليك والسلاطن العثمانيين وتبادلهما رسائل الود والصداقة لتأكيد التحالف بينهما . وتأزمت العلاقات بين السلطنة المملوكية والإمبراطورية العثمانية بسبب متاخمة أراضيها وسبب صراعها على النفوذ ، خاصة وأن السلطنة المملوكية كانت فى حالة الانحطاط ، بينما كانت الإمبراطورية العثمانية فى طريقها إلى الأوج وتطمع بزعامة العالم الإسلامى ، بشأن الدول الإسلامية الكبرى ، وقد وجدت عدة مناسبات للاحتكاك ، ثم الاصطدام بين المماليك والعثمانيين ، فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، ومطلع القرن السادس عشر .

وتمثل ذلك فى الصراع على النفوذ فى منطقة ألبستان ولجوء بعض الأمراء العثمانيين إلى المماليك ، مثل لجوء الأمير سليمان العثمانى وأخته فاطمة شهرزادة إلى السلطان برسباى ، وأدى ذلك إلى تدهور العلاقات بين الطرفين ، وثورة الأمير جم ابن السلطان محمد الثانى والتجائه إلى السلطان قايتباى ، وأدى ذلك إلى تأزم العلاقات المملوكية العثمانية . وظل الحال إلى أن تولى سليم وهروب أبناء أخيه أحدهم إلى فارس ، وسليمان وعلاء الدين وقاسم ، إلى مصر وإن كان الغورى قد استقبلهم على مضض . وقد مات سليمان وعلاء الدين بالطاعون فأرسل سليم يطالب من الغورى تسليم قاسم . وكان أصغرهم ، لايتعدى الثلاث عشر سنة . فرفض الغورى طلبه بسبب أن الغورى كان يرى أن سليماً الذى اجترأ على ارتكاب كل هذه الجرائم ، لايتورع عن التحرش به خاصة وأن الأمور قد تأزمت بين الدولتين بسبب الحدود ، أما سليم فقد وجد أن الغورى يتدخل فى شئون أسرته . بالإضافة إلى قيام الإمارات التركمانية وأثر ذلك فى العلاقات بين المماليك والعثمانيين .

أما الفتح العثمانى للشام ومصر فقد تم بعد أن تدهورت العلاقات المملوكية العثمانية ، وخاصة بعد قيام الصراع بين الصفويين والعثمانيين وانتهت بانتصار العثمانيين فى موقعه تشالديران عام ٩٢٠ هـ / ١٥١٤م ، بدأت بعد ذلك الاستعدادات من جانب كل من الغورى وسليم ، ودخل المماليك المعركة ولم يستعدوا لها الاستعداد الكافى ، والنزاع بين المماليك الذين اصطحبوا السلطان الغورى إلى الشام ، بالإضافة إلى الخيانة التى دبت فى صفوف المماليك وانتهت بموقعة مرج دابق ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م بهزيمة المماليك ، واتخاذ السلطان سليم بعض الإجراءات فى الشام .

وبالنسبة للموقف فى مصر فقد تم اختيار السلطان طومان بعد موت السلطان قانصوه الغورى ، ورفض العرض المقدم من السلطان سليم بالتبعية ، وحدثت عدة معارك فى غزة ، ومساعدة بدو سيناء للعثمانيين ، والمتاعب التى ظهرت من جانب المماليك أنفسهم ، ووصل العثمانيين إلى الريدانية وحدثت موقعة مهولة ، حيث قتل فى هذه الموقعة سنان باشا الصدر الأعظم ، حيث ظن طومان باى أنه السلطان سليم . وانتقم العثمانيون لذلك أشد الانتقام من المصريين والمماليك ودخل سليم القاهرة . ولجأ طومان باى إلى الصعيد والوجه البحرى ، ودارت عدة معارك ، وبدأت الخيانة تدب فى صفوف المماليك مرة أخرى ، وانفض عرب هوارة الأشداء بالصعيد عن التأييد بعد أن أدركوا أن قضية طومان باى خاسرة ، ورفض عرب المغاربة الاشتراك معه لكونه مسلمًا يحارب مسلمًا .

وتم التعرُّض لموقف القبائل العربية الأخرى بالوجه البحرى وخاصة أولاد مرعى بالبحيرة وانتهى الأمر بتسليم طومان باى إلى السلطان سليم ، وتم اعدامه على باب زويلة ، واتخذ السلطان سليم عدة إجراءات إدارية فى مصر ، وعيّن جانم السيفى كاشفًا على البهنسا والفيوم ، كما عيّن اينال السيفى على الجيزة والغربية ، واعترف بقضاء المذاهب الأربعة إلى غير ذلك من الإجراءات . وانتهى هذا الفصل بشرح الأسباب التى أدت إلى هزيمة المماليك .

أما التنظيم الادارى فى مصر العثمانية ، فكان عنوان الفصل الثانى ، حيث تعرضت للتنظيم الإدارى الذى كان موجوداً قبل ذلك ومجهودات العثمانيين بعد الفتح ، والصراعات التى كانت تدور حول التسابق للحصول على منصب حاكم ولاية من الولايات الكبرى كالشرقية ، والغربية ، والمنوفية ، والبحيرة وجرجا . والكاشفيات التى كانت موجودة مثل الكاشفيات الكبرى والكاشفيات الصغرى التى كانت تتبع بعض الولايات ، وتدهور هذا النظام وخلط مابين كلمة كاشفية وولاية ، وادارة الأقاليم كانت تتم عن طريق صناجق يحملون لقب بك ، وكان منصب الصنجقية من المناصب الهامة ولها الكثير من الامتيازات مثل

حصولهم على نصيب عينى من القوافل الواردة من دار فور وسنار . وعلى هذا الأساس حرص الأمراء المماليك على جعل هذا المنصب قاصرا على أولادهم وأتباعهم .

فقد اشترك فى حكم مصر الباشا ومعاونوه يمثلون السلطان العثمانى ويحكمون الولاية ويشرفون على إدارتها ، وهيئة أمراء المماليك ورجال الحامية العسكرية يشتركون فى الحكم والإدارة أيضاً إلى جانب مهمتها الحربية .

فقد كان الباشا على قمة الجهاز الإدارى ، وألقابه ، ومقره ، ومدة حكمه ، واختصاصات الباشا المدنية المحافظة على النظام العام ، وتفقد أحوال الرعايا وأحوال الأموال السلطانية وحفظ وحراسة الولاية ورعايا الأمن ، وله حق الإشراف علي جيمع الشئون الإدارية فى مصر عن طريق رئاسته لجلسات الديوان العالى ويحضره قادة الأوجاقات وينفذ أوامر السلطان لإدارة مصر ، وهو المسئول عن تطبيق قواعد الحكم العثمانى فيها . ورعاية المبادىء الخلقية فى ذلك العصر، وإبطال المنكرات والخمامير ومواقف الخواطىء والبوظ . وإقامة الاحتفالات عند علمه بانتصار الجيوش العثمانية ، ورئاسة الاحتفالات بوفاء النيل ، والاحتفال بالعيدين ، وحفل خروج المحمل والكسوة فى طريقها إلى الحجاز .

وتم التعرض لاختصاصات الباشا المالية ، حيث اعتبر المسؤول الأول عن مالية مصر ، والجهاز الذى يساعده فى ذلك مثل الدفتردار والروزنامجى ، وهو المسؤول عن إدارة خزينة مصر وموازنة إدارتها ومصروفاتها . وإرسال الخزينة الإرسالية إلى استانبول بالإضافة إلى الضريبة النوعية وتشمل مواد غذائية ترسل أيضاً . ودفع مرتبات الموظفين من مرتبات نقدية وعينية .

وعرفت أوامره الإدارية باسم البيورلدى وموارد الباشا ومصروفاته . وطريقة عزل الباشا وأسبابها ومحاسبته .

أما الديوان ، فكان يعرف باسم " ديوان محروسة مصر " و " ديوان حضرت ولى النعم والى مصر " ويرأسه الباشا أو الكتخدا . ويضم الديوان خلاصة العناصر التى تشترك فى إدارة مصر ، مثل الدفتردار ، والمهردار ، حامل الأختام والدويدار حامل الدواة ، وقاضى عسكر أفندى ، والمفتون على المذاهب الأربعة ، وكبار رجال الدين ، والأمراء الصناجقة وأغاوات واختيارية الأوجاقات السبع . ولهم مهمة ثابتة فى ذلك . كذلك وجد فى مصر الديوان الصغير وكان يجتمع فى كل الأيام فى قصر الباشا .

والحامية العثمانية والأوجاقات السبعة ، وهى هيئة حربية مهمتها الدفاع عن مصر والاشتراك فى حروب السلطان ، وكذلك لها اختصاصات أخرى غير حربية فهى تساعد الباشا

والصناجق فى توطيد الحكم العثمانى فى مصر ، وفى الوقت نفسه تراقب الباشا والصناجق وتوازن سلطتهم . وتم التعرض للأوجاقات السبعة مثل جماعات السباهية (الفرسان) ومنهم جماعة الكوكليان ومهمتهم وتفنكجيان سوارى ، الجراكسة ، ومستحفظان وعزبان وجاوشان متفرقة وأهم أعمالهم .

ويأتى بعد ذلك القضاء كعنصر من عناصر الإدارة واختصاصاتهم الإدارية مثل الإشراف على الأوقاف والمرتبات الخيرية المخصصة للعلماء أو المجاورين بالأزهر . أو لأهل الحرمين الشريفين ... إلخ ومدتهم واختصاصاتهم القضائية وخاصة لقضاة الأقاليم . ويساعدهم المفتون وإيراداتهم ومدة خدمتهم بالإضافة إلى الشخصيات الدينية الأخرى مثل نقيب الأشراف .

أما الإدارة المالية ، فقد تم التعرض لأقسام الخزينة السلطانية إلى قسمين :

١ - ديوان الدفترداز أو الديوان الدفترى .

٢ - ديوان الروزنامة .

ومن عمد النظام الأوجاقات العسكرية ، لذا فقد تعرضت لأهم الأعمال التى تقوم بها ومشاركتها فى ادارة الريف ، واستغلالها للفرص باستيلائها على أجود الأراضى الزراعية ، مما جعلهم مصدر قلق وازعاج للسلطات الحاكمة فى القاهرة ، وقد ازداد نفوذهم وقوتهم حيث قاموا بعزل بعض حكام جرجا عام ١١٢٠هـ/١٧٠٧م وقاموا بتعيين آخرين مكانهم متجاهلين السلطات الحاكمة .

وبينت التغييرات التى طرأت على منصب القضاة بعد أن أبطل السلطان سليمان المشرع نظام القضاة الأربعة فى مصر وعين قاضيا عثمانيا - قاضى عسكر أفندى - على أن يتصرف حسب المذاهب الأربعة ، وطريقة تعينه وتعيين نوابه ، والاهمال الذى تطرق الى هذا النظام ، كما تعرضت للمدة التى قضاها هؤلاء القضاة فى عملهم والمساعدين لهم ، وهم المفتون الذين كانوا موجودين بجانب القضاة .

أما الفصل الثالث: فيدور حول الحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م . حيث تتعرض مشروع الحملة والاستعداد ، والسياسة الأوروبية فى تلك الفترة ، وحالة الإمبراطورية العثمانية ، وسياسة فرنسا تجاه الشرق والمفهوم الجديد للحضارة ، وظهور نابليون بونابرت والثورة والشرق . ثم الاعداد للحملة وموقف انجلترا والدولة العثمانية ، ووصول الحملة إلى الإسكندرية واحتلالها واحتلال القاهرة والمقاومة المصرية والإجراءات التى اتخذها نابليون فى مصر ، ثم رحيل الحملة ونتائج الحملة الفرنسية على مصر .

ويتناول الفصل الرابع وصول محمد على إلى مصر، وكيف ساعدته الأحداث لتولى السلطة والحكم فيها وتأسيس الأسرة العلوية التى استمرت فى حكم مصر منذ عام ١٨٠٥ حتى عام ١٩٥٢م، والصعاب التى واجهته وكيف تغلّب عليها، وهى ممثلة فى حملة فريزر عام ١٨٠٧م، واحتلالها الإسكندرية ورشيد، والمقاومة الشعبية فى رشيد حتى جلاء الحملة، وموقف الدولة العثمانية من تعيينه والزعامة الشعبية التى ساعدته فى الوصول إلى الحكم وكيف تخلص منها ممثلة فى السيد عمر مكرم والعلماء، والانفراد بحكم مصر، والزعامة الفكرية الصامتة الممثلة فى عبد الرحمن الجبرتى بالإضافة إلى المماليك الذين تم القضاء على قوتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية بمذبحة القلعة عام ١٨١١م، مستغلاً أوامر السلطان العثمانى بإعداد حملات لشبه الجزيرة العربية لمواجهة الدعوة السلفية.

ثم استقرار الأمر له، وتم التعرض بعد ذلك إلى خلفاء محمد على بدءً من إبراهيم باشا النجل الأكبر له، ومعاونته فى إدارة الحكم فى مصر وقيادته للمعارك التى خاضتها مصر، وعباس الأول وسياسته التى كانت مغايرة تمامًا لكل من جده وعمه إبراهيم باشا، وجهود كل من سعيد باشا والخديو إسماعيل والمشاكل المالية التى واجهته، وعزله وتعيين ابنه توفيق، وحتى تم الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢م.

صلاح أحمد هريدى

الفصل الأول

الفتح العثمانى لمصر ونتائجه

أولاً : العلاقات المملوكية العثمانية :

فى أول الأمر ، فإن المماليك لم ينظروا إلى العثمانيين بمنظار العداوة ، أو حتى المنافسين لهم فى السيطرة أو النفوذ فى العالم الإسلامى ، على أساس أنهم لم يعادوهم بعد ، لأنهم فى نظرهم لايرقون إلى مرتبتهم ، حتى وإن كانوا قد أحرزوا انتصارات هائلة على القوى الصليبية فى آسيا الصغرى وأوربا ، إلا أنهم فى رأيهم لايقيمون مثلهم في قلب العالم الإسلامى والعربى ، وإنما فى آسيا الصغرى وأوربا ، موئل شعوب غير إسلامية ، فهم اتخذوا القسطنطينية عاصمة الروم السابقة عاصمة لهم ، وإن سموها إستانبول بكل ماكانت تمثله من عداء شديد للإسلام طوال قرون عديدة ، لذلك فهم مسلمون مجاهدون فقط [1] .

وعلى العكس ، فإن المماليك بسبب وجود دولتهم فى الشرق الإسلامى ، اعتبروا أنفسهم حماة الإسلام وعلى الخصوص بسبب اتخاذهم مصر قلب العروبة والإسلام ، مركز الثقل فيها ، قاعدة أصيلة لدولتهم الإسلامية المترامية الأطراف ، وخاصة أن سياستهم هى نفسها سياسة الفاطميين والأيوبيين من قبل ، باتخاذ مصر قاعدة للنضال فى سبيل الإسلام . ثم أن المماليك كان رصيدهم السابق بالنسبة للإسلام كبيراً جداً ، فهم الذين قطعوا دابر الصليبيين من الشرق، وإنهم هم الذين أوقفوا الخطر المغولى ، الذى لم يكن يقل تهديداً للبلاد الإسلامية عن الخطر الصليبى ، كما استطاعوا أن يعيدوا الخلافة التى قضى عليها المغول فى بغداد ، وبذلك أعادوا للإسلام ركناً هاماً فى شرعية وجوده ، بحيث أصبحت القاهرة مركز خلافة العباسيين. وبعد أن قاموا بهذه المهام الكبرى لصالح الإسلام العام ، فإنهم لم يستكينوا فى الجهاد ضد القوى المسيحية ، فهاهو برسباى يذكى روح الجهاد ويهاجم قبرص ثلاث حملات أخضعها له ، وانتصر على ملكهم جانوس الثانى لوزينان ، وأحضره معه أسيراً للقاهرة [2].

---

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر ، دراسة تحليلية للازدهار والانهيار ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٢٤(٣) ٣٢٥ .

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٥ .

ولذلك ، فإن المماليك لم يكونوا يخلطون أنفسهم بالعثمانيين أبداً على الرغم من أن كليهما من الترك ، وإن سعى كل منهما إلى إيجاد أصل عربى ، على أساس أن العروبة هى مادة الإسلام ، فالجراكسة اعتبروا أنفسهم من أصل عربى ، فهم يربطون نسبهم بقريش . وحتى العثمانيين كانوا يرون أن جدهم عثمان هو عربى من سكان نواحى المدينة ، وإن اتصل بالسلاجقة في آسية الصغرى وتكلم لغتهم . ويظهر عدم خلط أنفسهم بالعثمانيين فى أنهم كانوا يطلقون على دولتهم إسم العثمانية ، نسبة إلىّ عثمان جدهم أو الروم أو مملكة الروم[١] ، أما سلاطينهم فيطلق عليهم ملوك الروم من بنى عثمان[٢] ربما كان بسبب استقرارهم مكان الروم فى آسية الصغرى ، يطلق عليهم سلاجقة الروم ، لمجاورتهم لهؤلاء أو حتى لأنهم بعد ذلك أصبحوا مثل الروم يهاجمون فى بلاد الإسلام ، وهى على كل حال تسمية مقبولة من العثمانيين أنفسهم ، فقد كان سلطان العثمانيين - كما يظهر من مفاتيح الكعبة الشريفة - يسمى نفسه سلطان الروم[٣] .

وفى أول الأمر ، فإن المماليك مثل بقية المسلمين ، كان ثلج قلوبهم انتصارات العثمانيين على الروم ، وقضائهم نهائيًا عليهم . وفتحهم فى بلاد أوروبا ، بل يرون أنهم أفضل من سلاجقة الروم ، الذين عاصروا نشأة دولتهم ، ولو أن هؤلاء جاهدوا الروم والصليبيين من قبل، إلا أنه بسبب ضعفهم بعد ذلك ، نتيجة لانقسامهم فإنهم أصبحوا ضعافًا متداعيين . فكان مظهر التقدير للعثمانيين المجاهدين : هو أن الخليفة الذى يستظل بحماية المماليك فى مصر ، كان يرسل إلى سلاطين آل عثمان إذا وصل خبر انتصار للعثمانيين على الروم إلى مصر ، كانت تزين البلاد[٤] .

ومن ناحية العثمانيين ، فإنهم كانوا على وئام مع المماليك فى أول الأمر ، يظهر ذلك من الرسائل التى تبادلوها مع سلاطين المماليك ومعظمها بالعربية ، فيها تفخيم لهم باعتبارهم

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق ، محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٢، جـ ٣ ، ص ٢٣٧ .

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٥ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٣٧ .

(٤) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٦ .

قادة العرب ، وحماة الحرمين الشريفين ، أو أن السلطان المملوكي هو خادم المساجد الثلاثة ، أى المسجد الأقصى مضافًا للحرمين الشريفين . وأحيانًا تتبادل بتبادل عبارات الحب والوله ـ وإن كان ذلك من قبل سلاطين المماليك أيضًا (١).

ويظهر ذلك عندما تولى برقوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ / ١٣٨٣- ١٣٩٩م) عرش السلطنة فى مصر أرسل إليه السلطان العثمان مراد الأول (٧٦١ - ٧٩٢هـ/ ١٣٥٩- ١٣٨٨م) سفارة للتهنئة عام ١٣٨٨/٧٩٢م ومعها الهدايا وتحذره من تحركات تيمورلنك ، من تبريز نحو الغرب مما يهدد الدولتين المماليكية والعثمانية(٢) وإن لم يغفل برقوق نفسه عن هذا الخطر، إلا أنه كان يخاف أكثر من أطماع العثمانيين(٣) وخطورتهم على مستقبل دولته . فقال " أنى لا أخاف منه (تيمورلنك) فإن كان أحد يساعدنى عليه وإنما أخاف من ابن عثمان(٤) " .

وصدقت مخاوف برقوق ، فقد هاجم السلطان العثمانى بايزيد الأول (٧٩٣ - ٨٠٥هـ / ١٣٨٩- ١٤٠٢ م) قيصرية عام ٧٩٤ هـ / ١٣٩١م ، وقبض على أميرها الذى كان مشمولاً بحماية المماليك . ولكن بايزيد الأول سرعان ما أحس بحرج موقفه وخطأه مما أقدم ، عندما شعر بالخطر المغولى يقترب من بلاده ، ولاتصير له فى المنطقة سوى المماليك . فاعتذر لبرقوق عما أقدم عليه ، وأرسل له هدية ثمينة مع أحد رسله ، وطلب منه أن يبعث إليه أحد أطبائه المهرة لكى يشرف على علاجه ، فلبى برقوق طلب السلطان العثمانى ، وأرسل إليه الطبيب شمس الدين محمد بن الصغير ومعه الأدوية والعقاقير (٥).

وقد تبادل السلطانان رسائل الود والصداقة لتأكيد التحالف بينهما فقد أرسل برقوق رسالة إلى بايزيد الأول مع قاصده سعد الدين سعد الله البريدى ذكر له فيها " أن المملكتين كروحين

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع المصادر التركية والعربية المعاصرة له ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٥ - ٩ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٧٦ ، الطبعة الثانية ، ص ٢٦٦ ، إبراهيم بك حليم ، تاريخ الدولة العثمانية العلية ، المعروف بكتاب التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٩ .

(٣) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٥ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .

(٥) نفسه ، ص ٢٦٧ .

فى جسد وساعدين فى عضد " وشكا له من سوء معاملة الجنويين وكفار كفه - مدينة فى شبه جزيرة القرم - تطل على البحر الأسود لتجار المسلمين وابن قابونى ، فرد عليه بايزيد الأول برسالة فى ٦ شوال عام ٧٩٣ هـ / ١٣٩١م ، أوضح له فيها أنه أرسل قاصده إلى أمير جنوة وإلى مشركى كفة ، لتنبيههم إلى عدم التعرض لتجار المسلمين وأموالهم وإطلاق سراح السجناء منهم ، وابن قابونى وتسليم أموالهم إليهم كاملة ، وأكد على أواصر الصداقة بينهما، وطلب منه الاستمرار فى المراسلة (١).

ورد برقوق على بايزيد الأول برسالة عبر فيها عن فرحته بما ورد فى رسالته ، وبما قام به نحو حماية تجار المسلمين من اعتداء الجنويين عليهم . وذكر له أن تاجرين عثمانيين أحدهما يدعى الحاج تنكر ورمش من مماليك التاجر خواجة قاسم ، قد اتجر فى مصر بأموال مولاهما فى تجارة الفلفل على خلاف القوانين المصرية ، ثم طلب منه أن يعفو عنهما لكى يعودا بما معهما إلى صاحبهما (٢).

دأب السلطان بايزيد الأول على تأكيد صداقته واحترامه لسلاطين المماليك ، فأرسل عام ٧٩٧ هـ / ١٣٩٤م ، تحفًا وهدايا إلى الخليفة العباسى فى مصر هو المتوكل على الله فى ذلك الوقت ، طالبًا منه تشريفًا وتقليداً باعتماده سلطانًا ، فبعث له المتوكل بهذا التقليد ، وهذا دليل واضح على مدى مركز السلطنة المملوكية وسيادتها الإسلامية العليا ، فى المجال الدولى والعالمى(٣) . ومن ناحية أخرى فإن السلطان بايزيد الأول حرص على إرسال سفارة إلى مصر ليبشر المسلمين بانتصاره على التحالف الصليبى فى نيقوبوليس ٧٩٧ هـ / ١٣٩٦م ، كما أرسل إلى السلطان برقوق هدية من أسرى الفرنج بلغ عددهم مائتى أسير(٤) .

وفى عهد فرج بن برقوق (٨٠١ - ٨١٥ / ١٤٠٠ - ١٤١٢م) أغار بايزيد الأول على أطراف دولة المماليك واستولى عام ٨٠١ هـ / ١٤٠٠م على ملطية وداندرة . ولاشك فى أن

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٤- ٥ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٧ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٧ .

(٣) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ، منير بعلبكى ، بيروت الطبعة العاشرة ، بيروت ، لبنان ١٩٨٥ ، ص ٤٢٠ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٧ ، ص ٢٦٩ ؛ عبد الرازق الطنطاوى القرموط العلاقات المصرية العثمانية ، القاهرة١٩٨٦ ، ص ٤٢ .

ذلك العدوان كان كافيًا لحد ذاته لتحذير سلطنة المماليك من نوايا بنى عثمان ، هذا وإن كان خطر تيمورلنك ظل يدفع العثمانيين دفعًا إلى الاحتفاظ بود المماليك ، بدليل أن بايزيد عاد بعد قليل يطلب محالفة السلطان فرج لإقامة جبهة متحدة ضد الخطر المغولى المقترب من بلادهما ، فرفض فرج ذلك التحالف بعد مشاورة امرائه[١] . وأرسلوا يذكرونه بعدوانه على ملطية [٢]، وبهذا تمكن تيمورلنك من مداهمة كلا القوتين على انفراد فهاجم أراضى المملوكية، وتمكن من إنزال الهزيمة بالمماليك عام ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠م بالقرب من دمشق ، كما استطاع أن يهزم بايزيد الأول ويأسره فى موقعة " جوبوق أووه " القريبة من أنقرة فى عام ٨٠٤هـ/١٤٠٢م[٣].

وبعد أن أنهت آثار هزائم تيمورلنك عند كلا الجانبين عادت العلاقات الودية بين الدولتين من جديد ، ولكنهما اقتصرت على تبادل التهانى والهدايا عندما يتحقق النصر لأحداهما ضد عدوهما .

وفى عهد المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ - ١٤٢١م) الذى تولى عرش السلطنة، وتأخر سلطان العثمانيين الجديد محمد الأول فى تهنئته باعتلاء العرش وفى أواسط شهر ذى الحجة عام ٨١٧ هـ / ١٤١٤م أرسل السلطان محمد الأول كتابًا إلى السلطان المملوكي شيخ المحمودى على يد قاصده قوام الملك والدين قاض « اينه كول » من أعمال بروسة يعتذر فيه عن تأخره فى المراسلة بسبب ماوقع بينه وبين إخوته من نزاع عى العرش بعد موت أبيهم سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م ومساعدة تكفور[٤] من القسطنطينية عمانويل لهم وتحريضهم إياهم ضده ، ويهنئه باعتلاء العرش ، ويطلب منه تجديد أواصر الصداقة القديمة .

وقد أرسل محمد الأول هدية مع رسوله إلى السلطان المملوكى ، وقد رد السلطان المؤيد شيخ على رسالة السلطان محمد الأول ، يبين فيه سروره بما تحقق للسلطان محمد من نصر على تكفور القسطنطينية وأرسل هو الآخر هدية له . واستمرت العلاقات الطيبة بين الدولة

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٤٢٩.

(٢) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٩ .

(٣) نفسه ، ص ١٠ .

(٤) عبد الرزاق الطنطاوى القرموط ، المرجع السابق ، ص ٤٣ .

المملوكية والعثمانية ، وتبادل الطرفان الرسائل من آن لآخر تأكيداً لأواصر الصداقة وتبادل مايستجد من أخبار [١].

وتجددت العلاقات الودية بين السلطنة العثمانية والسلطنة المملوكية ، فأرسل السلطان العثماني مراد الثاني (٨٢٤ - ٨٥٤هـ / ١٤٢١- ١٤٥١م) سفارة عام ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ لتهنئة السلطان الأشرف برسباى (٨٢٥ - ٨٤١ هـ / ١٤٢٢- ١٤٣٨م) بالرسالة ومعها هدية ، وقد رد السلطان على الهدية ، ولكن قدر لهذه الهدية أن تقع فى أيدى قراصنة البحر المتوسط من القبارصة ، ومع ذلك فإن هذا لم يمنع السلطان مراد الثانى من إرسال سفارة عثمانية أخرى إلى برسباى عام ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦م ، وقد أقامت هذه السفارة فى القاهرة لحين مجىء ثالث حملات السلطان برسباى على قبرص عام ٨٣١ هـ / ١٤٢٧م ، وهى الحملة التى نجحت فى غزو الجزيرة وأسر ملكها جانوس لوزجنان ، وهنئه مراد الثانى بالفتح القبرصى ، الذى يسامى الفتح القدسى من قبل[٢] ويبدو أن أخبار هذا النصر الذى احرزته سلطنة المماليك أثار غيرة السلطان مراد الثانى العثمانى ، فبادر فى العام التالي ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨م ، بإرسال خمسين أسيراً أوربياً للسلطان برسباى[٣] الذى رد على ذلك معبراً عن فرحته الشديدة بنصر الإسلام وجنود المسلمين .

وعندما استولى العثمانيون على قلعة سلانيك فى ٥ رجب عام ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨م أرسل السلطان العثمانى قاصده بدر الدين محمود بك برسالة إلى السلطان المملوكى يزف إليه بشائر النصر ويخبره أيضًا بانتصاره على حاكم المملكة الأرناؤطية المسمى إيوان بعد تظاهره بعدم القدرة على دفع الجزية ، كما أرسل مراد الثانى رسوله هذا ليقدم مراسم التعزية فى وفاة شيخ المحمودى والتبشير بنصر العثمانيين وقد جهز معه بعض الهدايا[٤] .

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ١٢- ١٣ ، عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٩٨(٢) ٣٢٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣١٨ .

(٣) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

(٤) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

وفى عهد السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢ - ٨٥٧هـ / ١٤٢٨- ١٤٥٣م) زادت مظاهر الصداقة والود بين الطرفين ، وتوطدت العلاقة بينهما ، فتبادل مراد الثانى وجقمق الهدايا والرسل فى المناسبات المختلفة ، فبعد أن اعتلى جقمق سلطنة عرش مصر ، أرسل إلى مراد الثانى رسالة فى نفس العام مصحوبة ببعض الهدايا والتحف ، مع قاصده استدمر الخاصكى[1] . ليخبر مراداً بأخبار مصر . ولكى يظهر نواياه الطيبة مع العثمانيين أمر نواب السلطان العثمانى أحمد بك ، الذى كان حاكمًا على سيواس وتوقات وآماسيا وغيرها ، ثم طلب من مراد الثانى فى نهاية رسالته أن يسهل عودة التاجر المملوكى خواجا زين الدين بكيسمان بما عسى أن يكون صحبته من المماليك الأجلاب[2] .

وقد رد مراد الثانى بكتاب مصحوب ببعض الهدايا والتحف مع قاصده ولد بك لتهنئة جقمق بالجلوس على العرش ، ولتبشيره بفتح قلعة سمندرة ، وتخريب بلغراد وكوهين وطمشواز، وانتصاره على اليونانيين وقد امتلأت رسالة مراد الثانى بعبارات كلها تبجيل وإجلال مما يدل على مدى توثق عرى الصداقة والمحبة بينهما .

---

(١) الخاصكى : الخاصكية هم الذين يلازمون السلطان فى خلواته ، ويسوقون المحمل الشريف ، ويتعينون بكوامل الكفال ، ويجهزون فى المهمات الشريفة ، ويتعينون للإمرة ، والمقربون فى المملكة ، كان عددهم فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكيًا ، ثم ازدادوا على ذلك حتى صاروا فى أيام الأشرف برسباى نحو ألف خاصكى ، ومنهم من هو صاحب وظيفة ، ومنهم من ليس له وظيفة .

وأما فى الدولة العثمانية فإن كلمة خاصكى تطلق على هذه الطوائف الثلاث :

(١) الخاصكية من النساء .

(٢) والخاصكية طائفة من موظفى القصر تابعة لجماعة البستانجية كانوا يرسلون فى المهمات السرية إلى الولاة وغيرهم من كبار رجال الدولة وكانوا أيضًا حملة البريد من القصر ، ومنهم من يعرف باسم تبديل خاصكى ، يتجسسون مبدلين ثيابهم ، ويصاحبون السلطان إذا خرج للعس ، ومنهم ستون رجلاً يحافظون على السلطان إذا خرج فى موكبه للسفر .

(٣) كانت فى الجيش الانكشارى أربع كتائب تعرف بالخاصكية وهى الكتائب الآتية الرابعة عشر والتاسعة والأربعون والسادسة والستون والسابعة والستون وكان من هؤلاء الخاصكية متخصصون فى تربية كلاب الصيد ، وكان أربعة منهم يصاحبون السلطان إذا خرج للصيد . (انظر : أحمد السعيد سليمان ، تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٨٤ - ٨٥) .

(٢) عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، المرجع السابق ، ص ٥٤ - ٥٥ .

ولما وقعت معركة فارنا ببلغاريا الحالية عام ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤م ، إثر حصار هنيادى نائب رئيس ترانسلفانيا لبلغاريا ، وانضم إليه لادسلاس Ladislas ملك المجر لحصار فارنا ، وقد انتصر مراد الثانى على هذا التحالف ولقى لادسلاس ملك المجر مصرعه . وأسر الكثير من الصليبيين فأوفد مراد الثانى إلى جقمق بعض الأسرى ومنهم بعض الأمراء . واستمرت المراسلات وتبادل القصاد بين الطرفين (١).

وكان لهذه العلاقة الوطيدة بين جقمق ومراد الثانى أثرها فى استمرار صفائها فى محمد بن مراد (محمد الفاتح) (٨٥٥ - ٨٨٦هـ / ١٤٥١- ١٤٨١م) وتأكيداً لهذه العلاقة والمودة، أنه لما علم جقمق أن السلطان محمد الثانى أرسل جنده لتأديب بعض حكام شرق الأناضول الذين يقطعون طرق التجارة وينهبون الأموال ويستبيحون قتل الأنفس ، أرسل له عام ٨٥٥هـ / ١٤٥١ رسالة شكر على ما قام به خدمة للمسلمين (٢).

وفى عهد برسباى (٨٢٥ - ٨٤١ / ١٤٢٢- ١٤٣٨م) ازدادت أواصر الصداقة والمودة بين الأشراف برسباى وبين مراد الثانى (٨٢٤ - ٨٥٤ هـ / ١٤٢١ -١٤٥١م) ، وقد أظهر برسباى مع وفد عثمانى قدم إليه فى طريق الحج مودة ، وعامل أفراده معاملة طيبة . ولما ظهر خطر شاه رخ الخصم العنيد للمماليك والعثمانيين معا ، أعاد إلى الأذهان صورة أسر بايزيد الأول السابقة من تيمورلنك ، لذلك أسرع مراد بإرسال بعثة سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣م إلى القاهرة لتهنئة برسباى بالسلطنة ومعها هدية .

واغتبط برسباى بمقدم البعثة وبما احضروه معها من هدايا ثمينة . ثم رد برسباى على هذه الهدية بما يناسب مقام السلطنة العثمانية ، وليؤكد المودة بين الجانبين ، ولكن قدرة لهذه الهدية أن تقع فى أيدى قراصنة قبرص فى البحر المتوسط . وكان رد الفعل من جانب برسباى إلى أنه أرسل عدة حملات للقضاء على القراصنة القبارصة ، ونجح فى ذلك وأسر ملك الجزيرة جانوس لوزجنان وأقام احتفالاً بذلك ، وقد صادف هذا الاحتفال وجود بعثة عثمانية شهد أعضاؤها الاحتفالات المقامة ، ولما عادت البعثة العثمانية ، أعادت ذكر الاحتفال والاستقبال أمام

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص٢٧ ، ٢٨ ، يلماز اوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، استانبول ١٩٨٩م ، ص ١٢٧ .

(٢) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

سلطانهم الذي أثارته الغيرة ، ودفعته إلى القيام بحملة ضد ينال ، وزحف على بلاده فاستولى على طرسون وأدرنة وكولك ، وما أن سمع السلطان بهذه الأخبار ، عين على الفور تجريدة إلى ابن قرمان وقد استطاعت هذه القوات إعادة النظام والأمن إلى هذه المنطقة ، واستعادة البلاد التى انتزعها بن قرمان .

أما موقف السلطان محمد الفاتح ، فقد أرسل فى جمادى الأولى عام ٨٦٠هـ / ١٤٥٦م سفارة عثمانية ثانية برسالة تنبىء بانتصار قواته على الصرب فى وقعة نوفو بردا وغيرها من الوقعات الدامية ببلاد يوغسلافيا الحالية . وأرسل هدية للتأكيد على علاقات المودة بينهما[١].

ولما تولى السلطان قانصوه الغورى بعد قايتباى سعى إلى أن يصلح الأمور أكثر مع بايزيد الثانى ، فأعلن فى رسالة أن سلفه قايتباى " انعوج على المصادقة إلا أنه على عكسه يسعى إليها ، ويعترف بمواقف بايزيد فى الجهاد ، ويصفه بالسلطان الغازى . وتبدو حيطة الغورى فى أنه رفض مجىء ابن بايزيد الثانى قرقورد ، إلى مصر فى طريقه إلى الحج ، إلا إذا أذن له والده بذلك ، الذى كان قد وصل إلى القاهرة برسالة[٢] أو التماس إلى أبيه يستأذنه فى ذلك، مع بعض علماء الأزهر الشريف ، بحيث أن بايزيد الثانى أرسل رسالة للغورى شكره على ذلك، ويلقبه فيها بالأخ ، مما يدل على أن العلاقات الودية قد عادت بين المماليك والعثمانيين بعد التوتر السابق[٣] .

من الطبيعى أن تتأزم العلاقات بين السلطنة المملوكية والإمبراطورية العثمانية ، بسبب متاخمة أراضيها ، وسبب صراعهما على النفوذ ، خاصة وأن السلطنة المملوكية كانت فى مرحلة الانحطاط ، بينما كانت الإمبراطورية العثمانية فى طريقها إلى الأوج ، وتطمع بزعامة العالم، بشأن الدول الإسلامية الكبرى ، وقد وجدت عدة مناسبات للاحتكاك ، ثم الاصطدام بين المماليك والعثمانيين ، فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، ومطلع القرن السادس عشر.

---

(١) عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٢) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٧-٣٣١ .

(٣) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٢٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٣١ .

(١) الصراع على النفوذ فى منطقة ألبستان :

تركز الصراع على النفوذ بين المماليك والعثمانيين فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر فى منطقة ألبستان Albistan على الفرات الأعلى بين مرعش وملطية ، وسميت المنطقة بذلك نسبة لمدينة تحمل الاسم نفسه . وقد احتلها الصليبيون ثم الدانشماند المتمركزون فى سيواس ، ثم سلاجقة الروم المتمركزون فى قونية بين ٧٣٨ - ٧٤٠ هـ / ١٣٣٧ - ١٣٣٩م ، أصبحت البستان عاصمة إمارة ذى القدر ، وهى سلالة تركمانية حكمت حتى عام ٩٢٨هـ/١٥٢٢م . وقد استولى تيمورلنك عى هذه الإمارة فى عام ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م . كما أن السلطان محمد لأول تزوج من ابنة أميرها [١].

وفى عهد حاكم ألبستان ، ملك أرسلان (٨٥٨ - ٨٧هـ / ١٤٥٤ - ١٤٦٥م) تهددت هذه الإمارة من قبل أوزون حسن (حسن الطويل) حاكم إمارة الشاه الأبيض . وفى سنة ٨٧٠هـ / ١٤٦٥م اغتيل ملك أرسلان بتآمر أخيه شاه بداق ، الذى كان يؤيده السلطان المملوكى خشقدم ، والذى احتل مكانه ، بمساعدة السلطان العثمانى محمد الثانى ، وحين قوى شاه سوار رفض حماية العثمانيين له ، مما مكن المماليك من مهاجمته وقتله فى عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ وأعيد شاه بداق إلى الحكم . ولكن العثمانيين أيدوا أخاً آخر لشاه بداق يدعى علاء الدولة ، الذى تزوجت ابنته من السلطان العثمانى بايزيد الثانى ، وانجبت له سليماً الذى أصبح فيما بعد السلطان سليم الأول ، وفى عام ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩م . استطاع علاء الدولة أن يطرد شاه من الحكم [٢].

ووضح ذلك من أعمال هؤلاء الأخوة الحاكمين ، الواحد تلو الآخر ، النزعة القبلية التركمانية التى سادت هذه الإمارة والتى وجدت مشجعاً لها ، فى موقع الإمارة الاستراتيجى، بين المماليك والعثمانيين، الذى تمثل صراعهم على النفوذ فى المنطقة فى دعم أمير ضد آخر . ونتج عن ذلك ليس تأزم العلاقات بين أفراد الأسرة الحاكمة فى ألبستان فحسب ، بل اضطراب العلاقات بين المماليك والعثمانيين . كما أن توتر الوضع بين هاتين القوتين ، لأسباب أخرى ، كثيراً ما انعكس على العلاقات بين الأخوة فى الأسرة الحاكمة فى هذه الإمارة[٣] .

---

(١) عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت على مصر ، دمشق ، ١٩٦٨ ، ص ٤٥ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٣) نفسه ، ص٤٥ .

وقد بدأوا أول صدام مسلح بين المماليك والعثمانيين باعتداء قام به علاء الدولة أمير ذو القادر ، ومعه بعض الفرق من جنود العثمانيين عام ٨٨٩ هـ / ١٤٨٣م على الحدود المملوكية، فتصدى له تمراز الشمسي للمعتدين واستطاع أن ينزل هزيمة فادحة ، وأسر جنداً من قوات العثمانيين وعلى الرغم من انتصار المماليك ، فقد آثر قايتباى حقن الدماء وأرسل قاصده أمير آخور[١] الثاني جاني بك حبيب عام ٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥م ليعقد الصلح مع العثمانيين ، ويقدم للسلطان العثماني تقليد الخليفة العباسي ، بأن يكون بايزيد سلطانًا على بلاد الدولة العثمانية وما سيفتحه من البلاد الكفرية .

التقى القاصد بعد أن عبر الحدود المملوكية العثمانية بعلاء الدولة أمير ذو القادر . فاستوقفه الأمير المذكور ، وأرسل ما معه من رسائل وأخبار إلى الصدر الأعظم مع مصلح الدين بك لكي يعرضها على السلطان ، وحمله رسالة شخصية إلى الصدر الأعظم قال فيها :

" وعندما قدم إلينا عبدكم مصلح الدين ، جاءنا شخص من الشام يدعى خاير بك . وجاء قاصد الخليفة العباسي في مصر حاملاً معه رسالة . أخذ عبدكم المشار إليه الرسائل وحمل الأخبار وتوجه إلى خدمتكم لعرضها عليكم "[٢] .

---

(١) آخور : من الفارسية بمد الألف بمعنى المعلف أو المذود . ثم أطلقت على الأسطبل . وقد عرف صاحب هذه الوظيفة عند سلاجقة الروم ، باسمين أمير آخور وكنداصطبل .

وأمير الآخور عند المماليك هو الناظر في أمور الاسطبلات والمناخات السلطانية ورئيس العاملين بها جميعًا ، وأهم هؤلاء العاملين هو المسئول عن الأعلاف والمسمى بالسلاخور .

وكان يعاون أمير الآخور موظف إداري من المتعممين : أي من غير الجند ، يمسك بالسجلات ، وعدد من أمراء الآخور أدنى من أمير الآخور المبير درجة ، ولكل واحد منهم النظر في أمر نوع من أنواع الحيوان : فأمير آخور للمهاري وأمير آخور للدشار ينظر في أمور الإبل ، وأمير آخور للبقر كان يسمى أحيانًا بأمير آخور السواقي ، ويرأس أمير الآخور طوائف أخرى من العاملين بالاسطبلات كالبياطرة والأوجاقية « أوجاق : من التركية " أوجاق بضم الهمزة ضمة مبسوطة مفخمة ومعناه الأول في التركية الموقد والمدخنة ، ثم أطلق على كل ما تنفخ فيه نار فأطلق على البيت من وبر أو مدر ، ثم على أهله ثم على الجماعة تتلاقى في مكان واحد ثم أطلق على الطائفة من طوائف أرباب الحرف ، وعلى الصنف من أصناف الجند (انظر ، أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ١٩ » والغلمان والسواس والسقائين . وكان للبريد أمير آخور البريد يعني بدواب حمل البريد . (انظر ، السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ١١) .

(٢) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .

ويذكر أحمد فؤاد متولى[١] ويقول من المحتمل أن تكون الخيوط الأولى لخيانة خاير بك المشهورة فى تاريخ المماليك ، قد بدأت منذ ذلك الوقت الذى عبر فيه الحدود المملوكية العثمانية ، دون علم قايتباى ورغم وجود عداء شديد بين الدولتين ، واستمرت من بعد على شكل اتصالات مستمرة بين خاير بك وبين بايزيد الثانى وابنه سليم من بعده[٢] ونميل إلى الأخذ بهذا الاحتمال ، لأن الأحداث اللاحقة تؤيد ذلك .

ولم يذكر أحد المعارضين للفترة من مؤرخى العرب والعثمانين شيئًا عن توجه خاير بك إلى العثمانيين فى هذه الفترة . وليس هناك مجال للشك فى أن هذه أول مرة يعبر فيها خاير بك الحدود المشتركة لكى يلاقى العثمانيين [٣].

لم يستجب بايزيد الثانى لنداء الصلح ، وقام بالاعتداء على حدود المماليك المجاورة ، فإن قايتباى أرسل قائده أزبك بن ططخ نحوهم ، وأوقف تقدمهم واسترد المدن المستولى عليها ، وتكريمًا لهذا القائد ، أنشأ قايتباى مسجد عرف بمسجد الأزبكية ، حيث بقيت تسمية الأزبكية إلى وقتنا هذا ، على الرغم من زوال المسجد ، ولكن العثمانيين استمروا فى موقفهم العدائى ، وأرسلوا جيشًا كبيراً بقيادة على باشا ، الذى توغل مرة أخرى فى أطنة وطرسوس مما دعا قايتباى إلى أن يرسل أزبك من جديد ، الذى تمكن أن يهزم عليا باشا هزيمة منكرة[٤] .

ولما لم يكن قايتباى حينذاك فى وئام تام مع امرائه المماليك ، فإنه أقام السلام مع العثمانيين بقصد وقف العداء بينه وبينهم حقنًا لدماء المسلمين ، وقد استعان على ذلك بوساطة باى تونس المسمى عثمان الذى أرسل زين الدين أحد فقهائه المشهورين للتوسط بين بايزيد وقايتباى ، ومع لباقة الفقيه التونسى ، فإن الوساطة لم تنجح ، مما جعل قايتباى يتنازل للعثمانيين على أطنة وطرسوس ، وكان هذا أول وهن للمماليك أمام العثمانيين [٥].

(٢) لجوء بعض الأمراء العثمانيين إلى المماليك :

فى عام ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م لجأ إلى القاهرة الأمير سليمان العثمانى واخته فاطمة شهر زادة فراراً من السلطان مراد الثانى ، فأنزلهما السلطان برسباى القصور السلطانية برسباى القصور

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(٢) نفسه ، ص ٣٥ .

(٣) نفسه ، ص ٣٦ .

(٤) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٠ .

(٥) [illegible] ٣٣٠ .

السلطانية وأحسن وفادتهما ، ورفض طلب السلطان مراد الثانى إعادتهما إليه ، وذلك خشية أن يقتل الأمير سليمان خوفًا على عرشه ، على جارى عادة السلاطين العثمانيين فى قتل إخوانهم وأقاربهم ، فساءت العلاقات بين الطرفين . وقد التحق سليمان بحاشية يوسف بن برسباى ، وانضمت فاطمة إلى حريم القصر . وفى عام ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م تزوج برسباى فاطمة شهر زادة [١]. ولما فشل مراد فى استردادهما من برسباى دبر محاولة لإغراء العبد الذى هرب بهما إلى القاهرة لكى يحضرهما إلى استانبول ، ولكن المحاولة باءت بالفشل . لذلك ساءت العلاقة بين الطرفين مؤقتًا [٢] .

أما الحدث الثانى فهو الحادثة المعروفة بثورة الأمير جم وهو ابن السلطان العثمانى محمد الثانى (٨٥٥ - ٨٨٦هـ / ١٤٥١- ١٤٨١م) وقد عيّن حاكمًا على صنجق[٣] قسطمونى (فى شمال الأناضول) ثم ذهب إلى أدرنة لحمايتها ، حين كان السلطان محمد الثانى منهمكًا فى القتال ضد أوزون حسن . وحين انقطعت لفترة ، أخبار محمد الثانى عن جم أقنعه مستشاروه فى عام ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م بالبيعة له مكان أبيه ، وعندما عاد محمد الثانى قتل مستشارى جم . ويدل هذا الحادث على أن جم كانت تحدثه نفسه بالسلطنة ، متجاوزًا بذلك أسبقية أخيه الأكبر بيازيد الثانى ، ويبدو وبالفعل استمر جم يعمل فى هذا الاتجاه . وقد عين فى عام ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م حاكمًا على ولاية كرمان . وكان قرمانى محمد باشا الصدر الأعظم (٨٨١ - ٨٨٦هـ/٤٧٦-١٤٨١م) مقربًا إلى جم ، فى حين أن بيازيد الثانى كان يعارض سياسة قرمانى ، وخاصة إجراءاته المالية [٤].

---

(١) عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ص ٣٣٠ .

(٢) سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

(٣) صنجق : من التركية سنجاق وهى العلم والقسم من ولاية كبيرة ، والحاكم على قسم من ولاية ، وقد تكون الصنجقية أيضًا مجرد رتبة ، وصنجق طبل خانة يجمع بين مصطلحين ، مصطلح عثمانى ، ومصطلح مملوكى . فبعض الأمراء فى دولة المماليك ، كانوا أمراء طبلخانة ، أى يكسبهم مقامهم أن تدق لهم الطبول وغيرها من الآلات الموسيقية ، التى تتكون منها طبلخانة السلطان ، ولم يكن عدد الصناجق دائمًا أربعة وعشرين ، وقد احتفظت حكومة الدولة لنفسها بتعيين صناجق الثغور الثلاثة المهمة الأسكندرية ودمـ والسويس وكذلك كتخداء الوزير أو الباشا .

أما التعيين للصنجقيات الباقية ، فكان يحدث فى مصر نفسها لقوة المتنافسين عليها . فكان الرجل ذو النفوذ يسعى لأن يجعل الصناجق أو مماليكه وهكذا (انظر ، محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ، رسالة حسين أفندى الروزنامجى ، ص ١٤) .

(٤) يلماز أوزتونا ، المرجع السابق ، ص ١٨٥ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٧ .

وعندما توفى السلطان محمد الثانى عام ٨٨٦هـ / ١٤٨١م ، تجمع أعداء الصدر الأعظم، قرمانى محمد باشا فقتلوه ، وجعلوا بيازيد الثانى سلطانًا فى استانبول . ولكن جم توجه إلى بروسة ، وأعلنت له الخطبة فيها ، وضربت النقود بأسمه كسلطان . وقد رفض بيازيد اقتراح جم باقتسام السلطنة وهزم جم فى موقعة ينى شهر فى عام ٨٨٦هـ / ١٤٨١م ، وهرب جم إلى قونية ومنها إلى طرسوس التى كانت تحت نفوذ المماليك . والتجأ جم فى السنة نفسها إلى حلب فدمشق التى دخلها فى ٢٢ جمادى الأول عام ٨٨٦هـ / ١٩ يوليو ١٤٨١م ثم سافر فى ٣ رجب / ٢٨ أغسطس متوجهًا إلى مصر حيث رحب به السلطان المملوكى قايتباى ، وقد حج جم فى تلك السنة ليعرف المسلمين ، كما يبدو يعمل لقضيته[1] وقد أخطأ قايتباى بموافقة أمراء المماليك فى مصر فى تشجيع العنصر الضعيف وهو جم ضد بيازيد الذى نجح فى تولى السلطنة بفضل الانكشارية [2] وكبار رجال الدولة العثمانية على أساس تقدير قايتباى أن يمد يد المعونة إلى جم فى مصلحة دولة المماليك [3].

---

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٤٤٣ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٧ ؛ ابراهيم بك حليم ، تاريخ الدولة العثمانية المعروف بكتاب التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، ص ٧١ ؛ يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٨٦ .

(٢) انكشارى : تركية من الكلمتين - يكى yeni بالنون الخيوشمية جديد (٢) جرى cery بالجيم المشوبة بمعنى العسكر ، يكيجرى = العسكر الجديد ، ترد فى الجبرتى بصيغة الينكجرية .

جيش من المشاة ، أنشىء فى عهد أورخان (٧٢٦هـ/١٣٢٥م) كانت نواته من أهل الفتوة فى الأناضول ، ثم اعتمد على أبناء نصارى البلقان بعد تتريكهم وتنشئتهم على الإسلام ، كان جنوده عزابا ، ثم سمح لهم فى عهد السلطان الأول بالزواج بشرط كبر السن ، ثم أطلق حق الزواج ، جرى هذا الجيش على سنة أرباب الحرف فى اختيار شيخ patron لكل طائفة ، وكان شيخه هو الصوفى التركى الحاج بكتاش ولى .

كان لهم عدا المشاركة فى الحروب وظائف داخلية منها حراسة الديوان الهمايونى فى أثناء الاجتماعات ، والمحافظة على الأمن فى استانبول .

خسر معظم المعارك التى خاضها طوال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، واستعصى مع ذلك كل محاولات الإصلاح ، ورفض التدريب على فنون القتال الحديثة ، وقد استطاع السلطان محمود الثانى أن يدمره هو والطريقة البكتاشية (فى الواقعة الخيرية سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٨م) (انظر ، أحمد السعيد سليمان، المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٣) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٩ .

ترك الأمير جم مصر أمه ووالده ، وسار باتجاه بلاد الشام ، بعد أن ساعده السلطان قايتباى بالعتاد ضد بيازيد الثانى ، وفى ٧ ربيع الأول عام ٨٨٧ هـ / ٢٦ أبريل ١٤٨٢م خرج الأمير جم من دمشق متجهًا نحو حلب . ثم تابع سيره باتجاه الأناضول وانضم إليه أنصاره ، حيث هزم مرة أخرى ضد بيازيد فى موقعة ينى شهر فى ٢٣ جمادى الأولى / ٢ يوليو[1] ، وكان دعم السلطان قايتباى للأمير جم سببًا هامًا فى تأزم العلاقات المملوكية العثمانية ، التى انتهت بعد توتر دام ثلاث سنوات زال فى نهايتها خطر الأمير ، باصطدامات مسلحة بين الطرفين .

طلب بيازيد الثانى من أخيه جم الاستقرار فى القدس ، بعد تقديم مايحتاجه من مال ، إلا أن جم عقد اتفاقًا مع رئيس فرسان الاستبارية القديس يوحنا فى رودس ، ليساعده فى العبور إلى روميلية لمتابعة الثورة من هناك ضد بيازيد ، وقد اتصل رئيس الفرسان بالبابا إسكندر السادس طالبًا مساعدته لتأييد جم ، وذلك لإضعاف الدولة العثمانية . ولكن عقد السلطان بيازيد اتفاقًا مع رئيس الفرسان ، تنازل بيازيد بموجبه عن بعض الامتيازات لقاء احتجازهم فى رودس . وبالفعل خدع رئيس الفرسان جم بأن أعلنه بأنه سينقله بطريق فرنسا إلى هنغاريا لمتابعة الثورة منها ، ولكنه احتجزه مدة سبع سنوات بدئًا من عام ٨٧٧هـ / ١٤٨٢م . وقد توسط السلطان قايتباى وملك هنغاريا لانقاذ جم دون جدوى . ونقل جم فى عام ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م إلى روما ، وأرسل بيازيد وفداً إلى البابا لاحترام الاتفاق الذى عقده مع رئيس الفرسان . وقد حاول أيضًا ملك فرنسا نقل جم إليه ، ليساوم عليه ، ولكن جم توفى في نابلى فى عام ٩٠٠هـ / ٢٥ فبراير ١٤٩٥م[2] ويزعم أن دس له البابا السم خوفًا من أن يهاجم بيازيد الثانى فى إيطاليا[3] فاحضر السلطان جنازته إلى بورصة ودفن فيها .

وهكذا نرى كيف أن المساعدة التى قدمها المماليك للأمير جم قد أفسدت العلاقة بينهم وبين العثمانيين [4]. عندئذ قرر بيازيد الثانى الانتقام من قايتباى بالتحرش ببقايا الدولة

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٢٩ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٤- ٣٥

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ؛ إبراهيم بك حليم ، المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٣) كارل بروكلمان المرجع السابق ، ص ٤٤٣ ؛ يلماز أوزتونا ، المرجع السابق ص ١٨٦ .

(٤) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .

التيمورية فى إيران ، التى كان قايتباى قد حالفها ، ربما استشعاراً لطموح العثمانيين حيث كانت الدولة التيمورية على عداوة لهؤلاء منذ غزو تيمورلنك [(١)].

وبعد موت بايزيد الثانى ، تجدد النزاع بين العثمانيين والمماليك ، وحدثت حوادث متشابهة بالتجاء أحد أمراء آل عثمان إلى مصر ، بسبب النزاع على الحكم ، فقد قام بيازيد الثانى ، قبل موته بأن وزع مملكته بين أولاده ، مما أغضب ابنه سليمًا ، فتآمر سليم ضد والده معتمداً على الانكشارية ، على الخصوص وأجبره على التنازل عن السلطنة ، ودخل استنابول ، مما جعل والده يتركها إلى الكوفة بالعراق الذى توفى فيها عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢م . ثم حارب سليم أخاه الأكبر أحمد الذى لحق بأبيه خوفًا منه ، ولم يسمع بأحمد بعد ذلك إذ يبدو أن سليمًا قد قتل بيده معظم إخوته بما فيهم قرقورد ، وربما دس لأبيه السم ، كما يعتقد جمهور المؤرخين وهو ظن صائب بلاشك ، حتى عرف باسم ياووز Yuvuz أى الصارم أو الجبار البطاش[(٢)] .

ومع ذلك فقد تمكن أبناء أحمد المقتول من الهروب ، فقد هرب مراد إلى فارس ، أما الذين هربوا إلى مصر وهم على التوالى : سليمان وعلاء الدين ، وقاسم ، وإن كان الغورى قد استقبلهم على مضض . وقد مات سليمان وعلاء الدين بالطاعون . فأرسل سليم يطلب من الغورى تسليم قاسم ، وكان أصغرهم ، لايتعدى الثلاث عشر سنة . فرفض الغورى طلبه ، بسبب أن الغورى كان يرى أن سليمًا الذى أجترأ على ارتكاب كل هذه الجرائم ، لايتورع عن التحرش به ، خاصة وأن الأمور قد تأزمت بين الدولتين ، بسبب مدن الحدود ، أما سليم فقد وجد أن الغورى يتدخل فى شئون أسرته ، وعزم على حربه حربًا شاملة[(٣)] .

ومع ذلك فقد تأخر حرب سليم للمماليك ، بسبب حربه فى إيران ، التى اختصت بمذهب الإمامية الشيعى ، الذى يدعو إلى سلالة موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، من سلالة على بن

---

(١) كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٤٤٥ - ٤٤٦ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، آخر المماليك ، واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى ، تحقيق : عبد المنعم عامر ، ص ١٨- ١٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٩ .

(٢) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣١.

(٣) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٣٢ .

أبى طالب ، فعرفت بالجعفرية أيضًا ، نسبة إلى جعفر الصادق وبخاصة الإثنى عشرية ، بسبب استكمال الأئمة إلى إثنى عشر حيث آخرهم هو محمد بن الحسن المعروف بصاحب السرداب ، بسبب أنه غاب فى سرداب مسجد سامراء فى أيام المعتصم العباسى وهو الذى أصبح مهديهم المنتظر[١] بالإضافة إلى ذلك أدت سوء العلاقات ، قد أضيف إليه عنصر ثالث ألا وهو الصراع فى إمارة البستان بصورة غير مباشرة إلى ازدياد تأزم العلاقات بين المماليك والعثمانيين[٢].

٣ - قيام الإمارات التركمانية وأثر ذلك فى العلاقات بين المماليك والعثمانيين :

شهدت منطقة جنوب - شرق الأناضول - منذ معركة منزيكرت فى عام ٤٦٩هـ / ١٠٧١م تجمع قبائل تركمانية تمكن بعضها أحيانًا من تشكيل إمارات فيها ، مثل إمارة البستان ، أو دعم إمارات غازية ، مثل إمارة الدانشماند . وكان هذا الوضع ، بالإضافة إلى طبيعة المنطقة الهضبية المتوسطة ، الموقع بين سهول آسية وغربى الأناضول ، وروميلية ، البعيدة نسبيًا من سيطرة مراكز المدن الكبرى ، ومشجعًا للتركمان على اللجوء إليها[٣] .

وفى منتصف القرن الرابع عشر ، شكلت القبائل التركمانية المتجمعة فى ديار بكر ، والمناطق المجاورة لها إمارتين ، عرفت إحداهما باسم آق قيونلو أى الشاه الأبيض ، التى نشأت أساسًا فى آذربيجان أو منطقة الجبال ، موطن الإيرانيين الأوائل[٤] وكانت مناطق نفوذها ديار بكر ، وعرفت الأخرى باسم القراقيونلية أو الشاه الأسود ، وكانت مناطق نفوذها شمالى بحيرة وان Van وربما كانت التسمية نسبة لتربية الشاهين أو نسبة لتوتم خاص بهذه القبائل . وكانت هاتان الإمارتان عى نزاع مع بعضهما ، وزاد فى حدة ذلك أن إمارة الشاه الأبيض ، كانت سنية ، بينما كانت إمارة الشاه الأسود شيعية[٥] .

---

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٢ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٤) عبد المنعم ماجد ، طومان باى آخر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ١١٣ .

(٥) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

كان مؤسس إمارة الشاه الأبيض قرة بولاق حسن ، وقد تغلب على أمير إمارة الشاه الأسود قرة محمد حوالى عام ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م ، كما تغلب على برهان الدين حاكم سيواس العثمانى حوالى عام ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧م . وبمجىء تيمورلنك فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى ، وقف إلى جواره قرة بولاق عثمان ، واشترك معه فى معركة أنقرة عام ٨١٥ هـ / ١٤٠٢م ، فكافأه تيمورلنك بإعطائه حكم منطقة ديار بكر . ولكن قره بولاق عثمان لم يستطع بعد موت تيمورلنك ، إثبات نفوذه ، فى وجه منافسيه ، أمراء الشاه الأسود ، وظل الأمر كذلك حتى وفاته فى عام ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م ، ثم تلت ذلك فترة من الصراع بين أبناء قرة بولاق عثمان إلى أن ظهر أوزن حسن (٨٧١ - ٨٨٢هـ / ١٤٦٦ - ١٤٧٨م) ورفع من شأن إمارة الشاه الأبيض[١] .

انتصر أوزون حسن فى عام ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧م على شاه جيهان ، آخر حكام الشاه الأسود ، وضم إمارته إليه ، فازدادت بذلك سلطته كثيراً وامتدت نفوذه على أرمينية الكبرى ، وشمالى العراق ، وجزء من فارس ، مما أوقعه فى نزاع مع العثمانيين ، وكان هؤلاء يحاولون آنذاك ، بعد أن توطدت فتوحاتهم فى البلقان ، الاستيلاء على مابقى من الإمارات المسلمة فى الأناضول ، مما اضطر أمراء كرمان المهددين أن يتفقوا مع جارهم فى الشرق أوزون حسن . وقد أخذ العثمانيون يخشون أوزون حسن ، لأنه كأمير تركمانى سنى باستطاعته تهديد سلطاتهم المدنية والدينية فى منطقة حدودهم الجنوبية الشرقية حيث يسكن كثير من التركمان ، كما خشوا احتمال اتفاقه مع المماليك ضدهم[٢] .

حدثت عدة اصطدامات بين جيش السلطان العثمانى محمد الثانى وجيش أوزون حسن فى عامى ٨٧٧ ، ٨٧٨ هـ / ١٤٧٢ ، ١٤٧٣م ، وقد هزم العثمانيون فى موقعة قرب الفرات جيش أوزون حسن عام ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م . وكانت البنادق التى استخدكها الجيش العثمانى حاسمة فى القتال ضد فرسان أوزون حسن ، وفى هذا درس بليغ للمماليك . ولم يتابع السلطان العثمانى هجومه على إمارة أوزون حسن ، فسلمت ولكن هزيمة أوزون حسن كانت ضربة معنوية له ، جعلته يطلب النجدة من الدول الأوروبية وخاصة البندقية ، التى كانت تحاول

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٢) نفسه ، ص ٥٠ .

الإبقاء على نفوذها فى شرقى البحر المتوسط . ولكن السؤال لماذا يطلب النجدة من هذه الدول وليس من المماليك ؟ كان أوزون حسن بالنظر إلى موقع إمارته وإلى توسع سلطته ، يعتبر خطر بالنسبة للمماليك والعثمانيين ، على حد سواء ، وقد حاول أوزون حسن فى البدء كسب مودة المماليك ، ليتمكن من استخدام أراضيهم للوصول إلى ساحل البحر المتوسط والحصول على المعونة من الأوروبيين . ولم يكن المماليك آنذاك بحاجة إلى التحالف مع هذا الأمير الطموح لأنهم لم يكونوا واثقين من قدرته على البقاء فى الحكم ، ولأن ذلك سيدخلهم فى نزاع مع العثمانيين ، الذين كانت علاقاتهم بالمماليك طيبة آنذاك ، قبل أن تسوء بثورة جم. وفى محاولته الوصول إلى ساحل البحر المتوسط ، احتل أوزون حسن فى عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧١م ، حصن جرجر على الفرات ، جنوبى شرقى ملطية من أيدى الأمراء الأكراد ، الخاضعين للمماليك، فرد هؤلاء باحتلال مدينة البيرة منه . وقد حاول المندوب العثمانى لدى المماليك أثارتهم ضد أوزون حسن ، ولكن المماليك لم يشنوا عليه حرباً كبيرة ، ربما ليبقوه شوكة فى جنب العثمانيين[١].

تشب صراع داخلى فى أسرة أوزون حسن ، إثر هزيمة فى عام ٨٧٨هـ / أغسطس ١٤٧٣م. ولم تشجع هذه الهزيمة الدول الأوروبية وخاصة البندقية على مساعدته ، فعقدت هذه الأخيرة الصلح مع الدولة العثمانية فى عام ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م ، وقد توفى أوزون حسن فى تبريز فى رمضان عام ٨٨٢ هـ / يناير ١٤٧٨م . فخلفه ابنه يعقوب الذى حكم حتى عام ٨٩٦هـ / ١٤٩٠م ، دون حدوث أزمات كبرى فى عهده . وقد حاول التقرب من المماليك ، ولم يهدد ممتلكات العثمانيين الذين شغلوا فى عهده بثورة جم ، وبالصراع مع المماليك على النفوذ فى إمارة ألبستان[٢] .

وبدأ الصراع يدب بين أبناء يعقوب ، بعد وفاته ، واستغل ذلك الصفويون الذين بدأوا بتقويض حكم إمارة الشاه الأبيض السنية ، بواسطة دعاياتهم الشيعية بين قبائل التركمان وفى عام ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢م تغلب الشاه إسماعيل الصفوى على إمارة الشاه الأبيض فى معركة شرور ، فانتقل مركز حكم الإمارة إلى ماردين ، وساعدت فيما بعد العثمانيين ضد الصفويين ، وقتل آخر أمرائها فى حوالى ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م [٣].

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٢) نفسه ، ص ٥١ .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

إن قيام إمارتى الشاه الأبيض والشاه الأسود فى جنوبى شرقى الأناضول ، جذب إلى هذه المنطقة كثيراً من القبائل التركمانية التى قد انتقلت فى العهد السلجوقى إلى غربى الأناضول. وزاد فى اتجاه هذه القبائل من غربى الأناضول نحو الشرق استتباب الحكم العثمانى فى الغرب بالتدريج وكره القبائل ، تبعًا لذلك ، ازدياد وطأة السلطة المركزية . وهكذا إن الفترة التى شهدت انهيار سلطة الشاه الأبيض ، شهدت أيضًا تكاثر التركمان فى شرقى الأناضول . وقد التفت غالبية هذه القبائل بالإضافة إلى القبائل المنشقة من إمارة الشاه الأبيض ، حول قوة جديدة بدأت تظهر فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، فى المنطقة الممتدة بين شرقى الأناضول وشمالى فارس ، وهى قوة الصفويين التى ملأت بالتدريج الفراغ السياسى الذى بدأ يشمل هذه المنطقة[١] .

وينتسب الصفويون إلى الشيخ صفى الدين اسحق (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤م) الذى أسس طريقة صوفية فى أردبيل فى أذربيجان فى أواخر القرن الثالث عشر . وحين مر تيمورلنك بأردبيل ، إثر عودته من الأناضول طلب منه الشيخ على حفيد صفى الدين أن يطلق أسرى الروم (العثمانيين) ففعل وألحقهم بخدمته . كما أغدق تيمور على الصفويين الامتيازات والنعم .

وفى الفترة بين ٨٥٢ و ٨٦١ هـ / ١٤٤٨ ، ١٤٥٦ م طرد الشيخ جنيد ، حفيد على من أردبيل ، فاتصل بأوزون حسن ، وأقام عنده ثلاث سنوات (٨٦١ - ٨٦٣ هـ / ١٤٥٦ - ١٤٥٩م) وتزوج من أخته . كما أن الشيخ جنيد أقام مع السلطان العثمانى . وفى عهد الشيخ حيدر ، ابن الشيخ جنيد ، ازدادت أتباعهما وبسبب ازدياد قوتها عسكريًا ، فظلوا لما التفف من حولها من تركمان ، وقد اتصل الشيخ حيدر ، كما فعل والده من قبله ، بأوزون حسن ، وتزوج ابنته ، ولكنه قتل ، كما قتل والده من قبله ، فى حربه مع حاكم شروان ، شمالى آذربيجان فى عام ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨م . وبعد أن تنبه الصفويون إلى إمكانية التوسع فى غربى أردبيل ، أى فى شرقى الأناضول وشمالى فارس ، أتاح لهم ضعف إمارة الشاه الأبيض إثر وفاة أوزون حسن الفرصة لتأسيس دولتهم فى هذه المنطقة[٢].

يعتبر الشاه إسماعيل بن حيدر ، وهو سادس شخص ينحدر من صفى الدين ، المؤسس الفعلى للدولة الصفوية . وقد توصل إلى زعامة الصفويين فى عام ٩٠٧هـ / ١٥٠١م متخذاً

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٢ - ٥٣ .

تبريز عاصمة لهم ، كما ضم أجزاء من الأناضول المجاورة للدولة العثمانية ، وحتى أجزاء من بقايا الدولة التيمورية ، التى قامت فى بلاد ماوراء النهر ، وهزم قبائل السنية التى استقرت مكانها . وأكثر من ذلك أن الشاه إسماعيل الصفوى ضم أجزاء كثيرة من بلاد العرب مثل بلاد الجزيرة والعراق حتى أصبح يعرف بملك العراقين[١] إثر صراع على السلطة مع أخوته وسجل فى العام التالى نصراً عسكريًا على إمارة الشاه الأبيض ، مما أخاف المماليك ، فأخذوا يستعدون لقتاله . ويذكر أن إسماعيل الصفوى قد اعتمد على سبع قبائل تركمانية أسس منها جيشًا بلغ عدد أفراده سبعة آلاف دعوا بالقزلباش[٢] . وفى عام ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢م احتل إسماعيل شروان وآذربيجان ، وقسماً كبيراً من العراق ، واتخذ لقب شاه أى ملك وبذلك أصبح الحاكم الصفوى يتمتع بسلطة سياسية بالإضافة إلى السلطة الدينية فهو كحاكم سياسى كان يلقب شاها ، وكزعيم روحى فى النظام الصوفى الشيعى كان يلقب بالمرشد الأكبر[٣] .

---

(١) عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١١٤ .

(٢) القزلباش : اسم أطلقه العثمانيون على تسع قبائل من التركمان كانت تلبس قلانس حمراء على الرؤوس . وهى روملو وشاملو وواستاجلوا وبه لو وذو القادر وأفشار وقاجار وورساق وصوفية قرا باغ . والكلمة عبارة عن لفظين تركين الأول قزل) ومعناه أحمر اللون والثانى (باش) ومعناه رأس ومعنى الاصطلاح (أصحاب الرؤوس الحمراء) .

استطاع الشيخ صفى الدين الأردبيلى وأولاده من بعده - بزعامتهم لجماعة المتصوفة والدراويش - جذب الكثير من المريدين ليس فى إيران فحسب بل فى الولايات العثمانية من آسيا الصغرى والشام والعراق العربى بتأثير دعاياتهم القوية . وكان التصوف قد بدأ يشق طريقه إلى المجتمع الإيرانى فى ذلك الوقت .

وقد تحولت فرقة الدراويش التى يتزعمها الشيخ صفى الدين إلى مركز مذهبى لبث الدعوة الشيعية . وكان لممارسة شيوخ الأسرة الصفوية للناحيتين الدينية والعسكرية معًا الأثر الكبير فى إبراز قدرتهم ونفوذهم . وقد مهد لشيخ صفى الدين وأبناء جنيد المناخ لخليفتهم إسماعيل الصفوى الذى أعلن قيام الدولة مستفيداً من مركزه الروحى والمعنوى ومستخدماً أفراد القزلباش الذين لايهدفون إلى شىء سوى التضحية فى سبيل نصرة شيخهم ومرشدهم الكامل . ولايستطيع دارس للعصر الصفوى أن يتجاهل دور هذه القبائل فى إيجاد الكيان الصفوى .

وتطلق الوثائق العثمانية والعربية التى كتبها العثمانيون والمماليك فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) على إسماعيل الصفوى لقب الصوفى وعلى القزلباش لقب الصوفية ، وتصفهم بصفات مختلفة ، منها (الصوفية الملاحدة) (القزلباش) والطائفة المخذولة الأوباش و (الأوباش القزلباش الملاعين) و (طائفة الملاحدة الملاعين) دمرها الله . (انظر : أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٤٣) .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ٥٣ ، يلماز أوزتونا ، المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

قاد الشاه إسماعيل الصفوى الأول فى عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م حملة كبيرة ضد علاء الدولة حاكم ألبستان وتغلب عليه . وبذلك وصل الصفويون إلى جانب المماليك والعثمانيين ، ميدان الصراع على النفوذ فى منطقة ألبستان ، وحلوا فى هذا المكان مكان إمارة الشاه الأبيض . وعلى غرار أوزون حسن ، حاكم هذه الإمارة السابق ، حاول الشاه الاتصال بالفرنجة فى محاولة لإيجاد حلفاء . وقد توسعت ممتلكات الشاه إسماعيل فى عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م ، فأصبحت تمتد من هراة فى الشرق إلى بغداد وديار بكر فى الغرب ، وجعل مركز حكمه مدينة تبريز ، كما جعل المذهب الشيعى مذهب الدولة الرسمى ، وأخذ ينشره خارج حدوده ، مما آثار جيرانه السنيين . خانات بخارى والسلاطين العثمانيين . أما المماليك وهم سنيون أيضًا ، فكانوا بسبب ضعفهم ، ومنافسة العثمانيين لهم ، يحاولون التفاهم مع الصفويين[١] .

تغلب الشاه إسماعيل على شيبانى حاكم تركستان فى معركة قرب مرو فى عام ٩١٦ هـ / ١٥١٠م ، وأمن بذلك لفترة ، حدود فى الشرق ، ولكن نزاعه مع العثمانيين لم يكن يمثل تلك السهولة فالصفويين كقوة ناشئة ، كانوا يعتبرون بالنسبة للعثمانيين ، خطراً جديداً بتهديدهم وزاد فى الأمر أن الصفويين ، كشيعة متحمسين أثاروا نقمة العثمانيين[٢] . فقد كان يسكن مقاطعات الأناضول الشرقية ، الواقعة ضمن الدولة العثمانية كثير من القبائل تتجاوب مع دعوة الشاه الشيعية ، لأنها اعتبرته تركمانيًا مثلها ، وقامت فى عام ٩١٦هـ / ١٥١٠ - ١٥١١م حركة بين تركمان الأناضول بقيادة رجل يدعى شيطان قولى (وتعنى عبد الشيطان ، وربما سمى بذلك من قبل أعدائه لشره) الذى أعلن ولاءه للشاه إسماعيل ، والتفت من حوله جموع من التركمان ، مما اضطر العثمانيين إلى إرسال قوة قضت على حركته . وكانت هذه الحركة إنذاراً للعثمانيين بالخطر الذى يمثله الشاه إسماعيل بالنسبة لسكان الإمبراطورية العثمانية بالذات[٣].

أدت العوامل السابقة إلى تأزم العلاقات بين الصفويين والعثمانيين ، وزاد فى ذلك وصول السلطان سليم الأول العثمانى إلى الحكم فى عام ٩١٨هـ / ١٥١٢م . فقد تعرّض السلطان سليم فى أول عهده إلى ثورة عليه من قبل إخوته الطامعين فى الحكم ، والتجأ ابن أخيه أحمد

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٢) مرعى بن يوسف الحنبلى ، نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، ص ٥٤.

(٣) كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٤٤٦ .

الثائر إلى الشاه إسماعيل الذى استغل وجوده لتأليب المعارضة على السلطان سليم . وبعد ان وطد سليم سلطته فى الحكم عام ٩١٩ هـ / ١٥١٣م التفت إلى مقارعة الشاه إسماعيل الذى بدأ بدوره يستعد للدفاع . وكان السلطان سليم قد عقد ، أو ربما اتفاق مع الدول الأوروبية ، لإقامة السلم على حدوده فى الغرب ، وذلك ليتفرغ لقتال الصفويين ، ونتج عن استعدادات العثمانيين والصفويين أن اشتبكت جيوشهما فى القتال فى موقعة جالديران قرب تبريز فى عام ٩٢٠هـ / ٢٣ أغسطس عام ١٥١٤م وانتصرت قوات السلطان سليم على قوات الشاه إسماعيل . وقد أظهرت هذه الموقعة فعالية بنادق الرصاص والمدفعية التى استخدمها الانكشارية المشاة العثمانيون ، على نطاق واسع ضد قوى الصفويين المؤلفة بغالبيتها من التركمان الفرسان ، وتمكن العثمانيون من احتلال تبريز ، عاصمة الصفويين ، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء نهائيًا علي الصفويين أو على الشاه إسماعيل لأسباب كثيرة ، أهمها طبيعة بلاد فارس الجبلية ، وصعوبة المواصلات فيها ، وتمرد الانكشارية فى جيش السلطان سليم ، وكثرة الغلاء والقحط فى المنطقة بسبب سياسة الأرض المحروقة التى اتبعها الشاه إسماعيل بعد انسحابه ، إذ أتلف كل مايمكن أن يفيد منه العدو[١] وأيضًا بسبب ماذكر من تعرض المماليك لقوافل المؤن العثمانية[٢] وقد احتل العثمانيون نتيجة معركة جالديران ، منطقة الموصل ، ولكن منطقتى بغداد والبصرة بقيتا فى هذه الأثناء فى أيدى الصفويين إلى أن ضمها السلطان سليمان القانونى فى الربع الثانى من القرن السادس عشر ، وقد حاول الشاه إسماعيل أثر هزيمته فى جالديران التحالف مع الدول الأوروبية ضد العثمانيين ، ولكن بعد المسافة ، وعدم وجود حدود مشتركة لم تجعل ذلك ممكنًا[٣] .

أظهرت هزيمة جالديران ، بالنسبة للصفويين ، ضعف الأسس التى كان يقوم عليها جيشهم. فالشاه إسماعيل الصفوى كان يعتبر فى النظام الصوفي المرشد الكامل ، والمظهر الحى المتوارث للإله ، وذعى أتباعه من القزلباش المريدين . ولكن انكسار الشاه إسماعيل فى جالديران ، وهو أول انكسار له حطم أسطورة عدم غلبته . ورغم أن القزلباش ظلوا يعترفون ظاهريًا بهذه الأسطورة إلا أنهم لم يعودوا يقدمون عمليًا طاعة عمياء للحاكم . وبتحطم

---

(١) مرعى الحنبلى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٥ - ٥٦ .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٥ - ٥٦ .

الرابطة الدينية بين إسماعيل وأتباعه ، تشجع هؤلاء على التمرد عليه . واحتاج الشاه بعد ذلك إلى مقدرة كبيرة لإخضاع جنوده لأوامره ، وعوضًا عن أن يأمر فيطاع ، أصبح يبتهل إلى مشاعر أتباعه وولائهم بمخاطبتهم بتعبير شاهي سيفان أي الذين يحبون الشاه . وأخذ ولاء القزلباش يتحول من الشاه نحو القبيلة وزعيمها . وينعكس أثر هذا التبديل في الولاء وفي العلاقة بين الصوفيين ومرشدهم ، في انحطاط تعبير (صوفي) إذا ماقورن بتعبير (قزلباش) فتعبير صوفي فقد كثيراً من قيمته على مر الزمن ، حتى أنه أطلق في عام ١٠٧١هـ/١٦٦٠م على الكناسين خارج القصر الملكي[١] .

وبعد أن ضعف ولاء القبائل التركمانية ، نحو الشاه أخذ يحاول توطيد سلطته في وجه معارضتهم . وبدأت عملية التوطيد هذه بعد وفاة الشاه إسماعيل في عام ٩٣١هـ/١٥٢٤م، في عهد ابنه طهماسب الذي طرد أفراد القبائل المتمردة من الجيش . وبلغت هذه العملية أوجها في عهد الشاه إسماعيل عباس الأول (٩٩٦ - ١٠٣٩هـ / ١٥٨٧ - ١٦٢٩م) الذي أنقص عدد جنود القبائل ، وأوجد إلى جانبهم جنوداً من نوع آخر مزودين بالأسلحة النارية ويدينون بالولاء للحكومة المركزية مثل الجنود الإنكشارية في الدولة العثمانية . وكان يؤتى بالقسم الأكبر من هؤلاء الجنود الجدد من جورجيا والقفقاس ويدربون في مدارس خاصة . واستعادت بذلك الدولة الصفوية كثيراً من هيبتها العسكرية ، وتوالت اصطداماتها مع الدولة العثمانية[٢].

ثانيًا : الفتح العثماني للشام ومصر :

وكان موقف المماليك من هذا الصراع بين العثمانيين والصفويين ، موقف المترقب الذي ينتظر دوره ، إذ تيقن المماليك من طموح العثمانيين إلى الفتح في الشرق الإسلامي أيضًا ، ولو لجأوا إلى محاربة المسلمين ، مثلما يحاربون الفرنجة ، خصوصًا وأن سليمًا كان قد أرسل إلى السلطان قانصوه الغوري يتهدده أن تدخل في النزاع بينه وبين الشاه إسماعيل الصفوي[٣].

---

(١) مرعي الحنبلي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٣) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي ، ص ٣٣٦ .

وعلى كل حال أدرك الغورى أن قصد سليم من تحركه إلى الشرق لم يكن محاربة الصفويين، بقدر محاربته هو ، بدليل أن السلطان سليم لم يسر فى هزيمة الصفويين للنهاية ، وربما أيضًا بسبب أن بلاد الصفوى واسعة وجبلية أو حتى خوفًا من أن يهاجمه المماليك فى الوقت نفسه[١] ومع ذلك كان سليم فى وقت محاربته للصفوى يتحرش بالغورى ، بحجة أنه ينحاز إلى جانب الشيعة ضده[٢] واعتبر ذلك تحديًا له . وفى الوقت نفسه الذى أرسل فيه سليم إلى الغورى رسالة يصفه فيه بالوالد[٣] وذلك على حسب التقليد الذى جرى عليه سلاطين العثمانيين فى مكاتباتهم لسلاطين مصر ، ويطلب فيها سكراً وحلوى[٤] حيث أسرع الغورى بإرسال مائة قنطار[٥] منها فى علب كبار ، فإنه أخذ يهاجم الإمارات التركمانية الحليفة للغورى على الحدود ، التى تقع بين العثمانيين والصفويين والمماليك ، وتعتبر لهؤلاء منافذ للتجارة القادمة من الشرق[٦] وبعد انتصار سليم على الصفويين قضى على إمارة ذى القادر[٧] التى تقع فى وديان طوروس ، حليفة الغورى ، كما استولى على بعض مدن الحدود المصرية مثل مرعش التى كان نائب الغورى عليها ، وهو علاء الدين الذى ساعد الشاه إسماعيل من قبل ضد سليم ، وأصبحت حدود سليم ملاصقة لحدود مصر[٨] .

ويبدو أن إرادة قتال العثمانيين المماليك أصبحت أمراً مسلمًا به لديهم ، بسبب أن المماليك كانوا يسيطرون على الحرمين الشريفين ، وأن العقلية الإسلامية وقتذاك لاتقبل أن يكون صاحب سيادة وشرعية على المسلمين ، إلا من كان يسيطر على الحرمين الشريفين . ولما كان

---

(١) كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٤٧١ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٧ ؛ إبراهيم بك حليم ، المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٢) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٣) محمد بن إياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٤٣٤ .

(٤) نفسه ، جـ ٤ ، ص ٤٣٥ .

(٥) قنطار : وحدة من وحدات الوزن ، وكان حجمه يختلف تبعًا للزمان ، كذلك المكان الذى يستخدم فيه عملية الوزن ، وفى أواخر العصر المملوكى كان يتراوح وزن القنطار مابين ٤٥ ، ٩٦ كيلو جرام ، وفى سنة ١٦٦٥م وصل وزنه إلى ١٢٠ كيلوجرام . (انظر : سميرة فهمى ، إمارة الحج فى مصر العثمانية ، ص١٢٠).

(٦) إبراهيم طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ١٧٧ .

(٧) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ٣٤٢- ٣٤٥ .

٨ - عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٨ .

العثمانيون يريدون أن تكون لهم زعامة المسلمين دون المماليك : فإنهم لم يتهيأ لهم هذه الزعامة إلا بالاستيلاء على أملاك المماليك فى الحرمين الشريفين ، ومن قبل فإن سليمًا قد أرسل إلى شريف مكة بركات هدايا منها مفتاح وطبلة للكعبة ، وذلك دون استئذان الغورى الذى غضب على شريف مكة[١] .

ويؤيد الطموح العثمانى تلك الأقوال التي نقلت عن سليم ومن حوله[٢] قبل فتح مصر ، فقد وجه الصدر الأعظم العثمانى ، هرسك زاده أحمد باشا ، أخبره بقوة المماليك عندما أسر . وحذره من ذلك كذلك ورد على لسان آخر فى حاشية سليم قوله " ... إن ولاية الحرمين وقيام الخلافة ، سيؤولان إلى أسرة العثمانيين ، وحتى شيخ الإسلام زنبللى على أفندى[٣] قد إفتى بشرعية التحرك إلى مصر وشن حرب عليها ، فقال " الحرب ولقتال مع أهلها غزو وجهاد ... والمقتول على أيديهم شهيد ومجاهد "[٤] .

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ١٢٤- ١٢٥ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٣٩ .

(٢) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٣) أفندى : من الكلمة اليونانية (أفنديس) المأخوذة من الكلمة اليونانية Avbents دخلت اللغة العثمانية الأناضولية فى وقت مبكر . واستعملها العثمانيون فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فى الحديث عن ملكة خاتون بنت جلال الدين الرومى بقول الأفلاكى (أفندك يرمك قيرى) أى بنت أفندينا أى سيدنا ، وكثر استعمالها بعد ذلك فى العهد العثمانى ، وقد استعملها محمد الفاتح فى فرمانه الموجه لأهل غلطة ، حيث قال جمله بمعنى أنا السيد العظيم ، واستعملها العثمانيون لقبًا للرجل الذى يقرأ ويكتب ولقبًا لبعض كبار الموظفين ، فقد كان يقال لرئيس الكتاب «رئيس أفندى » ولقاضى استانبول « استانبول أفنديسى » أى أفندى استانبول . وكانت لقبًا للأمراء أولاد السلاطين ، وأطلقت على مشايخ الإسلام ، وكثيراً ماتقول (العلا أبو السعود أفندى ، وكان العثمانيون يطلقونها على روساء الديانات الأخرى ، وكان الجيش العثمانى يلقب الضباط بلقب أفندى حتى رتبة البكباشى ، فأما الملازمون واليوزباشية (والآلية العلالية) أى المتخرجون فى الالاى ، وهم الذين يقال لهم فى مصر من تحت السلاح ، فقد كانوا لأميتهم يلقبون أغا لا بلقب أفندى وكانت المرأة تلقب بلقب أفندى . فيقال (خانم أفندى) وكان يقال لزوجة السلطان (قادين أفندى) وربما ألحقت كلمة أفندى بكلمة بك . وكانت كلمة أفندى تطلق فى العربية على الكاتب الموظف فى الدولة ، وكان الروزنامجى فى مصر هو رئيس الأفندية (انظر ، أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ص ٢٠) .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٤٤ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٣٩ .

غادر قانصوه الغورى مصر ، باتجاه الشام ، فى ١٥ ربيع الثانى عام ٩٢٢هـ / ١٨ مايو ١٥١٦م على رأس جيش كبير ضم حوالى خمسة آلاف من القرانصة[١] والأجلاب وأولاد الناس ، عدا عن السيفية ، وعين طومان باى نائبًا عنه[٢] واصطحب معه الخليفة العباسى المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن المستمسك بالله الذى كان مقيمًا فى مصر يتحكم به سلاطينها ويستخدمون نفوذه الدينى لأغراضهم ، وأهل العلم جيمعًا فى مصر وقضاة القضاة والمتصوفة وغيرهم [٣] وكان هدف الغورى استعادة مرعش من العثمانيين وتخليص ألبستان من نفوذهم [٤]ودخل الغورى دمشق فى ١٨ جمادي الأول عام ٩٢٢ هـ / ١٩ يونيو ١٥١٦م. واستقبل فى دمشق استقبالاً رسميًا حافلاً ، برز فيه كبار الإداريين المماليك والقضاء والعلماء الفرنجة المستأمنون فى دمشق . ونثر صدقة اليهودى الدراهم[٥] على الأهالى بهذه المناسبة للتعبير عن ولائهم ولكسب رضى السلطان ، وربما لاستثارة الشعب للترحيب به وفى يوم

---

(١) القرانصة : هم مماليك السلاطين السابقين فهم مماليك تابعين لسلطان حاكم ، وكانوا قبلاً أجلاب السلاطين السابقين وسموا قرانص أو قرانصة وتألف هؤلاء من طوائف مختلفة ، وكانت كل منها تتبع سلطانًا. ونظراً لكثرة عدد السلاطين بسبب قصر مدد حكمهم ، خاصة فى عهد المماليك الجراكسة ، ازداد عدد هذه الوظائف ، وازدادت بالتالى المنافسة بينهم . وكان هذا عامل إضعاف لهم أجلاب السلطان الحاكم المؤلفين من طبقة متراصة متجانسة واستغل السلطان الحاكم المؤلفين من طبقة متراصة متجانسة . واستغل الحاكم كثرة طوائف القرانصة لضرب طائفة بالأخرى . والرابطة الوحيدة التى كانت تجمع بين القرانصة هى كرههم للأجلاب الذين هم عادة أصغر منهم سنًا وأقل خبرة ويحاولون مع ذلك أن يطغوا بنفوذهم عليهم (انظر ، عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٦) .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٤٤ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٩ .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ص ٤٧ .

(٥) الدرهم : وحدة من وحدات السكة الإسلامية الفضية ، وهو مشتق من اسم الدراخمة اليونانية ، وقد استعاره العرب فى المعاملات من الفرس إذ كانت الأقاليم الشرقية من العالم الإسلامى تتعامل بالدرهم الفضية عند الفتح العربى لها . ويزن الدرهم ١٥ قيراطًا . والقيراط أربع حبات والحبة واحدة . الحب وتعنى بذور الشعير ، ويبلغ وزن الشرعة سبعة أعشار الدينار أى ٢,٩٧ جرامًا . ولازالت بعض البلاد العربية تستعمل الدراهم كعملة أساسية إلى اليوم ، وإن كانت غير فضية . (انظر ، سميرة فهمى ، المرجع السابق ، ص ٨٢) .

الأربعاء ٢٤ جمادى الأولى ٩٢٢ هـ / ٢٥ يوليو ١٥١٦م غادر الغورى دمشق متجهًا نحو حلب ، وانضم إليه في القطفة نائب حلب خاير بك ، ونائب حماة جان بردى الغزالى [١].

ولم يستمع الغورى لنصيحة نائبه فى الشام سيباى[٢] الذى كان يتمتع باحترام وتقدير أهل الشام ، بأن لايأتى لمحاربة سليم بنفسه ، وإنما يمده بالعسكر[٣] واستحلفه ألا يحارب فى هذا العام لوجود قحط فى البلاد[٤] وعلى العكس فإن الغورى كان يتخوف من سيباى ، ويظن بأنه يسعى أن يحل محله ، ويسأل رجال الطالع ، فيقولون له أن من يتولى السلطنة من بعده يبدأ اسمه بحرف سين[٥] فيظن له أن هو سيباى فى الشام ، وربما قد أتى هذا الخوف من سيباى ، من أن نواب الشام كثيراً ماكانوا يثورون ضد سلاطينهم وأحيانًا يتولون السلطنة من دونهم[٦] .

كذلك كان المماليك الذين اصطحبوه إلى الشام فى نزاع فيما بينهم مماليك الجلبان[٧] . أى الذين اشتراهم السلطان لنفسه ، وجلبهم من خارج مصر وبلغ عددهم فى عهد السلطان الغورى ١٣ ألفــا[٨] أصبحوا يعادون مماليك السلاطين السابقين قبله ، والذين عرفوا بالمماليك السلطانية أو القرانص أو القرانصة أو القرانيص ، ولعل أساس النزاع بن الفريقين قد أتى من تقريب الغورى لمماليكه الجلبان على حساب الآخرين[٩] فكان يترتب على تنازعهم حدوث فوضى وفتن فى البلاد ، حتى قيل أنه قبل سيره إلى الشام ، وكان قد قتل أحد جلبانه ، فاتهم به القرانصة[١٠] وربما كان تحت تحريض الجلبان من مماليكه ، فإنه ترك كثيراً من القرانصة فى مصر [١١] .

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٢) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٠.

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٥٢ .

(٤) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٥) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥١ .

(٦) نفسه ، ص ٣٥١ .

(٧) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥١ .

(٨) نفسه ، ص ٣٥١ .

(٩) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٦ .

(١٠) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٥٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى، ص ٣٤١ .

(١١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٣ .

ومما يؤكد أن الغورى قد أخذ حرب سليم بخفة ، من أن خروجه إلى الشام سمى فقط تجريدة[١] وليس حملة وأنه خرج فى موكب تتقدمه الأفيال تفوح منها رائحة البخور ، وحتى صحبته المغانى[٢] كما أخذ معه آلات السلاح الفاخر ، المستعملة فى المواكب الرسمية من ذخائر السلاطين السابقين ، مثل السيوف والسروج المذهبة والمزينة بالجواهر ، وحملت على خمسين جملاً[٣] .

وظن الغورى أن مجرد ظهوره على الحدود الشمالية من سلطنة سيخيف سليم فيتنازل له عما يريد . وكان الغورى فى الوقت ذاته يفاوض الشاه إسماعيل الصفوى ليتحالف معه ضد العثمانيين . ولكن وقوع مراسلات الغورى مع الشاه إسماعيل فى أيدى العثمانيين ، جعل سليمًا يتعجل الأمر للقضاء على جيش المماليك . ولهذا استولى سليم عنتاب واستعد للمسير نحو حلب للقاء الغورى ، فقد قصد فعلاً من مجيئه إلى بلاد الشام مجرد إخافة العثمانيين ودفعهم للتنازل له عما يطلب ، فيكون ، إزاء ماحدث قد أساء التقدير ، لأنه بعمله هذا استثار العثمانيين ودفعهم إلى القتال [٤].

وقد أسرع الغورى فور وصوله إلى حلب بإرساله الأمير مغلباى إلى سليم ، ومعه نص الصلح ، كما أن خطبة إمام جامع حلب كانت كلها عن الصلح ، وحتى الأمراء المماليك ينتظرون الجواب بالصلح ، ويحنون العودة إلى الوطن[٥] إلا أن سليمًا رفض الصلح وقبض على رسول الغورى[٦] ووضعه فى الحديد ، وحلق لحيته[٧] وربما أرسل إليه الغورى آخرين ، فقطع سليم رؤوسهم[٨] ، مما جعل الغورى يدفع بطوالع جنده إلى مرج دابق[٩] من مدن الحدود ،

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٢) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٥٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٢ .

(٣) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٥٣ .

(٤) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٥) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى، ص ٣٤٣ .

(٦) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٣ .

(٧) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٦٣ .

(٨) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٩) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٣ .

قرب حلب ، وقال إنها إرادة الله . وخوفًا من غدر أمرائه فإنه جمعهم وجعلهم يقسمون على المصحف الشريف أن لايخونوه ولايغدروا ، فأقسم كلهم على ذلك ، أما غير الأمراء من الجند، فإنهم مروا تحت سيفين على هيئة قنطرة ، عنوان القسم على الولاء [١].

ولقد قسم الغورى عسكره ، بإزاء عسكر سليم ، فوضع فى المقدمة سيباى نائب الشام ، وميمنة على رأسها جان بردى الغزالى نائب حماة ، وميسرة على رأسها خاير بك نائب حلب ، أما هو فقد أقام لنفسه فى الوسط سرادقًا كبيراً ، وقد أحاط به الخليفة وقضاة القضاة ، وأعلام رجال الصوفية ، وقاسم بك ابن أخ سليم وغيرهم ، وحولهم أربعون مصحفًا منها مصحف الصحابى الخليفة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، الذى قتل وهو يقرأ القرآن . وقد طلب الغورى من القراء قراءة الختمة[٢] وقرأها معهم ، كما أكثر من الصلاة ، وعلى الرغم من أن سيباى قد شك أن خاير بك يتراسل مع سليم وأراد قتله ، إلا أن الغورى لم يستمع له ، خوفًا من أن يقتتل المماليك فيما بينهم[٣] .

واصطدم الجيشان المملوكى والعثمانى فى ٢٥ رجب عام ٩٢٢هـ / ٢٤ أغسطس ١٥١٦م، فى موضع يعرف بتل الفار فى مرج دابق ، وإن أحاطت بها الخيانة منذ بدايتها . فقد سرت إشاعة مغرضة بأن الغورى يريد أن يتخلص من القرانصة ، وأنه طلب من الجلبان وهم مماليكه ألا يقاتلوا ، مما جعل لقرانصة الذين كانوا فى المقدمة يتوقفون عن القتال[٤] ، مما ترتب عليه الهزيمة الكاملة وفرار المماليك بجميع فئاتهم ، وكان خاير بك أول من هرب من الأمراء[٥] وتبعه جان بردى الغزالى فلعلهما كانا متفقين في الباطن مع سليم[٦] حيث كان كلاهما يرى فى نفسه أنه أحق بالسلطنة من الغورى ، ومع ذلك لم يكن تصرفهما جديداً على الأمراء

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٦٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٤٣.

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٤ .

(٣) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٦٤ .

(٤) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٥) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٩ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٤ .

(٦) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٩ - ٧٠ .

المماليك الذين تعودوا على خيانة سلطانهم[١] هذا كان الحال بالنسبة للمماليك أما الجيش العثماني بالمقابل ، يتمتع بكثير من التنظيم إذ أن الفساد لم يدب بعد بشكل كبير فى صفوف الأنكشارية ، فكانوا عنصراً فعالاً فى القتال ، وأحسنوا استخدام الأسلحة النارية . وكانت الدولة العثمانية فى أوج قوتها تخرج من نصر إلى آخر . وكان انتصار قواتها قبل فترة وجيزة وفى منطقة قريبة فى جالديران عام ٩٢٠هـ / ١٥١٤م ثبطًا لهمة المماليك بقدر ماكان مشجعًا للعثمانيين على القتال [٢].

وقد حاول الغورى أن يوقف فرار المماليك - خاصة من الجلبان - حيث أصبح فى نفر قليل، وكان ينادى بصوته[٣] هذا وقت المروة هذا وقت النجدة ، إلا أن المماليك استمروا يفرون ، حينئذ طوى حامل راية السلطان الصنجق السلطاني رايته ، وحدث شلل مفاجىء للسلطان وفاضت روحه ، بعد أن انقلب عن فرسه ، وأن يبدو أن رأسه قد قطعت ، حتى لايتعرف عليه العثمانيون فلم تظهر له جثة بين القتلى[٤] وكأن الأرض ابتلعتها فى الحال إذ كانت جثث كثيرة ملقاه بلا رؤوس ، فقد قتل كثير من أمراء الشام ومصر فوق الأربعين منهم سيباى نائب الشام [٥].

حينئذ أستولى سليم على خيام الغورى ، وأستولى على ما فيها من أسلحة ، وخاصة سيفه، ومال وتحف واحتوى على خيام الأمراء ، بحيث لم يقع لأحد من سلاطين العثمانيين مثل ذلك ، كما أنه أخذ الخليفة وعدداً كبيراً من الأسرى[٦] .

عاد الغزالى إلى دمشق يوم الثلاثاء فى ٥ شعبان عام ٩٢٢هـ/٣سبتمبر ١٥١٦م ، ونادى به الأمراء المماليك نائبًا عليها ، أما السلطان سليم فتابع سيره إلى حلب ، يرافقه خاير بك ،

---

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ٣٤٤ .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٧٠ - ٧١ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٣) نفسه ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٤) نفسه ، ص ٢٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٤ .

(٥) نفسه ، ص ٢٩ .

(٦) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٧١ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٣٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٤٥ .

فخلع زى المماليك ، ويرغبهم فى الدخول تحت طاعة سليم ، ويعدهم بأن يبقى كل أمير فى منطقته ويحفظ له رزقه[١]. بحيث سماه سليم " خاين بك " بدلاً من خاير بك وبذلك أشبه الوزير ابن العلقمى ، الذى خان خليفته المستعصم آخر خلفاء العباسيين فى العراق وملك بغداد[٢]. والخليفة العباسى ودخلها بقبول أهلها الذين طردوا عساكر المماليك الهاربين حين حاولوا اللجوء إليها ، وذلك بسبب ماقاسوا منهم قبل المعركة ، وخطب للسلطان سليم فى جوامع حلب فى يوم الجمعة ٨ شعبان ، ولقب بخادم الحرمين الشريفين ، وقد أستولى على أموال المماليك فيها ، وأحسن إلى العلماء . وبعد أن عين حاكمًا عثمانيًا عليها ، توجه للاستيلاء على دمشق[٣] .

وعين الغزالى الذى ظل يؤيد فى الظاهرة ، السلطنة المملوكية حكامًا من قبله على حماة وحمص ، وتحالف مع ناصر الدين بن الحنش ، الأمير البدوى المسيطر عى البقاع ، وعينة حسب طلبه نائبًا على حمص ، لقاء تعهده بمقاومة العثمانيين وحماية المنطقة الممتدة بين حماة والبقاع : كما عين صهر ابن الحنش ، ابن جاتياى البدوى الملقب بأمير الشام ، على بلاد حوران والمرج . إلا أن أخبار تقدم السلطان العثمانى جعلت حاكمى حماة وحمص يفران إلى دمشق . وأخذ المماليك ومن بينهم الغزالى يخرجون منها باتجاه مصر . وتسلم نائب القلعة المملوكى المحافظة على الأمن فى دمشق . وقد استغل الذعر فى المدينة اضطراب الوضع السياسى ، وقاموا بهجمات المماليك وحصل نزاع بين أهل المزة وداريا الذين استفادوا من الفوضى لتصفية خلافات قديمة[٤].

أرسل السلطان سليم الرسل إلى دمشق يطلب تسليمها ، فاجتمع العلماء ومشايخ الحارات، وقرروا تسليم البلد . ولكن نائب القلعة المملوكى عارض ذلك واعتصم بالقلعة . وكان هدف العلماء ومشايخ الحارات الذين ألقيت عليهم القبض المسؤولية، حماية البلد من النهب، وخاصة وأن حكم المماليك وتعدى الجند على الأهالى،لم يكن فيه ما يجعلهم يدافعون

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٧١ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٣٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٥ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(٣) نفسه ، ص ١٠٠ .

(٤) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .

عنه ، بعد أن فشل المماليك عسكريًا . وساعد على ذلك أن عرب الشام لما تحققوا من موت السلطان الغورى ، وثب بعضهم على بعض ، ونهبوا زروع الشام ، واضطربت أحواله[١] وحتى دمشق التى قد بدأت المقاومة على يد ابن الحنش[٢] أمير العربان إلا أن أحوال دمشق كانت قد فسدت بعد مقتل سيباى نائب الشام ، بحيث نهبت أسواقها واضطر أهلها إلى الخروج منها ، فقتل العثمانيون لما دخلوها عدداً كبيراً من أمرائها المماليك ، ومن كانوا قد لجأوا إليها غير الرعيـة[٣] . وفى يوم الجمعة ٢٩ شعبان / ٢٧ سبتمبر دخل فريق من العثمانيين إلى دمشق ضم المتسلم ، وخاير بك . وقدم بعد ذلك الوالى العثمانى يونس باشا المعين لدمشق . وقد وفق خاير بك بين الوالى ونائبه فى القلعة ، ريثما يصل السلطان العثمانى . وخطب فى ذلك اليوم فى الجامع الأموى اسم السلطان سليم وأخذ الجنود العثمانيون يتوافدون على دمشق . كما وصل إليها ، القاضى الحنفى زين العابدين بن الغزى الرومى فتعاطى الحسبة[٤] فيها ، وعين من قبله قضاة من المذاهب الحنفية والمالكية والشافعية، وأدخل بعض التنظيمات القضائية[٥].

وصل السلطان سليم فى رمضان عام ٩٢٢ هـ / ٢٩ سبتمبر ١٥١٦م إلى برزة فى ظاهرة دمشق ، فقدم له قضاة المذاهب الأربعة والسيد كمال الدين بن حمزة ومعه جماعة من الأشراف[٦] خضوعهم ، وكذلك فعل نائب القلعة المملوكى . وكان مع السلطان سليم الخليفة

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٠ .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٧١ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٧٤ .

(٤)أمين الاحتساب : وصحته أمين الحسبة ، وهو الشخص المسئول عن الإشراف على طوائف الحرف القائمة على صنع المأكولات ، للتأكد من صحتها وخلوها من الغش ، ومراقبة الأوزان والمقاييس والمكاييل ومعرفة الأسعار ، ومعاقبة كل مخالف لها ، والتشهير به . (انظر : محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٢٠) .

(٥) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ١٠٢ .

(٦) الأشراف : كلمة أشراف تعنى أولئك الذين هم من نسل سيدنا محمد (ﷺ) ، سواء إن كان ذلك عن طريق إنحدارهم من الأب أو الأم ، ولم يكن هؤلاء بالضرورة رجال دين ، وإنما كان منهم التاجر والصانع والفلاح ، وقد تمتع الأشراف باحترام خاص بين جموع الناس ، وشكلوا جماعة منفصلة ، وكان يطلق على =

العباسى ، وقد هرع ناصر الدين بن الحنش أمير البقاع فقدم الطاعة للسلطان سليم فمنحه صنجقًا وبعض الإقطاعات والتزام ابن الحنش بأن يقدم البدو ولاءهم للسلطان العثمانى[1] .

وأدخل الإداريون العثمانيون فى دمشق تنظيمات جديدة فيما يختص بالقضاء والعلماء والشئون المالية . وطلب القاضى الحنفى العثمانى من أرباب الوظائف الدينية إحضار مستنداتهم للموافقة عليهما من قبله ومن قبل قاضى العسكر[2] العثمانى ، وكانوا يدفعون رسمًا لقاء ذلك . وبدأ الدفتردار[3] العثمانى بتسجيل الدخل والمنصرف ، وطلب إحضار المربعات والمناشير التى منحت بموجبها الإقطاعات ، فى السابق ، لينظر فيها ، كما أجرى إحصاء للسكان ، والممتلكات فى دمشق . حدث كل هذا والسلطان مقيم فى برزة ، وقد كان أثناء ذلك فى إحدى حمامات دمشق ، كما صلى فى الجامع الأموى . وكانت قوته العسكرية

= رئيس هذه الجماعة ، اسمُ نقيب الأشراف أو النقيب ، وتختاره الدولة من أبرز هؤلاء الأشراف ، وكانت وظيفته محترمة ، وكان لنقيب الأشراف فى استانبول سلطة على نقباء الأشراف فى الولايات وهو الذى كان يعينهم ، وكان له سلطة قضائية عليهم . (انظر : عبد العزيز محمد الشناوى ، الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٨م ، ص ٣٢٤) .

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٢) قاضى العسكر : أنشأت الدولة العثمانية على رأس النظام القضائى قاضى القضاة أو رئيس القضاة. وكان يطلق على شاغل هذا المنصب اسم قاضى عسكر . وكان مقره العاصمة . ويشرف على أعمال القضاة فى سائر أنحاء الدولة . ويقوم بترشيح من يقع اختياره عليهم لشغل وظائف القضاة على اختلاف فئاتهم ، ويراقب أعمالهم ، ويعد حركات تنقلاتهم ، وتعرض عليه التقارير والمذكرات التى يبعث بها إليه قضاة الأقاليم . وكانت تقوم بجانب قاضى عسكر أجهزة فنية وإدارية يعمل فيها موظفون بمثابة مساعدين له، وأطلقت عليهم شتى المصطلحات ، نذكر منها على سبيل المثال ، المطبعجى ، والتطبيقجى والمكتوبجى وكان يحتفظ بعضهم بسجلات تحوى أسماء القضاة وفئاتهم ، وكان يختص بعضهم بإعداد كشوف مرتبات القضاة ، ومن إليهم ، بينما كان يحتفظ فريق آخر بصور من أختام القضاة للتحقيق من صحة الأختام على المذكرات والتقارير التى ترفع إلى قضاى العسكر (انظر : عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق جـ ١ ، ص ٤٢٤) .

٣ – دفتردار : دخلت كلمة دفتردار فى الفارسية بلفظها ويعنى جماعة الصحف ، وأما (دار) ففارسية بحت ، ومعناها الصاحب أو القيم . فالدفتردار لغويًا هو صاحب الدفتر . وكان الدفتردار بمثابة وزير للمالية . وينص قانون محمد الفاتح على أن فتح الخزينة الخاصة بالمال وخزانة الدفاتر وإغلاقها إذا لزم الأمر بمحضر من الدفتردار (انظر : أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ٩٨ – ٩٩ ؛ وانظر أيضًا : محمد شفيق غربال : المرجع السابق ، ص ١٦) .

وخاصة الأسلحة النارية التى جربها فى تظاهره قوة ، وهو فى برزة ، فظنت أهل دمشق أن السماء انطبقت على الأرض مرهبة للأهالى ، فلم يثوروا على الإجراءات التى قام بها موظفوه. ولكن حصل تعد من قبل الجنود العثمانيين على الأهالى فى دمشق إذ استخدموا منازلهم للسكن ، ولم يوقروا حتى العلماء مما أثار النقمة فى النفوس (١).

ويبدو أن هدف السلطان سليم من إقامته فى برزة مراقبة الوضع فى دمشق ، وتهيئة الجو لدخوله ورؤية رد فعل الدمشقيين تجاه الإجراءات وجد السلطان سليم الجو مناسبًا ليدخل دمشق كمنقذ لأهلها ، فدخلها فى ١٣ رمضان / ١٠ أكتوبر ووزع المال على العلماء ، وعزل يونس باشا من نيابة دمشق فى محاولة منه(٢) ، كما يبدو لإرضاء الدمشقيين ، وعين مكانه شهاب الدين أحمد بن يخشى . كما أنه عين لنيابة القلعة أميراً عثمانيًا . وعزم سليم على هدم البيوت والمحلات المبنية حول القلعة وسور المدينة ، ليعزز تحصيناته العسكرية ، كما فعل فى حلب . ويدل وجود البيوت والمحلات فى هذه الأماكن الاستراتيجية على الإهمال العسكرى زمن المماليك ، ويفسر ذلك بعدم تعرض المماليك إلى غزو خارجى منذ غزو تيمورلنك فى مطلع القرن الخامس عشر (٣). وقد حاول سليم التعويض على أصحاب الأماكن إلا أن كثرة التعويضات على هذه الأماكن المقدرة جعلته يعدل عن خطة الهدم . ويظهر أيضًا أنه كان يحرص فى هذه المرحلة على كسب رضى الأهالى ، ويؤيد ذلك طرده للدفتردار العثمانى الذى تشكى عليه أهل القرى بسبب متطلباته المالية. وفى محاولة من سليم لزيد تقربه إلى السكان، وليكسب عطف العلماء والرأى العام الإسلامى ، وليظهر أنه جدير بلقب خادم الحرمين الشريفين فقد زين ثوب المحمل ، الذى يرافق الحاج إلى الحجاز ، وعين جنداً كثيراً إلى غزة والقدس والمناطق المجاورة للمحافظة على سلامة الحاج ، ويبدو أن إرسال هؤلاء الجند كان يقصد منه أيضًا رؤية رد الفعل لدى مماليك مصر فيما لو توسع جنوبًا وهاجم مصر (٤).

ويبدو أن سليمًا لم يكن فى هذه الأثناء ، مهتمًا جداً بفتح مصر . لقد حطم إمكانية التحالف بين الصفويين والمماليك ، وفتح بلاد الشام ، وفى هذا فوائد عسكرية ودينية كبيرة .

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٢) نفسه ، ص ١٠٢ .

(٣) نفسه ، ص ١٠٣ .

(٤) نفسه ، ص ١٠٣ .

ثم أن حملته على مصر ستعرضه لمخاطر اجتياز منطقة سيناء ، بما فى ذلك خطر هجوم البدو عليه ، وامتداد خطوط مواصلاته[١] وأن سهولة فتح بلاد الشام يجب ألا تؤخذ مقياسًا فى فتح مصر . والمماليك فى بلاد الشام كانوا قلة ، إذا ما قورنوا بأعدادهم فى مصر . كما أن كراهية الشعب فى بلاد الشام للمماليك ونقمته عى ظلمهم وتعسفهم ، وخاصة منهم الأجلاب، بسبب اعتدادهم برعاية السلاطين المباشرة لهم ، سهلت الفتح العثمانى الذى لم يلق مقاومة شعبية . ومع ذلك فإن الفتح العثمانى والحق يقال ، لم يلق ترحيبًا حارًا ، لأن السكان المحليين إنما كانوا يستبدلون حاكمًا (تركى اللغة بحاكم آخر تركى اللغة) وكان سليم يتوقع أن تكون المقاومة المملوكية أثر عنفًا فى مصر ، نظرًا لتمركز المماليك فيها ، واعتبارهم مصر آخر معقل لهم . ويضاف إلى هذه الاعتبارات أن توغل العثمانيين فى مصر من شأنه أن يشجع الصفويين على استجماع قوتهم ، وإعادة تهديد المناطق العثمانية ، وهذا ماتم بالفعل ، بعد قليل ، إذ هرع سليم ، إثر فتحه لمصر لرد خطر هجمات الصفويين على بلاده . كما أن فتح العثمانيين لمصر سيترتب عليه التزامات دفاعية جديدة ، ويجعلهم وجهًا لوجه أمام الخطر البرتغالى فى البحر الأحمر . ولهذه الأسباب مجتمعة فاوض السلطان سليم وهو فى دمشق ، طومان باى سلطان المماليك الجديد على الخضوع له ، والبقاء حاكمًا فى مصر من قبله ، شريطة أن تضرب السكة فى مصر باسم السلطان العثمانى ، وتكون الخطبة باسمه أيضًا[٢] .

١ - الموقف فى مصر :

فى ذلك الوقت نجد أن أهل القاهرة لما علموا بموت السلطان قانصوه الغورى فى حربه مع العثمانيين ، اختاروا نائب الغيبة طومان باى على أساس أن محمداً ابن الغورى كان صغير السن ، ولأن الغورى نفسه كان قد أوصى جميع أمرائه أنه إذا ما أصابه شىء أن يسلطنوا عليهم طومان باى[٣] إلا أن طومان باى امتنع فى أول الأمر غاية الامتناع ، بسبب قلة المال ، والخوف من عدم التفاف المماليك حوله ، وإمكانية الغدر به ، واستمر تمنعه مدة خمسين يومًا ،

---

١) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٣١ - ٣٤ .

(٢) محمد ابن أياس الحنفى، الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٢٢ - ١٢٥ ؛ أحمد بن زنبل الرمال، المرجع السابق ، ص ٢٦ - ٢٧ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٨٥ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٤٦ - ٤٧ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٥ .

إلا أنه قبلها بعد ذلك تحت ضغط رجال الدين ، فى مصر وبخاصة عالم وشيخ كبير منهم ، اسمه أبو السعود الجراحى [١]. فكانت مبايعة طومان باى بالسلطنة فى مصر فى يوم ١٤ رمضان ٩٢٢هـ / ١١ أكتوبر ١٥١٦م ، ولقب بالملك الصالح ، فكان رجال الدين يأتون بالأمراء المماليك ، ويجبرونهم على وضع أيديهم على المصحف الشريف ويحلفون عليه ، أنهم إذا سلطنوه ألاّ يتآمروا ولايغدروا ولايثيروا شغبًا ، وأنهم ينهون عن مظالم المسلمين قاطبة . ولا شك ماقام به زعماء المصريين فى هذا الصدد كان مبدأ خطيراً فى تقاليد مصر الإسلامية[٢] وفى اليوم التالى عيَّن طومان باى جان بردى الغزالى نائبًا من قبله . وكانت الخطبة فى مصر أعلنت فى الفترة بين وصول أنباء موت السلطان الغورى وسلطنة طومان باى ، باسم الخليفة فقط . وكان الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله محتجزاً آنذاك ، لدى سليم، ويرافقه فى تنقلاته ، بينما كان والد الخليفة يعقوب وشقيقه هارون موجودين فى مصر، وكان المماليك يلجأون إليهما لاسباغ الشرعية على أعمالهم ، ولإثارة الرأى العام الدينى على العثمانيين ، كما حدث فى مبايعة يعقوب للسلطان طومان باى بطريقة الوكالة عن الخليفة محمد المتوكل على الله[٣] .

رفض طومان باى تحت إلحاح أمراء المماليك ، عرض التبعية للسلطان سليم ، وقتل المماليك رسل العثمانيين الذين حملوا العرض إلى مصر . وليس هذا الرفض بالأمر الغريب نظراً لتألم المماليك من انكساراتهم ، ولأن قبولهم العرض العثمانى يعنى مساهمتهم فى القضاء على سلطنتهم . ولكن الغريب حقًا استمرار اعتداد المماليك بفروسيتهم رغم ماقاسوا فى سبيلها من انكسارات وعدم اعترافهم بفاعلية رصاص العثمانيين ، وبالتالى عدم استخدامهم له بصورة فعالة فى صفوفهم ، وإزاء هذا الرفض وبإلحاح من خاير بك على السلطان سليم بالتوجه إلى مصر طمعًا بحكمها من قبل العثمانيين وخوفًا على حياته إذا لم يقض على السلطنة المملوكية ، بعد الاستيلاء على مناطق غزة والقدس وانعدام المقاومة الشعبية له ، (أرسلت قلعة صفد مفاتيحها للسلطان سليم وهو فى دمشق) ، غزو مصر

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٨٦ .

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٥ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٠٢ - ١٠٥ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

وبالفعل فإن وجود قوة معادية للسلطان سليم فى مصر من شأنه أن يهدد حكمه فى بلاد الشام[(١)].

ومع ذلك ، فقد حدثت معركة حقيقية فى غزة ، بحيث اعتبر أنه لم تحدث معركة فى الشام، بعد مرج دابق ، إلا فيها وخاصة وأن نائب الغورى فيها ، كان قد طلب من طومان باى أن يمده بالعسكر[(٢)] وبالفعل شرع طومان باى فى إعداد الجند وجمع منهم عشرة آلاف[(٣)] فأرسل إليه بعض المماليك الذين كانوا فى الطباق - وهى المدارس الحربية المملوكية - ولم يكونوا قد اشتركوا فى القتال بعد[(٤)] ، كما أرسل إليها بعض الذين هربوا من الأمراء ومماليكهم من مدن الشام الأخرى ، وإن كانت سمة هؤلاء التباطىء والتراخى والتقاعس الزايد بسبب أن طومان باى لم يجد المال الكافى لينفق عليهم[(٥)] ، وأظهر بعضهم الجبن وأراد أن يهرب من القاهرة[(٦)] بحيث اضطر طومان باى أن يظهر أنه يذهب بنفسه لقتال سليم[(٧)] ويستحثهم طلب منهم القتال عن أعراضهم وأموالهم . كذلك أرسل بعض رماة البنادق من أهل مصر وسودانها[(٨)] - العبيد - بقيادة الأمير جان بردى الغزالى ، أما العثمانيون بقيادة الوزير سنان باشا[(٩)] فى ١٦ ذى القعدة / ١١ ديسمبر وذلك عند خان يونس ، وأسر جان بردى الغزالى ، وكاد العثمانيون يجزون رأسه لولا غلمانه الذى خلصوه . وقد انتقم العثمانيون من أهل غزة بسبب أنهم ساعدوا المماليك ، فقتلوا منهم ألف إنسان من الرجال والنساء والأطفال[(١٠)] ، أما المماليك الذين نجوا من هذه المعركة - وهم قلة - فإنهم عادوا إلى وهم فى أسوأ حال ، بعضهم جاءها راكبًا الحمير ، وقد فقد سلاحه ، وملابسه ، أو حتى حافيًا [(١١)].

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٥ .
(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٧٥ .
(٣) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٧٩ .
(٤) نفسه ، جـ٥ ، ص ٨٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .
(٥) محمد بن أياس الحنفى ، جـ ٥ ، ص ٨١ - ٨٤ .
(٦) نفسه ، جـ٥ ، ص ٨١ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٩ .
(٧) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٨١ .
(٨) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٨٢ .
(٩) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٨٢ .
(١٠) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٨٩ .
(١١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ،ص٩١؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٤٩ .

وزاد من مشاكل القاهرة ، أنه بعد هزيمة غزة بالذات هاجر إلى القاهرة أهالى الشرقية وبلبيس خوفًا من النهب والقتل إذا ما تحرك العثمانيون نحو مصر ، فكانت هجرتهم من الكوارث ، إذ تبع ذلك أن قلت الأقوات وأرتفعت أسعارها ، وقل الدقيق والخبز ، وتعطلت الطواحين مما جعل طومان باى يغير المحتسب [١].

وقد ساعد بدو سيناء العثمانيين فى معركة خان يونس ، وأرهب هذا الانتصار بدو بنى بقر المسيطرين على إقليم الشرقية فى مصر ، فتقدم شيخهم أحمد بن بقر وأولاده عبد الدايم وبيبرس ولاءهم للسلطان سليم الذى أبقاهم وغيرهم من مشايخ البدو المؤيدين له على مناطقهم وامتيازاتهم [٢]وكان ولاء البدو عاملاً هامًا ، فى نجاح العثمانيين لأنه لو لم يكن الأمر كذلك لكان بإمكانهم إشغال قسم كبير من الجيش العثمانى فى قتالهم ، فى منطقة هم أدرى بجغرافيتها ، عدا عن تهددهم لقوافل المؤن . ولم تخرج قافلة الحاج المصرى ، فى هذه الأثناء إلى الحجاز ، للاضطرابات فى مصر ، وكان أثر ذلك شديداً لدى الرأى العام الإسلامى[٣] .

وكان من رأى طومان باى أن يهاجم سليمًا فى وسط الطريق ، ولايتركه حتى يأتى إلى القاهرة ، على أساس أن صحراء شرقى مصر وقسوتها ، من الممكن أن تنهك جيشه[٤] ولكن تحت إلحاح أمراء المماليك ، فإنه اضطر أن يطرح استراتيجية للمعركة كما كان يريدها ، جانبًا وأجبر على انتظار مجىء العثمانيين . ولذلك لم يجد هؤلاء أى مقاومة فى زحفهم على مصر، إلا من بعض العربان الذين كانوا يميلون بطبعهم إلى النهب والسلب ، فكانوا يقطعون بعض رؤوس العثمانيين ويرسلونها إلى القاهرة ، لقبض الثمن[٥] ومع ذلك فإن طومان باى قد أمر بحرق بعض الشون التى تقع خارج القاهرة[٦] حتى لاتقع فى أيدى العثمانيين[٧] .

---

(١) عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١٤٨ .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١١٨ - ١٢٨ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٤٧ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ١٢٨ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٣٩ - ١٤٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥١ .

(٥) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٤١ .

(٦) نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٤٢ .

(٧) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٨٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٢.

وعلى كل ، استعد طومان باى لمقابلة العثمانيين بجوار القاهرة - فى المطرية - فى مكان اسمه الريدانية واستعد ، وأمر طومان باى الأمير ماماى الصغير المحتسب بضرورة التنبيه على أرباب البضائع والزياتين أن يتوجهوا بمنتجاتهم إلى الريدانية ، وأصدر أوامره إلى جيشه بأن كل من يحاول الهروب سيكون مصيره الإعدام[١] .

إلا أن المتاعب مالبثت أن ظهرت من المماليك أنفسهم ، على الرغم من أن طومان باى ، كان قد أصدر أمره للذين جمعوا فى الريدانية من بقايا المهزومين فى غزة أو المقيمين منهم فى القاهرة أو غيرها ، حتى تجمع لديهم أكثر مما تجمع للغورى من قبل[٢] ، بأن يكونوا فى الميدان بكامل اللباس من آلة السلاح ، إلا أن أغلبهم رفضوا المبيت فى المعسكر ، فكانوا يرجعون إلى بيوتهم فى المساء[٣] .

وحتى الأسلحة النارية المملوكية ، التى كانت من المنتظر أن تلعب دوراً حاسمًا فى المعركة، لم تقم فيها بأى دور بسبب أن المدافع كانت قليلة ، لم تتعد المائة ، بينما كانت العثمانية زحفت بستمائة مدفع[٤] منها المائة والخمسون مدفعًا كبيراً . وبينما كانت هذه سهلة الحركة ، تتحرك على عربات فى أي اتجاه ، فإن المدفعية المملوكية وضعت على قواعد ثابتة وأصبحت غير قابلة للحركة - وزاد الطين بلة - أنها طمرت فى الرمال عمداً ، زيادة فى إخفائها وهى معمرة[٥] حيث قيل أن الذى أمر بوضعها هكذا هو الأمير جان بردى الغزالى[٦] الذى هزم فى موقعة غزة ، وخان قانصوه الغورى ، وتنبه طومان باى لذلك ، فأراد قتله لولا أن الأمراء منعوه[٧] لوصول العثمانية إلى الريدانية فى يوم الخميس ٢٨ ذى الحجة عام ٩٢٣ هـ /

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٤٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٢ .

(٢)- محمد بن زياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٤٤ .

(٣) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٣ .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٤٧ .

(٥) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٣٠ - ٥٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى، ص٣٥٣.

(٦) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٧) نفسه ، ص ٥٢

٢٢ من يناير ١٥١٧م وتدفقت القوات العثمانية بأعداد هائلة بلغت ٢٠٠ ألف أو أكثر بقصد الالتفاف حول المدافع المملوكية ، بالتواجد وراء فوهاتها ، ولم ترجد فرصة لهذه المدافع لمواجهة العثمانيين فلم تنطلق إلا واحدة[١]، مما أرعب العثمانيين ، الذين مالبثوا أن أدركوا عجز مدافع المماليك ، مما جعلهم ينهبون بارودها[٢] .

حينئذ لم ينتظر طومان باى وتوجه إلى معسكر سليم الذى أقيم فى أول الريدانية ، فوقعت وقعة مهولة[٣] وصفها المؤرخون العثمانيون فى دائرة مخابرات - وهى دفاتر المخابر العثمانية بأنها أعظم من الواقعة فى مرج دابق ، كما وصف البعض[٤] القتال فيها بأنه كان قتال الأبطال إذا اقتحمه طومان باى ومن معه بشجاعة نادرة ، وقتل من العثمانيين أعداداً هائلة ، بمن فيهم سنان باشا نفسه ، الصدر الأعظم ، الذى بارزه طومان باى وقتله بيده بأن رفعه إلى أعلى رأسه ثم ألقاه على الأرض بعنف فطبق أضلاعه بين جنبيه ، ثم جز رأسه ، ربما ظنًا منه أنه هو السلطان سليم نفسه ، وإن كان سليم لم يكن موجوداً وقتذاك[٥].

وقد حزن سليم على وزيره الكبير حزنًا كبيراً ، واعتبر فقده خسارة كبرى ، وفكر فى الانتقام ، وقال استولينا على مصر ، ولكن فقدنا سنان باشا ، خسارتنا فيه لايمكن أن تعدلها دولة[٦]، فكانت الجند العثمانية تنتهك حرمة المساجد بدخول الخيل فيها[٧] وطلعت المآذن وصاروا يطلقون البنادق ، فكان معظم القتلى المماليك من رصاص البنادق[٨] وقد قدر عددهم بعشرة آلاف ، وبقى طومان باى فى قليل المماليك والرماة العبيد - السودان - الذين دافعوا عنه ببنادقهم ، فلما تكاثرت العسكر العثمانلية عليه انسحب إلى طرا المجاورة من كثرة البنادق[٩].

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ١٨٦ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٣ .

(٢) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٣) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٥٥ .

(٤) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٥) نفسه ، المرجع السابق ، ص ٥٦ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٤ .

(٦) أحمد بن زنبل ، المرجع السابق ، ص ٥٦ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٤ ؛ محمد بن أبى السرور البكرى ، اللطائف الربانية على المنح العثمانية فى الدولة العثمانية ، ص ٨٠ - ٩٩ ؛ عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص ٧٢ .

(٧) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٥ .

(٨) نفسه ، ص ٣٥٦ .

(٩) محمد بن أبى السرور البكرى ، المصدر السابق ، ص ٩٩ .

وبمجرد دخول طلائع العثمانيين القاهرة ، شرعوا فى تعقب المماليك فى كل مكان وحتى فى البيوت والمقابر ، فمن كان يقبض عليه ، تضرب عنقه فوراً ، وساعدهم فى ذلك العربان ، بحيث أنه قتل منهم فى يوم واحد ثلثمائة وثلاثون رأساً[١] مما جعل المماليك يتخفون فى زى الفلاحين[٢] أو يلبسون ملابس حرافيش القاهرة وهم صعاليكها أو فقراؤها . كذلك عمد العثمانيون إلى قتل الأهالى بوحشية لانظير لها خاصة وأن سليمًا وهو فى الشام كان قد هدد إذا ما دخل القاهرة - مصر - أن يحرق بيوتها قاطبة واللعب فى أهلها بالسيف[٣] فكانوا يقتلون الأهالى ويربطونهم من رقابهم بالحبال ، لافرق بين أعيانهم وخدامهم[٤] ومع أنه أعلن الأمان للناس ، إلا أن سليمًا كما يلاحظ ابن أياس لم يكن له أمان[٥] ، وفى الوقت ذاته ساد النهب فى القاهرة ، بحجة البحث عن المماليك ، بحيث صار الجند العثمانيون ينهبون مايلوح لهم ، فلم يتركوا خيلاً ولا بغالاً ولا أقمشة ولا قليلاً ولا كثيراً[٦] .وقد دخل سليم نفسه القاهرة فى ٣ محرم عام ٩٢٣ هـ / ٢٦ يناير ١٥١٧م[٧] وكان قد سبقه إليها الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله ، برفقة العثمانيين ، ونادى بالأمان وهدفه من ذلك أسباغ الشرعية على الحكم العثمانى وتهيئة الجو لدخول سليم إلى القاهرة[٨] وقد أثار دخول العثمانيين فزعًا كبيراً بين أهل مصر وشبه دخولهم القاهرة بدخول هولاكو بغداد ، وأن ماجرى فى مصر بسبب ذلك ، لم يحدث مثله منذ أن دخلها البابليون فى الزمن القديم [٩].

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٤٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى، ص٣٥٧ .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٤٩ .

(٣) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٤٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٥٦ .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٥٠ .

(٥) نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٥٠ .

(٦) نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٥٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٦ .

(٧) نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٥٥ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٨) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٥٥ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٩) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٧ .

ولكن مايحس سليم وهو فى القاهرة ، ولم تمض خمسة أيام على انتصار العثمانيين عليه، إلا طومان باى يطوقها معتمداً فى هذه الحرب على مؤازرة المصريين من أحياء القاهرة وخاصة من حى بولاق ، ومن رماة البندق من العبيد ، ولعل هذه أول مرة يشترك فيها المصريون فى مقاومة العثمانيين إذ أنهم بحسهم الوطنى قدروا أبعاد الكارثة التى وصلت بهم نتيجة لمجىء العثمانيين لمصر ، فلم يكن من الممكن أن يقفوا سلبين على طول الخط من هذا النضال بين المماليك والعثمانيين ، وخاصة أن أهل القاهرة كان لهم دور إيجابى فى اختيار طومان باى سلطانًا عليهم (١).

ففى ليلة الأربعاء الخامس من محرم عام ٩٢٣ هـ / ٢٩ من يناير ١٥١٧م ، تمكن طومان باى من تسريب أتباعه فى حاراتها حتى وصلوا إلى معسكر سليم ، حينئذ أطلق فيه جمالا محملة بمادة مشتعلة ، مما جعل معسكر سليم يشتعل بالنار ، وظن سليم أنه مأخوذ لامحالة ، فاستمرت مقاومة المماليك ومعهم المصريون أربعة أيام وليالى إلى يوم السبت ظهراً فيها على العثمانيين . وبسبب انتصار طومان باى فإنه خطب له فى الجمعة ، مع أنه فى الجمعة الماضية كان قد دعى لسليم (٢).

ويبدو أن حرب الحارات التى أكره عليها العثمانيون لم تعد تلائمهم ، مما جعلهم يلجأون إلى تكتيكهم السابق فى الحرب بالبارود وحده ، الذين يعتمدون عليه فى حرب ناجبة لتفوقهم فطلعت الانكشارية من رماة البندق إلى المآذن والأهالى على وقف المقاومة ، وخاصة وأنهم قد تعبوا من القتال المستمر طيلة هذه الأيام ، دون راحة فانسحب الجميع بما فيهم المماليك ، بحيث لم يبق إلا طومان باى وحوله رماة البندق من المصريين ، وبعض خاصة مماليكه - مماليك سلطانية - واضطر طومان باى هو الآخر أن ينسحب إلى خارج القاهرة (٣) .

---

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٧ .

(٢) نفسه ، ص ٣٥٧ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٥٦ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى، ص٣٥٨ .

وقد انتقم العثمانيون من المصريين بحرق بيوتهم ، وقتلوا منهم فوق عشرة آلاف[١] أو ستين ألفًا[٢] تركوا جثثهم فى الطرقات تنهشها الكلاب ، حتى كاد أن يفنى أهل القاهرة . نتيجة لذلك . كذلك قتل العثمانيون كل من وقع فى أيديهم من المماليك ، الذين تخفوا فى بيوتهم أو فى أماكن أخرى ، بلغ عددهم نحو ثمانمائة[٣] من الأمراء والمماليك العاديين ، بما فيهم كرتباس والى مصر - الفسطاط - الذى هتف وهو يموت بحياة طومان باى فى نصرة الله[٤] .

ولقد اعتبرت هذه المحاولة الفاشلة من قبل طومان باى الكسرة الرابعة للمماليك على أيدى العثمانيين ، بعد مرج دابق ، وغزة ، والريدانية ، مما يبين انتصار العثمانيين فيها ، بالفعل إنه بعد أن إستتبت الأمور للعثمانيين فى القاهرة طلع سليم القلعة لأول مرة فى موكب حافل ، ارتجت له القاهرة وذلك يوم الثلاثاء ١١ محرم ٩٢٣ هـ / ٣ فبراير ١٥١٧م[٥] .

ومما تجدر ملاحظته تضارب الأنباء فى الشام حول تقدم الجيش العثمانى وانعكاس ذلك على الأحداث المحلية . فقد راجت إشاعات تقول بهزيمة العثمانيين ، وحدثت اضطرابات نتيجة لذلك ، ففى صفد ثارت فتنة ضد العثمانيين وفى دمشق تحرك بعض الذعر فى ٢٢ محرم ٩٢٣ هـ / ١٤ فبراير ١٥١٧م ، ضد أعوان العوانية من المماليك ، وضد العثمانيين فلجأ هؤلاء إلى القلعة وفى ٢٧ محرم / ١٩ فبراير استعراض وإلى دمشق ، ونائب القلعة والقاضى الرومى القوات العثمانية تحت القلعة وفى الميدان لطمأنة الأهالى[٦] .

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٦٦ ؛ محمد بن أبى السرور البكرى ، المصدر السابق ، ص ١٠٩ - ١١٠ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ١٨٩ ؛ عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٥٤ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٥٦ ؛ محمد البكرى ، تحفة الظرفاء فى ذكر الملوك والخلفاء ، ص ١١٢ .

(٤) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٨٩ .

(٥) عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٩ .

(٦) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

وردت إلى دمشق فى ٣ صفر عام ٩٢٣ هـ / ٢٥ فبراير ١٥١٧م أنباء عن انتصار العثمانيين فى الريدانية ، وفى ٦ صفر وردت إليها بلاغات عثمانية حول انتصار العثمانيين هذا واستيلائهم على القاهرة . وتذكر البلاغات قتل العثمانيين لكثير من العوام فى القاهرة بسبب مساعدتهم للمماليك . وتشيد أيضاً بمساعدة خاير بك للسلطان سليم فى الالتفاف حول خطوط دفاع المماليك ودحرهم ، وفى هذا تذكير لعوام دمشق بوجوب الخضوع للعثمانيين ، وتشجيع الموالين على غرار خاير بك ، وقد زينت دمشق لهذه الأنباء ، وأخذ العثمانيون ، إثر ذلك يوطدون نفوذهم فيها ، فبدأ بإبطال العملة القديمة ، وإصدار عملة عثمانية جديدة ، كما حضر الوالى العثماني زعماء الحارات ، وجعلهم مسؤولين عن سلوك العوام فى حاراتهم[١].

٢ - لجوء طومان باى إلى الصعيد والوجه البحرى :

وقد لجأ طومان باى هذه المرة إلى الصعيد فى البهنسا[٢] فأقام فيها فيها متخذاً من النيل كخط دفاعى له ، بأمل أن يعاود الهجوم فى الوقت المناسب . وفى الوقت نفسه لجأ سليم إلى الحيلة مع طومان باى فأرسل له أماناً مع القاضى عبد السلام البكرى مع مندوب الخليفة[٣] يعينه فيه على بلاده مدى الحياة ويرضى أن تكون له الخطبة والسكة ، وحمل الخراج إليه ، إلا أن المماليك المتطرفين قتلوا الوفد ، ويبدو أن العثمانيين الذين استولوا على القاهرة ، وأثبتوا مقدرتهم العسكرية كانوا يحاولون كسب الوقت للإيقاع بطومان باى الذى سيبقى شوكة فى جنبهم إذا لم يقض عليه ، وربما كانوا مضطرين لتسوية الأمور بسرعة فى مصر ، نظراً لورود أنباء عن تحرك الشاه إسماعيل الصفوى فى منطقة آمد والرها وطرده الحكام العثمانيين منها[٤].

---

(١)عبد الكريم رافق ، ص ١٠٨ .

(٢) البهنسا : يعتبر هذا الإقليم من الأقسام الإدارية القديمة العهد ، وسمى فى عهد الفراعنة باسم وابو ، وقاعدته مدينة برمزيت (البهنسا) وسمى باسم أوكسير نشيث فى عهد البطالسة والرومان ، وسمى باسم كور البهنسا فى عهد العرب ، وسمى بعمل البهنسا فى عهد المماليك الجراكسة وباسم ولاية البهنسا فى عهد الدولة العثمانية . (انظر : محمد رمزى ، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، جـ ٣ ، ص ٦) .

(٣)محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٥٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٩ .

(٤) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥٧ - ٥٨ ؛ جلال يحيى ، مصر الحديثة ، الإسكندرية بدون تاريخ ، ص ١٠٨ - ١٠٠ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ - ١١٠ .

وفى تلك الأثناء ، كان طومان باى قد قوى بكثرة من أتاه من العسكر ، حيث جند أهل الصعيد والأسكندرية والعربان وزحف بهم من جديد إلى الجيزة[1] وفى محاولة لكسب المؤيدين له ، أعلن طومان باى إلغاء ضريبة الخراج لمدة ثلاث سنوات ، فهرع لتأييده كثير من الفلاحين[2] وخرج إليه سليم بنفسه ، وفى صحبته ابن الغورى سيدى محمد ليناوىء به طومان باى[3] بمدفعيته التى وضعها على شواطىء النيل . ومع عدم تكافؤ قوة الأخير مع سليم إلا أنه قرر أن يخوض المعركة ، فكانت بالنسبة له ، ولزملائه أمراء المماليك ملحمة من ملاحم الفروسية النادرة . وقد رمى سليم فى هذه المعركة رماة البندق والمدافع[4] بحيث زلزلت الصحارى من حولها ، وكانت نتيجة المعركة أن قتل معظم من كان مع طومان باى من الأمراء والجند[5] . ولكن الخيانة أخذت تدب فى صفوف طومان باى ، فهرب الغزالى ، ومن معه من أمراء المماليك وانضم إلى العثمانيين بعد أن انكشف تواطؤه معهم ، وكان يطمع بمنصب كبير. وانضم أيضًا إلى العثمانيين جانم السيفى كاشف[6] الفيوم بعد أن وعده سليم الفيوم إقطاعًا

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٦٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ ، ص ٣٥٩ ، أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٣) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٤) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٦٥ – ١٦٦ .

(٥) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٦) الكاشف : وهى كلمة مأخوذة من الفعل كشف فى العربية ، لأن فى وظيفة الكاشف أن يكتشفوا أحوال المديريات ، وهذا اللقب لم يكن معروفًا فى الإمبراطورية العثمانية ، وكان الكشاف أقل مرتبة من السنجق ، وكانت الكشوفية (الكاشفية) عبارة عن وحدة إدارية مالية ، على رأسها أحد البكوات المماليك برتبة كاشف له حق الإشراف على مجموعة من المقاطعات التى تقع داخل حدود الكاشفية ، ولم تثبت حدود الكاشفيات على وضع ثابت فكثيراً ماتحولت بعض الولايات إلى كاشفيات ، مثل المنصورة وأسيوط والجيزة والفيوم ، وأحيانًا كان ينفصل جزء من ولاية ليكون وحدة إدارية قائمة بذاتها ، مثل فارسكور التى فصلت عن ولاية الجيزة فى عام ٩٧٧ هـ / ١٥٧٠م بقصد إخراجها من حوزة القبائل العربية المسيطر عليها . (انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص ٧ – ١٣ ، القاهرة ١٩٧٨) وكانت مهمتهم تنحصر فى الإشراف على جسور النيل وصيانتها ، والإشراف على جميع الضرائب والأموال فى كشوفاتهم ، وإرسالها إلى الخزانة العامة بالقاهرة ، والإشراف على الأمن وحماية القرى من البدو . (انظر ، جلال يحيى ، المرجع السابق ، ص ١٦٥ – ١٦٦) .

وعينه مستشاراً له ، وانفض عرب هوارة [١] الأشداء بالصعيد عن التأييد بعد أن أدركوا أن قضية طومان باى أصبحت خاسرة ، وأن العثمانيين يفتكون بالأعداء بالأسلحة النارية . وقد استخدم العثمانيون الأمراء المنضمين إليهم فى قتال المماليك ، وكان هذا إضعافًا لجبهة طومان باى مع العثمانيين[٢] وقد حفظ السلطان سليم هذا الجميل لهم وثبتهم فى حكم الصعيد[٣] وإذا كان عربان هوارة قد رفضوا الحرب بجانب طومان باى ، فقد رفض عربان المغاربة[٤] الاشتراك أيضًا معه لكونه مسلمًا يحارب مسلمًا[٥] .

---

(١) عرب هوارة : وهى قبيلة مغربية ، استقرت فى إقليم البحيرة ، ولكنها اضطرت تحت ضغط قبائل زنارة وحلفائهم من عربان البحيرة إلى الهجرة جنوبًا ، وزاد نفوذهم عام ٧٨٣ هـ / ١٣٨١م فى عهد حكم الأمير برقوق (٧٨٤ - ٨٠٢هـ / ١٣٨٢ - ١٣٩٩م) ، وقد قاموا بإصلاح الكثير من الأراضى التى طغت عليها الصحراء ، ولجح الهوارة دون سائر القبائل الأخرى التى هاجرت من المغرب فى توطيد أقدامهم بوادى النيل وزاد عددهم وقوى بأسهم وانتشروا فى معظم الصعيد . (انظر ، نسيم مقار ، أضواء على تاريخ الهوارة فى صعيد مصر ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ٢٦ ، ص ١٩٢) .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٧٤ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(٣) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥٧ - ٥٨ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ ؛ ليلى عبد اللطيف أحمد ، شيخ العرب همام وحكم جرجا ، ص ٥٣ - ٥٤ ، القاهرة ١٩٨٤م.

(٤) المغاربة : جاءت بعض القبائل المغربية ، سواء أكانت من أصول بربرية أم من أصول عربية إلى مصر، فى فترات مختلفة ، سابقة للعصر العثمانى ، وقد استمر مجىء القبائل المغربية فى العصر العثمانى كذلك . وأتيحت لهذه القبائل المغربية فرصة الاستقرار فى الريف المصرى لمن أراد من هذه القبائل ، بينما آثر بعض هذه القبائل حياة التجوال والترحال ، بين أرجاء هذا الريف وعلى أطرافه من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، من أقصى غربه إلى أقصى شرقه ، وقد قدر للقبائل العربية التى استقرت فى بعض المناطق الريفية الزراعية أن يصبح لها وضعها على خريطة الريف المصرى ، بينما ظلت القبائل المتجولة غير مرتبطة بمنطقة معينة لأنها لاتجد بغيتها فى هذا النمط من الحياة (انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ، تونس ١٩٨٢م ، ص ٣١) .

(٥) محمد بن أبى السرور البكرى ، اللطائف الربانية على المنح الرحمانية ، ص ٩٩ .

بعد فشل هذه المعركة الخاسرة الحاسمة انسحب طومان باى إلى سخا[١] حيث كان ينتشر فيها عرب قبيلة غزالة ، ولكن بسبب عداء عربانها له ، تركها بسبب أنهم كانوا قد انضموا إلى سليم فى قتاله واتجه إلى إقليم البحيرة [٢] أو لأنه كانت له علاقة ودية مع عربانها من قبيلة محارب وهم غير قبيلة غزالة وكانوا يسمون أولاد مرعى حيث كان طومان باى أطلق شيخها حسن بن مرعى من حبس الغورى لما تولى السلطنة [٣].

وبالفعل فإن حسن بن مرعى ، وأخاه شكر ، قد أحسن استقبال طومان باى ومن معه ، حتى أن حسن بن مرعى قبّل يدى طومان باى ، وأقسم له بإيمان الطاعة هو وعشيرته . وقد أراد حسن بن مرعى أن ينزل طومان باى فى منزله مبالغة فى الضيافة ، إلا أن طومان باى فضل أن يلجأ ومن معه إلى أحد الأودية المجاورة فى قرية تروجة[٤] ولكن سليمًا عن طريق

---

(١) سخا : هى من القرى القديمة ذكرها جوتييه فى قاموسه باسمها المصرى Khast و Khasouout و Skhaouout واسمها الرومى Xois والقبطى Skhouy وهى سخا قاعدة القسم السادس بالوجه البحرى قديمًا ، وذكر لها أميلينو فى جغرافيته اسمًا قبطيًا آخر وهو Sekhôou .

وهى من أعمال الغربية (انظر : محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، الجزء الثانى ، ص ١٤١) .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٦٨ .

والبحيرة هى الأقسام الإدارية التى استحدثت فى عهد العرب باسم كورة البحيرة ، وفى أيام الدولة الفاطمية أضيفت إليها كور أخرى مجاورة لها فصارت إقليمًا كبيرًا باسم البحيرة ، وفى عام ٧١٥ هـ / ١٣١٥م أطلق عليها أعمال البحيرة ، وفى سنة ٩٣٤ هـ / ١٥٢٧م ولاية البحيرة ، وفى سنة ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م مديرية البحيرة ، ثم فى عام ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م محافظة البحيرة . وكانت أيام العثمانيين من الولايات الخمس الكبرى . (انظر : أحمد جلبى عبد الغنى ، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، تحقيق محمد فؤاد الماوى ، عام ١٩٧٨م ، ص ٧٥٦) .

(٣) عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١٧٢ .

(٤) تروجة : هى من البلاد المصرية القديمة وردت معجم البلدان بأنها قرية بمصر من كورة البحيرة من أعمال الإسكندرية أكثر مايزرع بها الكمون ، قال وقيل اسمها تروجة ووردت فى التحفة تروجة من أعمال البحيرة .

وقد اندثرت هذه القرية ومكانها اليوم تروجة الواقع بحوض تروجة رقم ٨ فصل أول بأراضى ناحية زاوية صقر بمركز أبو المطامير بالبحيرة (انظر محمد رمزى ، القاموس الجغرافى فى القسم الأول ، البلاد المندرسة ، ١٩٠) .

جان بردى الغزالى ، اتصل بعربان أولاد مرعى ، ووعد حسن بن مرعى ، أن سلمه طومان باى ، فإنه يقدمه على جميع مشايخ العربان فى مصر ، ويجعل أرضه التى فيها إقطاعاً له ، ولايأخذ دراهم[١] ويبدو أن حسن بن مرعى ، قد استجاب لطلب سليم ، إذ مالبث أن جاءت الخيل العثمانية لأخذ طومان باى ، فقاوم الأمراء القليلون من حول طومان باى على غير جدوى ، وإن استطاع الأمير شريك وحده الإفلات ، أما طومان باى الذى كان يعرف أنه مأخوذ لم يبد أى مقاومة ، حينما أحاطت به العسكر العثمانية ، وهى تقدر أنها وقعت على فريسة عظيمة[٢] وسلم الأمر أحمد بن بقر من زعماء الشرقية الأمير شريك ، إلى السلطان سليم محاولة منه للتقريب للعثمانيين للاعتراف بسلطنته[٣] .

وحينما وصلت البشرى لسليم بالقبض على طومان باى ، وأنه فى الطريق إليه ، أبدى ارتياحه العظيم ، وقال الآن ملكنا ملك مصر وأمر بالزينة فى القاهرة ومصر[٤] - الفسطاط - وجعل الطبول والكوسات - نوع من الطبول - تدق فى أرجائها . فزين الناس مضطرين جميع البيوت والدكاكين ، والناس لاتعلم سبب الزينة[٥] وسرعان ماعلمت بعد ذلك وهى لاتكاد أن تصدق أن طومان قد قبض عليه[٦] .

ولما وصل طومان باى أمام سليم ، استقبله ، وقد أحاط به خاير بك وجان بردى الغزالى والوزير يونس باشا ، وقد وقفت العساكر العثمانية على حسب مراتبها ، وأسلحتها من البنادق فى أيديها ، فسلم طومان باى سلام الملوك ، فرد عليه سليم كما يجب ، ولم ينتقص فى سلامه ، وقد استمر طومان باى واقفاً ، إلى أن أمره بالجلوس فجلس . ودارت مناقشات وانتهى الأمر بأن قرر سليم شنق طومان باى على باب زويلة[٧] وجد أن حبل المشنقة معد له ،

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٧٤ ، أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص١٠٧ .

(٢) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١١١ ؛ عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١٧٤ .

(٣) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

(٤) نفسه ، ص ١١٨ .

(٥) نفسه ، ص ١١٨ .

(٦) عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١٧٥ .

(٧) باب زويلة ، بناء أمير الجيوش بدر الدين الجمالى عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م وهو وزير المستنصر بالله، وهذا الباب باق إلى الآن . (انظر تقى الدين المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، جـ ١ ، ص ٣٨٠).

فأسرعوا به وأنزلوه عن البغلة بقصد شنقه من غير مهلة ، فتقدم طومان باى نحو الحبال بقلب جسور ، وحوله جنود العثمانية مسلولة السيوف ، فطلب طومان باى من الناس قراءة الفاتحة له ثلاث مرات قرأت والناس معه ، ثم قال للمشاعلي[1] أعمل شغلك ، فكاد الحبل يقطع به مرتين ، وفى كل مرة يعلقوه من جديد ، وشنق إلى أن مات ، وكان شنقه يوم الأحد ٢١ ربيع الأول عام ٩٢٣ هـ / ١٥ أبريل ١٥١٧ فأكد بذلك نفوذه سليم وقضى على الشائعات القائلة بأن طومان باى مازال طليقًا [١].

وصلت أنباء إلى دمشق فى ٨ ربيع الثانى عام ٩٢٣ هـ / ٣٠ أبريل ١٥١٧م أنباء القبض على طومان باى ، وأعلن نبأ شنقه فى اليوم التالى ، وأمر بتزيين دمشق مدة سبعة أيام . وقد تعاظم نفوذ العثمانيين فى الشام وتوطدت سلطتهم ، وقاموا بعد ذلك باتخاذ إجراءات هامة كتخفيض سعر العملة العثمانية بمقدار النصف ، فتضرر الدمشقيون كثيراً ولكنهم لم يجرؤا على الثورة واتخذت إجراءات أمن مشددة لردع الخارجين على القانون ، وإعدم إثنان من اللصوص ، وأقيمت الخوازيق[2] فى الحارات لإرهاب الأهالى وأوعز للوالى والقاضى والدفتردار بضبط الممتلكات خارجها وبالتفتيش على المستندات المتعلقة لمعرفة النذور فيها كما طلبت مستندات الأوقاف لتوقيعها . وهكذا نرى كيف استغلت انتصارات العثمانيين فى مصر لإدخال كثير من التنظيمات فى الشام [3].

وقد قام السلطان سليم إثر القضاء على طومان باى ، ببعض الإجراءات الإدارية فى مصر . ولم تكن هذه شاملة أو ذات صبغة عثمانية جذرية ، بل كان الهدف منها كعادة العثمانيين بعد

---

(١) المشاعلى : هو الشخص المكلف بتنفيذ حكم الإعدام .

(٢) الخازوق : عبارة عن عمود حديدى يسمى un Pieu يقوم الجندى المختص بتسخينة بالنار حتى يتوهج العمود بالإحمرار من شدة الحرارة ثم يقوم الجلاد بإجلاس من يرد تعذيبه حتى الموت على الطرف المدبب لهذا العمود الذى يتغلغل فى جسمه من فتحة الشرج بفعل السخونة وبتأثير وزن الجسم وثقله حتى يصل إلى الأمعاء فيمزقها . وكانت هذه الطريقة تستخدم فى مصر والشام إبان عصر دولتى المماليك والعصر العثمانى والحملة الفرنسية وحكم محمد على .

وقد أدخلت هذه الطريقة فى أيام حكم السلطان محمد الثانى والعامة فى مصر تقول « المخوزق يشتم السلطان وذلك لأن سب السلطان كان يستوجب الإعدام الفورى فكان الشخص الذى يموت بتلك الطريقة البطيئة بسبب السلطان لكى يعدم فوراً حتى يتخلص من عذاب الموت البطىء على الخازوق . (انظر : أحمد جلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ٩٢٦ - ٩٢٧) .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

فتوحاتهم تسيير الأمور بشكل مؤقت والإبقاء على الإدارة المحلية بكاملها تقريبًا ، ريثما تصدر تنظيمات أشمل وأدق . وقد عين السلطان سليم جانم السيفى كاشفًا على البهنسا والفيوم مكافأة له على دعمه العثمانيين كما عين زميلاً لجانم إينال السيفى على الجيزة وأقليم الغربية ، واعترف بقضاء المذاهب الأربعة ، كما كان عليه الأمر زمن طومان باى وأبقى امتيازات أصحاب الإقطاعات والأرزاق[١] ، الأوقاف من المماليك وأولاد الناس على ماكانت عليه . وقد خلع على الأمير على بن عمر شيخ قبيلة هوارة فى الصعيد ، وأبقى له إمارة الصعيد التى كانت مركزها فى جرجا ، وكذلك أبقى أكثرية أمراء البدو الآخرين فى إمارتهم[٢].

وقد أمر السلطان بإرسال عدد من أصحاب الحرف والصنائع إلى استانبول بحراً بطريق الاسكندرية للاستفادة بخبرتهم . وذكر أن البنائين والنجاريين والحدادين والمبلطين ، من مسلمين ومسيحيين ، ممن أرسلوا من مصر إلى استانبول سيستخدمون فى بناء مدرسة على غرار مدرسة السلطان الغورى فى القاهرة . وقد أمر السلطان سليم أن يجلب بالمقابل ، من استانبول إلى مصر عدد من أفراد ، لم تذكر المصادر المحلية هوياتهم أو نوعية مهنهم . ويبدو أن هذا الإجراء يتفق مع عادة مألوفة فى الدولة العثمانية ، بإجراء تنقلات بين السكان إثر الفتح، لنقل الخبرات ، أو لترسيخ الصبغة العثمانية فى البلد المفتوح . وقد أرسل أيضًا من

---

(١) الرزق : جمع رزقة ، وهى الأراضى الزراعية المحبوس على أوجه البر والخير ولايفرض عليها مال . (انظر : محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ، ص ٣١ ، هامش ٣) وكانت تمثل مساحات واسعة من الأرض ، فى جهات عديدة من البلاد ، أنعم بها السلاطين السابقون علي بعض الناس ، وأصبح حق الانتفاع بها ينتقل بالميراث للورثة . وأصبح لأصحابها حق الانتفاع أن يتصرفوا فيها فى كافة وجوه الانتفاع، وكان أكثر أراضى الرزق موقوفًا على مكة والمدينة ، وأسبلة لسقى الناس ، وأحواض لسقى الدواب ، ومقارىء لتلاوة القرآن وبعض الأشراف ، وكانت أراضى الرزق معفاة من الضرائب ، ولايدفع عنها للروزنامة إلا ضريبة رمزية باسم مال حماية ، نظير حماية رجال الإدارة لهذه الأراضى ، من العبث بها أو السطو عليها ، ولذا فإن بعض الملتزمين لجأ إلي عمليات الاحتيال فى رصد جزء من الأراضى الداخلة فى التزاماتهم على أعمال البر وجعلوا الجزء الأكبر من هذه الأراضى وقفًا على ورثتهم وأرقائهم ، وكان السائد أن يلجأ الملتزم إلى وقف جزء من أراض وسيته ولايلجأ إلى وقف أراضى الفلاحة إلا نادراً . (انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى ، فى القرن الثامن عشر ، ص ٦٩ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

مصر إلى استانبول عدد من كبار المماليك وأسرهم . وسمح السلطان سليمان القانونى فيما بعد لكثير من هؤلاء بالعودة إلى مصر[١] .

وقام السلطان سليم بزيارة إلى الإسكندرية ، وعين نائبًا عنه فى القاهرة يونس باشا . ثم عاد منها وبدأ يستعد لمغادرة مصر بعد أن وصلته أنباء عن تحركات الشاه إسماعيل الصفوى[٢].

وتلقى السلطان سليم وهو فى مصر وفداً أرسله الشريف بركات شريف مكة ، الذى قدم إليه الخضوع ، فأقره سليم فى شرافته وحرضه على قتل حاكم جدة المملوكى . وأبقى سليم على نظام الشرافة كما كان من قبل مع إنشاء صنجقية عثمانية فى جدة أطلق عليها العثمانيون اسم ولاية الحبش . وعين عليها حاكمًا عثمانيًا يدعى حسين الرومى وكان مرتبطًا بوالى مصر خاير بك[٣] . وهكذا ظهر العثمانيون فى البحر الأحمر وأخذوا يعملون على إنقاذ هذا البحر من الخطر البرتغالى الزاحف من المحيط الهندى . ولما كان هدف السياسة العثمانية فى البحر قائمًا - كما يرى بعض المؤرخين المحدثين - على أساس أحياء تجارة الشرق فى البحر الأحمر ومصر [٤]. وصنع سليم كما فعل فى دمشق كسوة للمحمل الشريف ، مما أكسبه عطف المسلمين . وقد ترك من عسكره لدى خاير بك نحو خمسة آلاف فارس ونحو خمسمائة رام بالبندق ، وعين أميراً عثمانياً هو خير الدين باشا نائبًا على قلعة القاهرة . ثم غادر سليم مصر فى ٢٣ شعبان عام ٩٢٣ هـ / ١٠ سبتمبر ١٥١٧م متجهًا إلى دمشق . وكان قد خرج قبل ذلك إلى أستانبول الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله بناء على أوامر سليم [٥]. ويبدو أن إخراج الخليفة من مصر قصد منه عدم تمكين أى تأثير محلى من استغلال سلطته الدينية ضد العثمانيين . كما أن إقامة الخليفة فى أستانبول يضفى عليها مجداً دينيًا كمركز لزعيم المسلمين . ولم تذكر المصادر المحلية بعد ذلك ، ماحل بالخليفة العباسى أو بخلفائه .

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٢) نفسه ، ص ١١١ .

(٣) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص ٩٥ .

(٤) بمحمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٧٧ - ٢٠٦ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٨ .

(٥) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

وبقى السلطان العثمانى وحده زعيم المسلمين ، رغم أنه لم يتخذ لقب خليفة ، بشكل جدى حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وذلك فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، وباستيلاء العثمانيين ورثوا السلطنة المملوكية ومسئولياتها فى حماية الحرمين الشريفين ، وأصبحت بذلك زعيمة المسلمين السنيين[١] .

وصل السلطان سليم إلى دمشق فى ٢١ رمضان ٩٢٣ هـ / ٧ أكتوبر ١٥١٧م ، وقد أصبح العثمانيين فيها أكثر استقراراً عما كان عليه يوم دخلها السلطان سليم فاتحًا ، وقد عرفنا كيف أنه حاول أنذاك التقرب من الأهالى بإعفائهم من بعض التنظيمات العثمانية الضارة بهم ، لأن الخطر المملوكى لم يقض عليه بعد . ورأينا أيضًا كيف أن كل انتصار للعثمانيين على المماليك فى مصر كان يتلوه اتخاذ إجراءات غير شعبية فى بلاد الشام ، واهتم السلطان سليم فى دمشق بأمور ثلاثة[٢] :

- أدخل بعض التنظيمات العثمانية فى دمشق ، بقصد إيجاد المال للدولة .
- توطيد السلطنة العثمانية خارج دمشق لإيجاد الاستقرار ولحماية قافلة الحج .
- الانتقال بسرعة إلى الأناضول لمواجهة خطر الشاه إسماعيل الصفوى .

ولم تكن التنظيمات العثمانية فى دمشق شاملة أو عقيمة على غرار التنظيمات العثمانية التى تمت فى مصر ، تسيير الأمور بصورة مؤقتة . وبعد يومين من دخول السلطان سليم إلى دمشق أى فى ٢٣ رمضان / ٩ أكتوبر أمر العثمانيون عرفاء الحارات ونفراً من أكابرها بحصر البيوت فى دمشق وكتابة أسماء أصحابها استعداداً لفرض ضريبة على كل شخص فيها . وبالفعل فرض أشرفى[٣] على كل شخص ، ولكن نظراً لاستياء الناس من ذلك عمد

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص ٩٥ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

(٣)الأشرفى : يعرف بالشريفى طره لى أو الطره لى أو الطرلى نسبة إلى الطراء (الطغراء) وهو نقد ذهب تركى ضرب فى عهد السلطان مصطفى الثانى (١١٠٦-١١١٥هـ/١٦٩٤-١٧٠٣م) وكان يزن ٢,٦جرام ، وأطلق عليه فى الدولة العثمانية (طغرالى التون) طغراً نسبة إلى نقش الطغراء أو الطره باسم السلطان على أحد وجهى العملة ، وقد أطلق عليه الجبرتى الجنزرلى أو المحبوب الجنزرلى نسبة إلى الحلقة المشرشرة لهذا النقد وهى أشبه بالإطار أو الجنزير (انظر : عبد الرحمن فهمى ، النقود المتداولة أيام الجبرتى ، ص ٥٧٥ - ٥٧٦) .

العثمانيون إلى حساب مايمكن أن تجمعه هذه الضريبة من المال ، ووزع مجموع ذلك ، بشكل متفاوت على السكان حسب مراتبهم في الفقر قد خففوا أعباء الطبقات الفقيرة ، دون أن يخسروا شيئًا من المال . وقد فرض العثمانيون إلى جانب ذلك ، ضريبة من القمح على كل حارة في دمشق . وزاد في تضجر الناس من العثمانيين هجوم كثير من عساكرهم على البيوت للسكن فيها ، وطلب القاضي العثماني محاسبة نظار الأوقاف على وارداتهم[1] .

وقد أمر السلطان سليم ببناء جامع وتكية عند قبر محي الدين بن عربي في الصالحية . ومن شأن ذلك أن يكسبه عطف من رجال الدين وخاصة من الصوفية في دمشق . وسمح العثمانيون لأصحاب الإقطاعات بالبقاء في إقطاعاتهم ، ولأرباب الوظائف المدنية بالبقاء في وظائفهم . ولابد أن هذا الإجراء قد أرضى كثيراً من المنتفعين ، ورغم استمرار كثير من التنظيمات المملوكية التي كانت في صالح جان بردى الغزالي في المستقبل . وقد وطد العثمانيون الأمن والهدوء في دمشق ، وفتكوا باللصوص الذين حاولوا استغلال تبديل السلطة السياسية ،فحفظوا بذلك هيبة حكمهم وحافظوا على أموال الناس وأمنهم . وهكذا نرى أن العثمانيين وازنوا في سياستهم بين الاستثمار والتسامح في سبيل استمرار حكمهم[2] .

واتخذ سليم إجراءات تنظيمية خارج دمشق ، فأبقى الأمراء المحليين الذين أيدوه ، وأزال من السلطنة الذين عارضوه . وقد حاول أولاً القضاء على أمير البقاع البدوي ناصر الدين بن الحنش بسبب ازدياد نفوذه وتحكمه بمنطقة البقاع الغنية التي تمر فيها الطرق الرئيسية بين دمشق وبيروت ، وأيضًا بسبب إيوائه كثيراً من المماليك الفارين . فهرب ناصر الدين إثر سماعه بخروج سليم بنفسه على رأس حملة ضده . وعين السلطان سليم مكانه الأمير محمد بن قرقماش الشركسي ، وأضاف إليه حكم بيروت وصيدا . وقد تضرر الأمراء التنوخيون في جبل لبنان بسبب تأييدهم لناصر الدين فيما بعد . وكان الأمراء التنوخيون زعماء جبل لبنان زمن المماليك ، إلا أنهم خسروا هذه الزعامة لصالح المعنيين ، وزعيمهم فخر الدين ، الذين أيدوا العثمانيين في معركة مرج دابق ، فاعترف بهم العثمانيون بهم أمراء على جبل لبنان ، وقدم أمير منطقة صفد البدوي ، ابن طراباي ، خضوعه للسلطان سليم ، فاعترف بسلطته ، وجعله

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٣ .

(٢) نفسه ، ص ١١٤ .

نائبًا على صفد . وكان سليمًا مهتمًا بسلامة الحاج ، ولم يخرج الحاج عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م خوفًا من اعتداء البدو عليهم[١] .

اشتد تهديد الصفويين لمقاطعات العثمانيين فى شرقى الأناضول ، حين كان السلطان سليم منشغلاً فى قتال المماليك فى مصر . واستمرت أنباء تهديد الصفويين ومناوشاتهم مع العثمانيين تصل سليم حين كان فى دمشق ، وعززت تبعًا لذلك ، الحامية العثمانية فى ديار بكر وإزاء هذا الوضع وبعد غياب فى بلاد الشام ومصر دام سنة ونصف ، غادر سليم دمشق فى ١٠ صفر عام ٩٢٤هـ / ٢١ فبراير ١٥١٨م وكان قد عزل عنها واليها شهاب الدين أحمد بن بخشى الرومى ، فعين بدلاً منه جان بردى الغزالى الذى كوفىء أخيراً عى خيانة المماليك ، ونال ماطمع إليه على غرار خاير بك . وكانت المنطقة التى عهد إليه بولايتها تمتد من معرة النعمان إلى عريش مصر . وقد عين ولى الدين بن الفرفور الدمشقى لمنصب القاضى الحنفى فى دمشق ، وجعل قضاة المذاهب الأخرى فى ولاية الشام تحت إمرته . وفى ٢٣ رمضان ٩٢٤هـ / ٢٨ سبتمبر ١٥١٨م . وصلت إلى دمشق أنباء عن استيلاء العثمانيين لبعض القلاع التى كانت استولت عليها قوات الشاه إسماعيل الصفوى[٢] .

٣ - أسباب ضعف المماليك ونهاية دولتهم :

يرجع هذا الضعف إلى جذور عميقة على رأسها :

أولاً : فساد النظام الإقطاعى ، الذى قام على أساسه الحكم المملوكى ، وعجز هذا الحكم عن الوفاء بالمطالب الأساسية لبقائه ، فالدولة المماليكية دولة إقطاعية بيروقراطية يسند وجودها اقتصاد متين وجيش قوى ، وأرض مصر التى هى ملك السلطان توزع إقطاعيات على جنده وأى هزة زراعية معناه إنتهيار النظام وبالتالى الدولة ، وإذا حرصت الدولة ، عندما عجزت الأرض التى أهملوها عن الإيفاء بمتطلباتهم ، على البحث عن موارد مالية جديدة تتمثل فى رفع الضرائب وتحصيلها مقدمًا ، ثم تنشيط التجارة عبر بلادهم تعويضًا عن هذا النقص المادى . وقد ساعدهم على هذا تحول التجارة نحو مصر والشام وتدفق الأموال على خزائنهم . وكلما زادت احتياجاتهم زاد تعلقهم بالتجارة ، واحتكارهم لكل مصادرها ،

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(٢) نفسه ، ص ١١٥ .

فأقصوا عنها الكارمية ، وتسلموها على غير مران وأجبروا التجار الأجانب على شراء التوابل الشرقية قسراً وبالسعر الذى يحددونه ، والويل والعقاب للممتنع عن الشراء ما أدى إلى تذمر الأجانب وعزوفهم عن الحضور لمصر والشام وتكدس المتاجر وبوارها . فكان هذا بالإضافة فساد نظام الاحتكار وانهيار النظام الإقطاعى الزراعى ، وجهل المماليك بالنظام التجارى إيذاناً بالانهيار القريب للاقتصاد وللدولة ، ولم يبق إلا وضع النقط عى الحروف وإعلان الانهيار ، وتم هذا فعلاً فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر بالحدثين الخطرين : تحول التجارة ، وسقوط دولة سلاطين المماليك[١] .

ثانياً : العوامل الداخلية : التى تكمن فى طبيعة تكوين الدولة نفسها والصراع بين أمرائها على السلطة والنفوذ ، فقد اختل نظامهم الاجتماعى والحربى ، لإهمالهم الأسس التى قامت عليها تربيتهم ونشأتهم الأولى ، ولم يعودوا يصلون لمصر صغاراً يتعلمون الطاعة ويتحلون بالدين والأخلاق ، ويتدربون على الحرب وفنونها ، بل ولوا شباناً تتنازعهم أهواء واتجاهات وتعليم متضارب ، ففقدوا روح النظام والطاعة ، وحل محلها العصيان والتمرد ، وفشا بينهم التنازل عن الاقطاعيات والمقايضة بها من الباطن ، وخرجت الأراضى والذمم ، وانقسم المماليك شيعاً وأحزاباً ، يتجسسون بعضهم على بعض ، ويعمدون إلى حوادث النهب والسلب ويتنازعون السلطة والحكم . وظهر ذلك بوضوح منذ وفاة السلطان قايتباى ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م حتى تولى الغورى السلطة عام ٩٠٧هـ / ١٥٠١م ، وتأرجح الحكم بين عدد كبير من السلاطين يحكم كل منهم شهوراً وأياماً ، مما يعطى انطباعاً صادقاً بمدى الفوضى وعدم الاستقرار التى سادت البلاد فى الدور الأخير من حياة هذه الدولة ، حتى أن كبار الأفراد كانوا يعزفون عن تولى السلطة خوفاً من القتل . كما فعل قنصوه الغورى الذى اشترط لقبوله الحكم ألا يقتلوه إذا أرادوا عزله ، ولكن كانت الأحداث السياسية أقوى من أمنياته ، حتى أن مماليكه الجلبان كثيراً ما عصوه بسبب النفقة [٢] .

ثالثاً : العوامل الخارجية : التى تضافرت جميعها لهدفين أساسيين أولهما القضاء على مصدر ثراء الدولة المدعم لقوتها العسكرية ، وهو التجارة فى المياه الشرقية والتحكم فيها بين

---

(١) نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٣٧٠ .

(٢) نعيم زكى فهمى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .

الشرق والغرب . وثانيهما القضاء على الدولة ذاتها ، ووقع الهدف الأول على عاتق القطالنة والبرتغاليين ، في حين وقع الثاني على عاتق العثمانيين . مع ما بين الطرفين من تباعد وتناقض وإن اتحدت الأهداف . ويقترن العمل الأول كذلك بنمو القوميات في أوروبا ، وخاصة في البرتغال وأسبانيا ونجاح الأخيرة في إنهاء الحكم العربي في الأندلس عام ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م . أما محاولة تعقب العرب في عقر دارهم ، فقد وقع عبؤه على البرتغاليين الذين حاولوا الاتصال بملك الحبشة المسيحي لتطويق المماليك، وفي سبيل ذلك داروا حول إفريقيا ، ووصلوا للهند، ودمروا الأسطول المماليكي في وقعة ديو ٩١٥هـ / ١٥٠٩م ، وأنهوا السيطرة المماليكية على المياه والتجارة الشرقية منذ مطلع القرن السادس عشر . أما الهدف الثاني فقد وقع على عاتق العثمانيين(١).

أما عن العلاقات المصرية العثمانية بعد ذلك فقد قضى العثمانيون على السلطة المملوكية وفتحوا سوريا ومصر في ١٥١٦-١٥١٧ ، بما يشكل مرحلة كبرى في العملية المزدوجة الخاصة بتكوين اقتصاد عالم عثماني وإعادة بناء جماعة موحدة من المؤمنين . وينبع إدماج العالم العربي في النظام العثماني من هذه الأزمة المزدوجة : بداية تحول الطرق التجارية التقليدية إلى الهند، والراجع إلى اكتشاف البرتغاليين للطريق البحري الذي يمر برأس الرجاء الصالح، وتصدع المجال الإسلامي السني في القرون الأخيرة للعصور الوسطى، والناشئ عن تحول الإسلام الشيعي في فارس إلى دين للدولة تحت قيادة الصفويين(٢).

والحال أن السلطنة العثمانية البارزة بالفعل في عالم الإسلام السني بفضل فتحها للبلقان على حساب القوى المسيحية وبفضل الاستيلاء على القسطنطينية الذي يمنحها الاستمرارية الامبراطورية لروما ولبيزنطة، إنما تصبح أكثر من ضرورية للدفاع عن مصالح الجماعة في وجه هذا الخطر القاتل المزدوج ، وبعد سنوات قليلة من فتح مصر، فإن أفريقيا الشمالية ، فيما عدا المغرب الأقصى، تنضم بدورها إلى العثمانيين، ومما له دلالته أن خلافة العباسيين الشبحية في القاهرة تختفي دون ضجيج وأن الشارات التي ترمز إلى شرعية واستمرارية الخلافة تنتقل إلى السلالة الحاكمة العثمانية التي تصبح حارسة للمدن المقدسة وحامية للحج وخلال الأزمنة

١- نعيم زكي ، المرجع السابق، ص٢٧٣ .

٢- هنري لورنس، شارل جيليسي، جان كلود جولفان ، كلود ترونيكر، الحملة الفرنسية في مصر، بونابرت والإسلام، ترجمة بشير السباعي، دار سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٥م، ص٧٣ .

التـاليـة، يكتفى البـاديشـهـات، أو السـلاطين من آل عـثـمـان، بدمج الخـلافـة فى الألقـاب السلطانيـة، المتـوفـرة بما يكفى بالفـعل. لكن أحداً لاتخامـره شكوك حـول ذلك، فـهم يمارسون بالفعل كامل الوظائف الضرورية للدفاع عن الإسلام السنى ضد جميع خصومه .

والواقع أن الصفويين ، فى أثر نزاعات عسكرية عديدة ضاعفت منها مواجهة ايديولوجية وحرب دعائية بين الإسلام الشيعى والإسلام السنى. وفى داخل الامبراطورية العثمانية تعرّض السكان الشيعة لقمع قاس من جراء محاولاتهم الانتفاضية وتعرضوا بشكل متواصل للتحجيم وللسيطرة وغالبا ما جرى ابعادهم أو دفعهم إلى الهرب بعيداً عن المناطق الاستراتيجية . وهذا التصدع لمجال الإسلام يجعل من الإمبراطورية الممثل الجديد للجماعة الإسلامى . فهى لا جار لها غير المغرب الأقصى الذى يتميز بتقاليده الدينية الخاصة والإمبراطورية الفارسية الشيعية وهي- الامبراطورية العثمانية - لاتحتفظ إلا بعلاقات باهتة مع القوى السنية فى أفغانستان والهند [١].

وفى البحر الأحمر وفى الخليج العربى وفى المحيط الهندى، يبنى العثمانيون أساطيل ويحاربون البرتغاليون بل إن إسطولا عثمانيا يتحرك فى عام ١٥٣٨ من السويس لكى يصل إلى الهند ويجرى انشاء قاعدة أمامية فى اليمن. وتستمر الحرب البحرية أكثر من عشرين سنة وتكفل للعثمانيين السيطرة على البحر الأحمر، ويعاد مؤقتًا فتح الطريق التقليدى لتجارة الهند . ولم يك بوسع البرتغاليين تدبير القوة والامكانات الضرورية لوقف تجارة البحر الأحمر بصفة مستديمة.

وكان لابد من انتظار أشكال التقدم الفنى التى عرفها القرنان التاليان ، وظهور سفن الإنجليز والهولنديين البحرية الضخمة حتى يمكن للبحر الأحمر، المحظور على الأوروبيين، أن يكف عن أن يكون مهمًا من الناحية الاقتصادية كطريق للمرور بين أوروبا والهند. وقد رأى المستشرقون والمؤرخون فى القرن الثامن عشر فى نهاية تجارة الترانزيت بين الهند وأوروبا أحد الأسباب الرئيسية للانحطاط المتصور للامبراطورية العثمانية [٢].

١- هنرى لورنس وآخرون ، المرجع السابق، ص ص٧٣-٧٤ .

٢- هنرى لورنس، المرجع السابق ، ص٧٤ .

لقد حددت موقعة مرج دابق عام ٩٢٢هـ / ١٥١٦م الموقف بالنسبة للشام، كما حددت موقعة الريدانية عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م مصير مصر والشام معا ، وكثر الجدل حول سلطنة مصر في وقت لايحتمله النظام ولا الظروف التي تمر بها البلاد، فعرض منصب السلطنة على نائب السلطان طومان باى ، الذى رفض قبوله في أول الأمر، ثم قبله بعد أن أقسم له الجميع على المصحف بعدم خيانته وإطاعة أوامره [١]. وخضعت مصر للسيادة العثمانية ، وأصبحت ولاية بعد أن كانت مقرا للحكم ابان العصر المملوكي. وكانت لوالي مصر في القرن السادس عشر مكانة خاصة دون الولايات الأخرى، حيث خلع خاير بك على نفسه لقب «ملك الأمراء» وكان ذلك أرفع من لقب بكلربك (أمير الأمراء) لكنه دون لقب سلطان . كان يصبو إلى أن يكون هذا اللقب رمزا لوضع مصر الخاص كحليف للباب العالي تتميز به عن باقي ولايات السلطنة الأخرى . وكان لخاير بك جيشه الخاص وحاشيته مع برتوكول مملوكي مثالي ، كما أنه تمتع باستقلال تام في شؤونه الداخلية، واحتفظ كذلك بالتنظيمين الديني والإدارى السابقين في البلاد، وحافظ على التقاليد المحلية في حياة الدولة، وكان انكشارية مصر خلافا لانكشارية استانبول وغيرها من المدن العثمانية يتقاضون راتبا شهريا على غرار «مماليك الخندكار» [٢].

وكان يطلق لقب بكلربك على والي مصر في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وفي أواخر القرن السادس عشر بدأ يندر وجوده في الوثائق العثمانية، وأخذ يحل محله تعبير «ايالت» للدلالة على ولايات الدولة الكبرى[٣]. هذا بينما كان الولاة في جميع ولايات الامبراطورية وخاصة الولايات العربية، يعهد بها إلى ولاة يحملون رتبة وزير ولقب باشا وبطبيعة الحال، كان لدرجة أهمية كل ولاية هامة من حيث عدد سكانها وحجم نشاطها الاقتصادى والدخول التي يمكن استخلاصها منها، كان لها ولاة يحملون رتبة وزارية[٤] فعقب فتح مصر عين يونس باشا الوزير الأعظم واليا عليها وبعد انتهاء مدة ولاية خاير بك بوفاته.

١- محمد بن إياس الحنفي ، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٥ ، ص٨٥، ٨٦ .

٢- المصدر نفسه، ج٥، ص٣٦٧، ص٤٠٩ .

٣- سيد محمد السيد ، تاريخ مصر في العصر العثماني، في القرن ١٦ ، ص٦٨-٦٩ .

٤- أندريه ريمون، الولايات العربية (القرن السادس عشر- القرن الثامن عشر، ضمن كتاب الدولة العثمانية ، ج١ اشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعي ، ص٥٣٠ .

منحت مصر للوزير الثانى مصطفى باشا (٩٢٨-٩٢٩هـ / ١٥٢١-١٥٢٢م) ثم الوزير الثانى مصطفى باشا (٩٢٩-٩٣٠هـ / ١٥٢٢-١٥٢٣م) [١].

ونظرا لأهمية مصر بالنسبة للدولة العثمانية ، فإنها قد قامت بتعيين وزراء القبة على بعض ولاياتها الهامة مثل مصر ، وبودين ، وبغداد ، فقد استدرك الأمر، وبدأ فى تشكيل وزارى جديد للقيام على شؤون ولايات الدولة الهامة، وعرف المنتسبون لهذا المنصب باسم «وزارة الايالة» أو وزراء الخارج، وذلك لمواجهة احتياج الدولة لرجال يمكن منحهم صلاحيات واسعة فى المناطق الحساسة منها، ويظهر هذا الأثر جليًا فى القرنين التاليين فمنذ عام ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م وامتدادا إلى عام ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م (امتداد من القرن العاشر الهجرى إلى الثانى عشر الهجرى) بدأ تعيين أمير أمراء مصر برتبة الوزارة بصفة دائمة [٢]. وكان أيوب باشا (١٠٥٤-١٠٥٦هـ/ ١٦٤٤-١٦٤٦م) وعلى باشا (١١٥٣-١١٥٤هـ/ ١٧٤٠-١٧٤١م) (وأحمد باشا كور، قد تولوا منصب الصدر الأعظم قبل أن يتولوا منصب والى مصر. وكان محمد رامى باشا مفوضًا مطلق الصلاحيات للسلطان خلال التفاوض على معاهدة كارلو فيتز ثم صدراً أعظم قبل أن يصبح واليا من عام ١١١٦-١١١٨هـ / ١٧٠٤-١٧٠٦م) وبالمقابل فإن باشوات القاهرة السابقين، غالبا ما سوف يستدعون لتولى مناصب رفيعة ففى عام ١١٥٦هـ / ١٧٤٣م، غادر يحيى باشا القاهرة التى ظل بها لتولى مهام القابودان [٣].

وكانت لأمير أمرائها صلاحيات واسعة فى المنطقة ، لتثبيت أقدام الإدارة العثمانية، وتعتبر هذه الولاية أو تلك مقاطعة خاص يمنح لأمير الأمراء مقابل إدارة الولاية وإعداد جنده، وتجهيزهم وخروجهم تحت قيادته وقت الحرب، فقد بدأت الإدارة العثمانية فى التعامل مع ايالة مصر بطريقة مختلفة ، حيث ضمت أراضى الايالة للدولة ، وخصص مرتب سنوى للوالى عرف باسم ساليانة، وكما منعت الادارة العثمانية بقايا المماليك من اتخاذ أراضى الايالة ، كمقاطعات مملوكة لهم، وإعادتهم للدولة ثم منحها لهم ، أو لغيرهم بطريق الالتزام، لم تعط هذه الأراضى أيضا لأمراء السناجق ولا لكشاف الولايات كأراضى تيمار أو زعامة ، مقابل خدماتهم كما كان يحدث من قبل ، وإنما كانت تدفع لهم ساليانات (مرتبات سنوية) من

١- سيد محمد السيد، تاريخ مصر فى العصر العثمانى، ص٧٠-٧١ .

٢- المصدر نفسه، ص٧٢ .

٣- أندريه ريمون، الولايات العربية ... نفس المصدر، ج١ ، ص٥٣٠ .

حصيلة خراج النواحى الموجودة تحت إشرافهم ، وكانت ترد المبالغ المتبقية إلى خزينة الدولة[١].
وفى ظل العلاقات المصرية العثمانية، نجد أن الدولة العثمانية جعلت مصر مسؤولة عن تنفيذ سياستها ، والحفاظ على أملاكها ومصالحها فى العالم الإسلامى والعربى ، ووضح ذلك عندما أعلن جان بردى الغزالى الثورة فى عام ٩٢٨هـ / ١٥٢٠-١٥٢١م وحاصر حلب. وحاول الانفصال بحكم الشام، واستعان السلطان سليمان القانونى بوالى مصر خاير بك ، للقضاء على هذه الثورة[٢] وتم اتخاذ الاجراءات لعثمنة الادارة تدريجيا ، حيث أرسل السلطان الداماد ابراهيم باشا فى عام ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م إلى مصر، وبدأ بالاصلاح القضائى فعوضا عن نظام القضاة الأربعة الكبار «قضاة الشرع» استحدث منصب قاضى القضاة فى القاهرة الذى أخذ فى اصدار أحكامه وفقا للمذاهب الأربعة[٣] وفى الوقت نفسه ، تم حل الجهاز الضخم من المساعدين والأمناء الذين كانوا يعاونون القضاة وهم من بلغ عددهم مئات عدة، وعين قضاة من المصريين بدلا منهم، وأعيد تنظيم إدارة الأوقاف ، وأملاك الخزينة ، وقلل الضرائب ، لكى تتفق والنمط العثمانى[٤] واجتمع بأصحاب الشكايات من الشعب واستمع إليهم، وفى جامع عمرو بن العاص [٥].

وبالنسبة لتنفيذ والى مصر سياسة الدولة العثمانية وخاصة فى إدارة منطقة الحرمين الشريفين، فقد ارتبطت هذه الأراضى المقدسة بوالى مصر، وخاصة أنه أثناء وجود السلطان سليم الأول فى مصر، استقبل أبا نمى بن الشريف بركات الثانى بن محمد - شريف مكة الذى جاء ليعلن خضوع وطاعة والده مثلما كان يخضع سابقا للسلطان المملوكى، فأقره سليم فى شرافته، وحرضه على قتل حاكم جدة المملوكى، وأبقى سليم على نظام الحبش ، كما كان من قبل مع انشاء صنجقية عثمانية فى جدة أطلق عليها العثمانيون ولاية الجيش، وعين عليها حاكما عثمانيا يدعى حسين الرومى وكان مرتبطا بوالى مصر خاير بك وهكذا ظهر العثمانيون

١- سيد محمد السيد ، مصر فى العصر العثمانى ، ص٧٥ .

٢- جلال يحيى، العالم الإسلامى الحديث والمعاصر، ص٣٤٢ .

٣- محمد بن إياس الحنفى، بدائع الزهور ... نفس المصدر ، ج٥ ، ص٤٥٣ .

٤- نيقولاى ايفانوف، الفتح العثمانى للأقطار العربية (١٥١٦-١٥٧٤)، ص١١٤ .

٥- بليماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية ، ص٢٦٥ .

فى البحر الأحمر وأخذوا يعملون على انقاذ هذا البحر من الخطر البرتغالى الزاحف من المحيط الهندى [١].

ولقد ارتبطت إدارة الحرمين الشريفين المالية منذ دخولها تحت الحكم العثمانى ، بايالة مصر، حيث كان أمير الأمراء يقوم بتنفيذ الأوامر السلطانية فى الحرمين، كما يعرض حاجة هذه المنطقة للتعينات، فكانت الدولة تقر اقتراحاته، وكانت معظم الوظائف الإدارية فى الحرمين توجه لرجال الدولة، حيث كانوا يعينون من استانبول مباشرة بموجب عرض أمير الأمراء . ولكن فى أواسط القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى ، بدأت هذه الوظائف الإدارية الهامة مثل نظارة الحرمين الشريفين «ومشيخة الحرم» فى حملات الدولة فى المنطقة، كانوا أيضا يكلفون كبقية جماعات مصر العسكرية بخدمات الحماية فى الحرمين الشريفين ، وفى إيالة اليمن وإيالة الحبشة، وبالاشتراك فى الفرق العسكرية المعدة لاصطحاب الخزينة الارسالية المصرية إلى الاستانة [٢].

ولقد كانت مصروفات الحرمين الشريفين من الخزينة المصرية، ممثلة فى الصرة النقدية، والمصروفات العينية، وتتمثل فى اخراجات حرمين شريفين، واخراجات الكسوة الشريفة، وتعينات أشراف الحرمين الشريفين، ومصروفات الحرمين من الأوقاف وهى ممثلة صرة الأوقاف السلطانية (الصرة الرومية) مثل وقف الدشيشة الكبرى، والدشيشة المرادية، ووقف الدشيشة المحمدية، ووقف الأحمدية[٣] كما استمر أيضا خروج موكب أمير الحاج من مصر على رأس الحجاج الذين يتوجهون إلى الحرمين لأداء فريضة الحج عن طريق مصر ، حتى أن الدولة كانت تعلن حالة الطوارئ فى ثغورها لحماية قوافل الحجاج المتوجهين إلى الحرمين من كل مكان ، وكان من اختصاص أوجاق المتفرقة[٤] وكان الباشا العثمانى فى مصر يعتبر فى كثير

١- عمر عبد العزيز عمر، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، المشرق العربى من الفتح العثمانى حتى نهاية القرن الثامن عشر، ص٩٥ .

٢- سيد محمد السيد، مصر فى العصر العثمانى، ص٣٢٠ .

٣- سميرة فهمى عمر، امارة الحج فى مصر العثمانية (٥٩٢٣-١٢١٣هـ/ ١٥١٧-١٧٩٨م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ كلية الآداب بالاسكندرية عام، ١٩٨٣م، ص٢٦ .

٤- ليلى عبد اللطيف أحمد، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٢١٠ .

من فترات التاريخ مسؤولا عن الحالة السياسية والاقتصادية في الحجاز [١]. بالإضافة إلى ذلك ، كانت مصر مختصة بتزويد قلعة المدينة المنورة بحاميها التي عرفت في الوثائق باسم جماعة قلعة مدينة منورة. وكان رجالها يتقاضون من خزينة مصر مرتبات نقدية وعينية[٢].

وأنه كان على مصر أن ترسل لكل حملة سلطانية فرقة من قواتها الخاصة تتكون عادة من ثلاثة آلاف وخمسة آلاف رجل، يؤخذون من الفرق العسكرية ويقودهم آغا الانكشارية أو سردار يمثله . وكانت أجورهم عادة جزءا من التزامات خزينة مصر، ولكن تكاليف نقلهم بالبر أو بالبحر والامدادات الغذائية اللازمة لهم كانت تتحملها الخزينة الإرسالية، وقد وصلت تلك التكاليف في بعض السنوات إلى ثلاثين مليون بارة، وكان المفروض أن تقدم خزينة مصر لهؤلاء الجند «ترقيات بمناسبة سفرهم»[٣].

وكان على الخزينة أيضا أن تتحمل نفقات القوات العثمانية المرسلة إلى الجزيرة العربية واليمن، والتي كان تأتي بالبحر إلى دمياط، وتمر بالقاهرة قبل الذهاب إلى مقرها، وكانوا يبقون في مصر مدة من الوقت، قد تصل إلى ستة أشهر، وكان مصرحا للباشا أن يقدم لهم من حساب مبلغ الخزينة الإرسالية تكاليف مؤونتهم وإقامتهم وكانت هذه التكاليف كثيرة في القرن السادس عشر. كما كان يدفع من الخزينة الارسالية أيضا جزءا من نفقات امدادات قطع الأسطول العثماني التي تزور موانئ البحر المتوسط [٤].

ولقد ألقيت على والي مصر مهام أخرى في اليمن والحبشة ، وظهر ذلك واضحا عندما أصدر خاير بك والي مصر أوامره عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م إلى نائب جدة بضم السواحل اليمنية[٥] ولقد كان من أهداف الدولة العثمانية السيطرة على الجنوب العربي ، ولم يستطع السلطان سليم أن يعد حملة لفتح اليمن، لأنه كان مشغولا في أوروبا ، وعلى الرغم من ذلك لم يغب عن ذهنه مراقبة الحوادث في البحر الأحمر [٦]، وشرع في بناء قوة بحرية عثمانية، إلا

١- فائق بكر الصواف، العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز في الفترة ما بين ١٢٩٣-١٣٣٤هـ/ ١٨٧٦-١٩١٦م، ص٤٥ .

٢- ليلى عبد اللطيف أحمد، الإدارة .. . نفس المرجع، ص٢١٣ .

٣- المصدر نفسه.

٤- المصدر نفسه ص٣٥٨ .

٥- محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٣٢ ، عبد الحميد البطريق، من تاريخ اليمن الحديث ، ص٢٢ .

٦- سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص١٤٦ .

أنه توفي قام ابنه سليمان باتمام هذا المشروع ، وعمل جاهدا على صد الخطر البرتغالي ، فأصدر أوامره إلى واليه في مصر سليمان باشا الخادم في عام ٩٤٤هـ / ١٥٣٨م ، باعداد حملة عرفت باسم حملة الهند وبدأ بانشاء أسطول في السويس مستعينا ببعض البحارة البنادقة الموجودين بالاسكندرية [١]، وبعد أن تم بناء أسطوله توجه إلى الهند ، وانضم إليه أسطول آخر بقيادة بربروس[٢] وحددت مهام سليمان باشا وهي: العمل على تدعيم الوجود العثماني في البحر الأحمر، وإنهاء مظالم البرتغاليين ضد مسلمي الهند، وإعادة فتح طرق تجارة الهند أمام التجار العرب المسلمين ، وطرق المرور للدولة العثمانية، لمصر كولاية عثمانية[٣]. وقد اتخذت الدولة العثمانية اجراء آخرا مهما في عام ٩٥٤هـ / ١٥٤٧م حيث عينت الدولة بيري رئيس ، قائدا عاما للأسطول العثماني في المحيط الهندي بالإضافة إلى منصب قابودان أسطول مصر[٤] وعندما قامت الثورة في اليمن عام ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م، أصدرت الدولة العثمانية أوامرها إلى والي مصر داوود باشا بالقضاء على هذه الثورة، فأرسل بيري باشا بالأسطول وقضى عليها وكوفئ على ذلك[٥].

وكانت الأوامر الصادرة من الدولة العثمانية دائما إلى كل من والي مصر ووالي اليمن. بضرورة التعاون من أجل مواجهة خطر البرتغاليين الذين يهددون السفن التجارية الواردة من الهند، كما أن على والي مصر تقديم البحارة الحربيين، والمجدفين ، والتموين، وتضع بعض الشروط في هؤلاء فبالنسبة للحربيين ألا يكونوا من الجراكسة أو العربان الشيوخ، أما المجدفون فيكونوا من المجرمين غير المحكوم عليهم بالاعدام[٦] مع ضرورة إرسال الفلاحين ، والحرفيين وخاصة الأساكفة، ويرجع ذلك إلى أن الجنود العثمانيين بمصر تقاعسوا عن الاشتراك

١- جلال يحيى ، العالم الإسلامي ... نفس المصدر ، ص٤٠٠ .

٢- يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص٣٢٧ .

٣- المصدر نفسه، ص٣٢٨ .

٤- أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني ، ص٩٨ .

٥- سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص١٩٦ ، محمود علي عامر، النظم الإدارية في اليمن، ص٩٨ .

٦- محمود علي عامر، النظم، نفس المصدر، ص١٠٥ .

فى الحروب، لأنهم ألفوا الراحة والدعة وتنعموا بالملذات المتنوعة ، وتعلقوا فيها بـ من أسباب الحياة ، وكثرت أولادهم ، وصارت مصر موطنا لهم (١).

وكلف بيرى رئيس عام ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م ، بالعمل على طرد البرتغاليين من مسقط، فاستطاع تأدية مهمته ، ثم اتجه إلى هرمز وحاصرها ، إلا أنه لم يتمكن من السيطرة عليها ، فاضطر لرفع الحصار عنها ، نتيجة لوصول أسطول برتغالي وهبوب عاصفة ، مما أدى إلى تشتيت أسطوله فعاد إلى مصر محملا بالأموال التى جمعها ، وعندما عاد أمر السلطان العثمانى بقتله متهما إياه بالخيانة(٢)، ثم كلف والى مصر مراد باشا عام ٩٦١هـ / ١٥٥٣م بقيادة الأسطول والتوجه إلى الخليج العربى، لجمع بقايا أسطول بيرى رئيس ، وعندما وصل إلى البصرة ، انضم إليه أسطول عثمانى ، واشتبكا مع الأسطول البرتغالى الذى أوقع الهزيمة بالأسطول العثمانى ، واضطر مراد باشا إلى الانسحاب عائدا إلى استانبول (٣).

وفى عام ٩٧٢هـ / ١٥٦٣م أصدرت الدولة العثمانية أوامرها لوالى اليمن بتسهيل مهمة الأسطول المرسل من السويس إلى المحيط الهندى لمواجهة خطر البرتغاليين- مع تسليحه بالذخيرة وإمداده بالتموين(٤) بالإضافة إلى ذلك يكلف الوالى العثمانى بمصر ضرورة إمداد الحملات المرسلة إلى اليمن بالمهمات والجنود والأسلحة والجمال، والبغال التى يشرف على جمعها مشائخ القبائل العربية اليمنية الموجودة بمصر، مع تحمل الخزينة المصرية مرتب والى اليمن النقدى والعينى (٥). وعندما قام التمرد فى اليمن ضد الحكم العثمانى عام ٩٧٦هـ / ١٥٦٨م، ويبدو أنه كان قويا لدرجة أن الدولة طلبت من والى مصر قوجا سنان باشا باعداد حملتين إحداهما بحرية بقيادة قورد أوغلو والأخرى برية بقيادة الوالى، واستطاعت هذه الحملة القضاء على هذا التمرد(٦). أما بالنسبة للحيشة، فقد ألقيت على والى مصر أيضا مهام بها،

١- قطب الدين النهروانى ، البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، ص١٩٩، محمد أنيس ، الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤-١٩١٤، ص١٣٤ .

٢- سعيد أحمد برجاوى ، الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسى والعسكرى، ، ص١٢٣-١٢٤ .

٣- محمد أنيس ، الدولة ... نفس المصدر، ص١٣٤ .

٤- محمود على عامر، التظم... نفس المصدر، ص١٠٢ .

٥- المصدر نفسه، ص١٠٩ .

٦- ابن الديبع ، الفضل المزيد فى أخبار زبيد، ص٧٥ ، قطب الدين النهروانى ، البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، ص٢٠٩ ، بلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية، ص٣٦٢ .

فقد أرسل سليمان باشا الخادم عام ٩٦١هـ / ١٥٥٣م أزدمير بك بأسطول في النيل بهدف الكشف الجغرافي ، واتجه الأسطول ووصل إلى النوبة والبحر الأحمر في سواكن ، ثم ضم إليها بعد ذلك جزءا كبيرا من أرتيريا وآخر من الحبشة، وارتبط هذا الجزء بولاية مصر إداريا، ونظرا لبعد هذه الأجزاء عن القاهرة ، فقد وجد من الأفضل تأسيس ولاية الحبشة مع تعيين أزدمير باشا واليا عليها عام ٩٦٢هـ / ١٥٥٤م [1].

ونظرا لوجودها في أقصى حدود الدولة الجنوبية حيث كان أهالي هذه المنطقة من ذوي الطبيعة القبلية ، يقومون بحركات عصيانية ومشاحنات مستمرة مع الإدارة العثمانية هناك، نشأت فكرة تعيين فرق جند مصر وجند الدركاه العالي للحفاظ على الأمن في تلك المناطق ولحماية الحدود في الصعيد، إلحاقها بايالة الحبشة، حتى يتيسر لقوات الدولة القضاء على حركات عصيان القبائل العربية التي كانت موجودة في المناطق التي كانت تفصل بين ايالتي الحبشة ومصر، مع امداد مصر لها بالحبوب والبارود [2]. كما أن الدولة العثمانية أعطت لوالي مصر صلاحيات مطلقة، كما أن تعيين ولاة الحبشة ، كانوا دائما من مصر، ممن كانوا على معرفة جيدة بعادات الأهالي هناك بحيث أصبحت الإدارة العثمانية جزءا لايتجزأ من التشكيل الإداري في مصر، بالإضافة إلى ذلك، فان احتياجات الحبشة الضرورية والطارئة توفر لها من مصر وإن لم يتوفر فيها ذلك فيرفع الأمر مباشرة إلى استانبول عن طريق والي مصر ، وبموجب هذا كانت الدولة تعمل على تحويل جميع الأمور بايالة الحبشة إلى والي مصر لكي يبت فيها[3].

هذه بعض المهام التي كلف بها والي مصر، وقام بتنفيذها تجاه البحر الأحمر والمحيط الهندي، أما بالنسبة للبحر المتوسط، فقد أوكلت الدولة العثمانية مهمة أساسية على قابودنات مصر في البحر المتوسط مثل دمياط والاسكندرية بالذات، بامداد الأسطول العثماني في شرق البحر المتوسط وغربه بارسال الجنود المطلوبين من الأوجاقات العسكرية المختلفة مثل مستحفظان ، وعزبان وجاوشان إلى أماكن القتال وعليه أن يتفق مع السفن التي تنقلهم، مع

١- بليماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص٣٣١ .

٢- سيد محمد السيد ، مصر في العصر العثماني، ص٤٤٠-٤٤١ .

٣- المصدر نفسه، ص٤٤٤ .

دفع أجور تلك السفن[١]. كما أنه كان يقوم باعداد الذخيرة اللازمة لهم[٢] وكان من واجبه الاحتفاظ بخمسين سفينة على الأقل فى الاسكندرية بصفة احتياطية يقدمها عند اللزوم[٣].

ولذلك ظهر دور مصر فى البحر المتوسط فى إطار هذه العلاقات، وعندما قام السلطان العثمانى سليمان القانونى بحصار جزيرة رودس عام ٩٦٨هـ / ١٥٢٢م، أرسلت مصر ٢٠ سفينة حربية مع بعض الجنود من الأوجاقات العسكرية الموجودة بالاسكندرية، مع تموينهم من المواد الغذائية، وتم الاستيلاء على هذه الجزرة بفضل المساعدة المصرية [٤]. كما ألقيت أعباء أخرى على مصر، وهى القيام بدوريات منتظمة فى موسم الربيع بين إيطاليا ورودس والاسكندرية لمواجهة سفن القراصنة، كما صدرت الأوامر لقابودان الاسكندرية لحراسة سفن تجار المسلمين حتى تتجاوز الأماكن الخطرة فى البحر المتوسط، كما صدرت الأوامر للقابودونات فى مصر بضرورة الانضمام إلى الأسطول العثمانى فى البحر المتوسط بأسلحتهم وذخيرتهم وتموينهم فى حالة القيام بعمليات حربية[٥] أما فى حالة السلم فإنه يتعين بقاء جزء من الأسطول فى الموانئ، ويقوم الجزء الآخر بأعمال دورية منتظمة فى البحر المتوسط.

أما بالنسبة للعلاقات الخارجية لولاية مصر، لقد تولتها الدولة العثمانية مع دول العالم، بحكم خضوع مصر وغيرها من الولايات العربية لها منذ عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م وحرمت مصر منذ ذلك الوقت من ممارسة سيادتها فى إقامة علاقات متوازنة مع القوى الدولية، واستمرت علاقاتها مع الخارج من خلال وضعها لكيان الدولة العثمانية، وكان أوضح مظهر لهيمنة الدولة على الأمور الخارجية هو التزام الولايات العربية ومن بينها مصر بتطبيق المعاهدات التى

١- سجلات المحكمة الشرعية بالاسكندرية، سجل رقم ٥٥، مادة ٥٦، بتاريخ ١٢ ربيع الثانى عام ١٠٢٩هـ/ ١٦١٩م.

٢- سجل رقم ٦٣، مادة ٢٣١، عام ١١٢٨هـ / ١٥٧١م.

٣- S.J. Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution , pp. 80-81 . Idem. The Financial and Administrative Organization and development in ottoman Egypt , pp. 184-188 .

٤- بليماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص٢٦٣ .

٥- سيد محمد السيد، مصر .. نفس المصدر، ص٣٣٨ - ٣٣٩ .

تبرمها الدولة العثمانية مع الدول الأجنبية على أراضيها وإن كانت هذه الدولة التى لها علاقات دبلوماسية مع الدولة العثمانية، توفد ممثلين لها «قناصل فى الولايات العربية، لرعاية مصالح التجار والرعايا التابعين لهذه الدول، دون أن يمتد هذا إلى حد إقامة علاقات سياسية، مع موظفى الولاية كالباشا» ممثل السلطة المركزية أو القوى المسيطرة ، وإلى جانب هذه العلاقات المحدودة بين الولايات والعالم الخارجى فإن عدة عوائق تواجدت لتزيد من بعد الولايات عن العالم الخارجي، فكان هناك العائق الدينى ، المتمثل فى الاعتقاد السائد عند القاعدة العريضة من المسلمين فى الولايات العربية، بأن أوربا تلك البلاد المسيحية الصليبية التى لاتقترب من بلاد الإسلام إلا لإيذاء المسلمين، فكأن الانعزال عن أوروبا هو الأمان والحفاظ على الإسلام[١].

وكان العائق الاجتماعى يقف فى وجه تحقيق الاتصال بين الولايات والعالم الخارجي بسبب أزمة الثقة بين المسلمين والأجانب ، ويمكن ملاحظة ذلك فى أسلوب التعامل مع الأوروبيين المشتغلين بالتجارة العربية، إذ كانوا يعزلون فى «خانات» أو أحياء خاصة بعيدة عن أماكن تجمع المسلمين حيث يقيمون متاجرهم ويأوون فيها ، ويمارسون عباداتهم ويحفظون دوابهم- بل أن أماكن كانت تخصص لدفن موتاهم ، وتلحق بمحال إقامتهم - ولهذا كان الاتصال يكاد يكون منعدما بين الأجانب وأهل الولايات الإسلامية فعاشوا على هامش المجتمعات الإسلامية . كما أن اكتفاء أهالى الولايات العربية ومن بينها مصر بالدراسة فى مركز الدراسات الإسلامية كالأزهر والكوفة والبصرة والقيروان والأماكن المقدسة حال دون تبادل ثقافى بين المسلمين وأوربا فضلا عن إيمان المسلمين بأن بلاد الغرب هى مهد الكفر والكفرة [٢]. ويأتى العائق الاقتصادى ليضيف جديدا إلى فقر العلاقات مع العالم الخارجي فاقتصاد الولايات العربية كان يقوم على الزراعة التى تكاد تفى بحاجيات السكان ، والصناعة المحلية تكاد تكفى المتطلبات داخل الولاية ، والمبادلات التجارية تقتصر على بلاد الشام والحجاز ومصر واليمن والشمال الأفريقى مع ندرة المبادلات مع أوربا اللهم، إلا فى مجال الكماليات كما وقفت اللغة حائلا دون الاتصال[٣] إلا أن حجم التجارة بين التجار الأوروبيين ومصر تزايد

١- عبد العزيز محمد الشناوى، الدولة .. نفس المصدر، ج٢ ، ص٧٢٠-٧٣٥ ، عبد الوهاب بكر، مصر والدولة العثمانية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، ص٧١ .

٢- المصدر نفسه .

٣- الشناوى ، الدولة العثمانية، نفس المصدر، ج٢ ص٧٢٠-٧٣٥ ، عبد الوهاب بكر... نفس المصدر، ص٧١ .

بفضل الوضع الجغرافى لمصر من ناحية- وبفضل الامتيازات التى كانت تمنح هؤلاء التجار حقوقا جمركية فى شكل رسوم منخفضة من ناحية أخرى، كما أن اليهود ومسيحيى الدولة كانوا يتمتعون أيضا بمميزات تجارية حسنة[١].

ولقد وقعت الدولة العثمانية معاهدات تجارية مع كل من البندقية فى عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م، لتشجيع رعايا هذه الجمهورية القدوم إلى الاسكندرية بسفنهم وبضائعهم ومباشرة نشاطهم التجارى فى جو من الطمأنين والعدالة والأمن. ثم عقدت معاهدة أخرى مع البندقية عام ٩٢٨هـ / ١٥٢١م ، وجددت هذه المعاهدة عام ٩٤١هـ / ١٥٣٤م واستمرت تجدد فى عهد كل سلطان جديد. ومع دولة دوبرونيك (راجوزة) عام ٩٢٨هـ / ١٥٢١م [٢]. وجددت هذه المعاهدة فى عام ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م أما بالنسبة لانجلترا فتعتبر سنة ٩٩١هـ / ١٥٨٣م، بداية التاريخ الفعلى والرسمى لتنفيذ معاهدات الامتيازات المتبادلة بين التجار الإنجليز فى أملاك الدولة العثمانية والتجار العثمانيين فى انجلترا [٣].

وبموجب هذه المعاهدات كان يمكن للتجار الأجانب بعد أن يدفعوا الرسوم الجمركية على بضائعهم ، أن يقوموا بالبيع والشراء فى أسواق القاهرة والاسكندرية ورشيد وبولاق أيضا. حيث كانت معاملاتهم مع المسلمين فى هذه المدن تسجل فى سجلات الموانئ ، وبعد أن تتم عملية البيع والشراء التى كان يقوم بها هؤلاء التجار الأجانب كان يحصل منهم رسم قدره ١٠,٥ أقجة كرسوم جمركية وغيرها [٤]. وحتى تتمكن الدول التى عقدت معها معاهدات تجارية وغير تجارية مع الدولة العثمانية ، من تطبيق هذه البنود الخاصة بالمعاهدات ، طلبت كل من البندقية وفرنسا من الدولة العثمانية، تعيين قناصل لهما فى القاهرة والاسكندرية. ولما كان قناصل البندقية وفرنسا يشرفان على شؤون الرعايا الإنجليز - قبل عقد معاهدة ٩٩١هـ / ١٥٨٣م - والدوبرونيك فى مصر ، لم تنقطع شكوى هؤلاء خلال القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، لدرجة أن السلطان كان يرسل للوالى يأمره بمنع ظلم هؤلاء القناصل لرعايا انجلترا ودوبرنيك فى مصر ، وعدم تدخلهم فى شؤونهم وأخيرا تمكنت انجلترا ودوبرونيك من الحصول على إذن بتعيين قناصل لهما فى الاسكندرية .

١- الشناوى ، الدولة ، المصدر نفسه ، ج٢، ص٧٠٧ .

٢- المصدر نفسه.

٣- المصدر نفسه، ج١ ، ص٧١٨ .

٤- أحمد عبد الرحيم مصطفى، فى أصول .. نفس المصدر ، ص٩٥ .

لم يكن لهؤلاء القناصل علاقات مباشرة مع الباشا فى مصر، وإنما كانوا يعرضون مسائلهم وأمورهم على الحكومة العثمانية فى استانبول حيث كان الديوان الهمايونى يناقش الأمر، ويفصل فيه هناك ثم ترسل الأوامر بعد ذلك لتطبيق قرارات الدولة إلى الباشا وقابودان الاسكندرية وقاضيها، وأنه على الرغم من أن سفن البندقية التى تصل إلى الميناء تقوم بتسديد جمركها دون نقصان، فقد كان الأمناء فى الميناء يعترضون هذه السفن ولايتركونها مخالفين بنود المعاهدة الموقعة بين الدولة العثمانية والبندقية، وبذلك صدرت الأوامر للباشا العثمانى، وقابودان الاسكندرية وقاضيها، بضرورة تقصى هذه الأحوال، ومنع الأمناء من التدخل خلاف الميثاق. ومن ناحية أخرى كان الباشا العثمانى، يرسل الرسائل إلى بعض الدول الأجنبية، من أجل تيسير معاملات التجار المصريين الذين كانوا يتوجهون إلى تلك النواحى، وذلك بموجب المعاهدات المبرمة بين الطرفين[١].

وبالنسبة لتجارة مصر الخارجية فى تلك الفترة، فإنها قد تأخرت وضعفت بشكل واضح، نتيجة لقلة البضائع التى تمر فى البلاد، مما أدى إلى قلة حصيلة الضرائب الجمركية، وقلة ما تستفيد مصر من أجور النقل، هذا فى الوقت الذى زادت فيه الصعوبات أمام تصريف المنتجات المصرية فى الأسواق الخارجية، وظلت العلاقات التجارية موجودة بين مصر وبقية الولايات العربية والبلاد الأفريقية. ولكن قيمتها قلت نتيجة لضعف الانتاج الزراعى والصناعى فى البلاد، ونتيجة لضعف رأس المال والثروة العامة، وتناقصها باستمرار واشتغال عدد من الأجانب المقيمين بمصر بالتجارة الخارجية، وكان منهم بعض الفرنسيين والايطاليين، وكانوا يقيمون فى فنادقهم أو وكالاتهم، التى كانت تشمل على مخازنهم ومساكنهم فى كل من القاهرة والاسكندرية ودمياط [٢]. أما بالنسبة للعلاقات الاقتصادية بين الدولة العثمانية وولاية مصر، فنجد أن مصر كانت تصدر إلى الدولة العثمانية ٣٠٠٠ قنطار بارود أسود سنويا فى القرن السادس عشر، وازداد هذا المقدار فى أوائل القرن السابع عشر فوصل إلى ٥٠٠٠ قنطار سنويا. بجانب كميات هائلة من الحبوب مثل: الأرز والعدس والفريك البريرى[٣]. وكانت مصر تستورد من الدولة العثمانية، الأمشاط، الملاعق الخشبية الواح من

١- سيد محمد السيد، مصر فى العصر العثمانى، ص٤٥١-٤٥٢.

٢- جلال يحيى، مصر الحديثة ص٢٠٧.

٣- سيد محمد السيد، مصر فى العصر العثمانى، ص٣٠٩.

خشب الصنوبر ، لعب الأطفال دواسات عصى ، مجاديف ، الأوانى الخشبية ، قرب جلد ، ملابس حريمى، أحذية حريمى، مكانس ، رحى طاحونة ، خراطيم، مواسير ، أكلمة، موسلين تركى، الأقمشة الحريرية والكتانية، والفحم ، الكبريت، ماء النار صنع قبرص ، القطران توتيا، قلنونية، الجلود لصنع الأحذية المناسبة ، ورنين طلاء الحبال، النحاس القديم، الأوانى النحاسية ، القطران الأبيض ، البذور الخضراء ، المشكلة على شكل أقراص ، قمر الدين، قراصيا ، الخروب، سحلب، الزيتون، فستق ، العنب ، حلوى جافة ، الزبيب ، حلويات مشكلة، أفيون ، فاصوليا جافة ، تبغ تركى، عصفران [١].

أما من الناحية المالية، فقد ارتبطت مصر ماليا بالدولة العثمانية، حيث كانت تصدر نقودها باسم السلطان وكانت تستورد الذهب اللازم لهذه العملية من دارفور، وتستورد النحاس من استانبول. وقد ربطت العملة المصرية بالعملة العثمانية، بشكل جعل أى تأثير يحدث فى قيمة العملة الأخيرة يؤثر على قيمة النقود والعملة فى مصر، وكان يتم الغاء التداول ببعض أنواع النقود واستبدال غيرها بها، وتقدير قيم رسمية جديدة للعملة الباقية يحدث فى بعض الحالات فى وقت إرسال الجزية إلى استانبول ، الأمر الذى كان يؤدى إلى تخفيض قيم النقود المتداولة ، وإلى زيادة الأعباء على دافعى الضرائب .

ولقد كانت مصر تتعامل بالدينار الذهبى الذى كان يشتمل على عشر قطع فضية تسمى دراهم، واستبدل العثمانيون بالدينار عملة ذهبية تساويه فى الوزن، والعيار وتسمى البندقى. أما الدرهم فقد حلت محله عملة جديدة تسمى الميدى، وكانت تساوى نصف الدرهم ، وتطور الميدى بمرور الزمن وسمى بارة وتساوى هذه البارة جزءا من أربعين من القرش . وحتى الآن يصعب على دارس تاريخ هذه الفترة تحديد قيمة ثابتة لهذه القطع المعروفة فى ذلك الوقت فى العالم، وذلك نتيجة للتغيير المستمر فى قيمتها ، ومع ذلك كانت قيمتها ثابتة . وكان أهمها «الدوقى» أو «البندقى» وهو عملة البندقية ، والريال الهولندى، الذى ضرب على أحد وجهيه رسم الأسد، وكان يسمى أبوكلب، والريال الأسبانى الذى ضرب على أحد وجهيه نسر داخل شكل يشبه النافذة ، وكان يسمى «أبوطاقة» [١].

١- Shaw, Ottoman Egypt in the Eighteenth Century ..., op. cit ., p. 45 .

٢- جلال يحيى، مصر الحديثة، ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

أما المقاييس والمكاييل والموازين ، فنجد روح الفوضى التى ظهرت ميدان العملة، قد ظهرت كذلك فى هذا الميدان نتيجة لعدم خضوعها لرقابة فعالة، وأدى كل ذلك إلى اضراب فى الأسواق وانعدام للثقة وزيادة الغش والتزوير وبالتالى إلى تدهور الحالة الاقتصادية ، ورغم أن العثمانيين قد ساروا على نفس الموازين والمكاييل والمقاييس التى كانت موجودة فى البلاد، ومع ادخال تعديل بسيط عليها، إلا أن هذا التعديل ، كان فى اتجاه خفض القيمة، ونتج عن ذلك قلة مساحة الفدان، عما كانت عليه من قبل، كما إختلفت هذه المقاييس من اقليم إلى آخر، وهدف العثمانيون من ذلك زيادة كمية الضرائب المربوطة على الأراضى الممسوحة وإلى زيادة ايراداتهم بطريقة غير واضحة على حساب الفلاح[١].

هكذا كانت العلاقات المصرية العثمانية التى ظهرت فى كافة المجالات وقابلت مرحلة الازدهار فى الدولة العثمانية مرحلة استقرار ادارى فى مصر خلال الفترة (٩٣١-٩٦٧هـ / ١٥٢٤-١٥٥٩م) التى إعتلى فيها السلطان سليمان القانونى عرش السلطنة. ولكن لتقدم عمر السلطان وتراخى قبضته فى السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد فى أواخر سنوات حكمه (توفى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٦م) بدأ تدخل رجال القصر فى إدارة شؤون الدولة، واتساع صلاحيات أصحاب النفوذ فى مختلف مؤسسات الدولة، مع عدم تقيدهم بتنفيذ أوامر السلطان ، وتطبيق نظم الدولة بالسياسة الشرعية فى مختلف معاملاتها الداخلية والخارجية ، فكان لكل هذا تأثير سلبى على مركز الدولة وعلى ولاياتها فى الشرق والغرب فى نفس الوقت.

لقد ظهرت بوادر هذا الفساد أول ما ظهرت فى ايالة مصر، حيث انتقلت إليها عن طريق الولاة والأمراء الصناجق الذين كانوا يختارون من الأعضاء البارزين فى الهيئة الديوانية بمركز السلطنة حتى أن الجند العثمانى الذى كان يرسل من الآستانة بطريق المناوبة لحماية الإيالة ومؤسساتها المختلفة، أصبح من أهم عوامل الفساد فى البلاد فكان أمير الأمراء يتعرضون للعزل كل عام وعامين بسبب تجاوزاتهم[٢].

١- سيد محمد السيد ، مصر فى العصر العثمانى، ص١٥٢ .

٢- محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق، ص١٨ ، جلال يحيى، مصر الحديثة ، ص٢٢٦ .

Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, p. 83 .

الفصل الثانى

التنظيم الإدارى والمالى فى مصر العثمانية

كانت النتيجة النهائية للفتح العثمانى لمصر ، أن أصبحت مصر ولاية عثمانية بعد أن كانت مقر السلطنة والحكم ابان العصر المملوكي وتم عمل التنظيمات الادارية لمصر العثمانية ، وساهمت هذه التنظيمات فى الحفاظ على الكيان السياسى بعض الوقت ، وتبع ذلك عملية الفصل أو الاستقلال عن الولاية . كما حدث فى ولاية جرجا التى لعبت دورا هاما فى تاريخ مصر العثمانية ، وفى مقدمتها الأحداث السياسية الهامة التى تمثلت فى الصراع بين البيوتات المملوكية، وظهرت بشكل واضح فى الصراع بين القاسمية والفقارية وغير ذلك من الأحداث الهامة التى شهدتها تلك الفترة .

وقبل التعرض للتنظيمات الإدارية التى وضعها العثمانيون لمصر بصفة عامة ، لابد من الإشارة إلى التنظيمات الإدارية التى كانت موجودة فى عصر المماليك .

فقد كانت الإدارة الإقليمية فى أعمال الوجهين البحرى والقبلى خارج القاهرة والاسكندرية فأشرف عليها مجموعة من الولاة . وكان الوجه البحرى مقسما إلى عشرة أعمال هى القلوبية والشرقية والدقهلية (المرتاحية) ودمياط والغربية والمنوفية وأبيار والبحيرة وفوة النستراوية، وحكم كل منها وال ماعدا البحيرة فكان يحكمها نائب . ولعل السبب فى ذلك يرجع بأمر البحيرة ، هو تخوف سلاطين المماليك من كثرة الاعراب وما يقومون به فيها من فتن وثورات بين حين وآخر ، أما أعمال الوجه القبلى فكانت ثمانية ، لكل منها واليها ، وهى الجيزة والفيومية والأشمونية والأخميمية والأطفيحية والبهنساوية والأسيوطية والقوصية ، وكانت أسوان تتبع قوص ولكنها استقلت وصارت عملا قائما بذاته فى عهد الناصر محمد (٦٩٣هـ/١٢٩٣م - ٧٤١هـ/١٣٤١م) ويلاحظ أنه لم يوجد نائب لكل من الوجهين البحرى والقبلى الا فى عصر دولة المماليك الجراكسة أو الثانية ، أما فى دولة المماليك البحرية فوجد كاشف للوجه البحرى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الدلتا ، وآخر للوجه القبلى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الصعيد . وجرى الاصطلاح بتسمية هذا الكاشف "والى الولاة "وتمتع بنفوذ كبير على الأقاليم التابعة له(١) .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٣٥٨ ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص١٤٣ ، ابراهيم طرخان ، المرجع السابق ، ص١٠٨ .

أما الإسكندرية فقد كانت لها ادارة خاصة ، فقد عين لها نائب على أنها نيابة مثل نيابات الشام وذلك لزيادة أهميتها واعتبارها ثغر مصرالأول على البحر المتوسط ، وكثرة الجاليات الأجنبية بها مما تطلب اعطاؤها عناية خاصة(١) وسنتعرض لها كمثال لنظام ادارة الموانى .

وأعاد العثمانيون النظر فى التقسيم الادارى القائم منذ الفتح العربى ، فغيروا كلمة أعمال باسم "ولاية" وقسموا البلاد من الوجهة الادارية إلى ١٣ ولاية ، منها سبع فى الوجه البحرى وست فى الوجه القبلى هذا بخلاف ستة موانى هى الاسكندرية ورشيد ودمياط والعريش والسويس والقصير(٢)

وكان يرأس كل ولاية "كاشف" أو حاكم ويرأس كل ميناء قبودان ، غير أن الموانى الثلاثة الاسكندرية ودمياط والسويس اعتبرت تابعة رأسا للدولة العثمانية يحكمها ثلاثة قبودانات من أمراء البحر يعينهم السلطان(٣) :

وأما القاهرة فكانت تحت ادارة أمير من المماليك ، وكان مقر السلطات الحاكمة والادارة ويشرف عليها الباشا ورجال الادارة كأغا الانكشارية الذى يقوم بالسلطة العليا للبوليس فى القاهرة يشاركه فى حفظ الأمن وتنظيم الشئون البوليسية والتموينية وفيها زعماء مصر الثلاثة وهم : زعيم مصر ، أو والى مصر وزعيم بولاق وزعيم مصر القديمة وأمين الاحتساب(٤) وكان والى القاهرة أو شيخ البلد يأتى من حيث الأهمية بعد الباشا مباشرة ثم ازدادت سلطته فيما بعد على سلطة الباشا(٥) .

وعلى هذا فقد ارتكز التنظيم الادارى لمصر العثمانية على خمسة أقاليم ادارية كبرى تسمى باسم ولاية ، وكانت على النحو التالى(٦) .

١- الغربية وعاصمتها المحلة الكبرى .
٢- المنوفية وعاصمتها منوف .
٣- الشرقية وعاصمتها المنصورة .
٤- البحيرة وعاصمتها دمنهور .
٥- جرجا وعاصمتها جرجا .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص١٤٣ .
(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٣٨٢ ، عمر ممدوح ، أصول تاريخ القانون ، ص٣٦١ .
(٣) عمر ممدوح ، المرجع السابق ، ص٣٦٢ .
(٤) ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٣٨٢ .
(٥) عمر ممدوح ، المرجع السابق ، ص٣٦١ .
(٦) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٣٨٢ .

ويلاحظ على التنظيم الإدارى الذى تم فى ذلك الوقت أن الوجه البحرى كانت له أربع ولايات ، أما الوجه القبلى فكان عبارة عن ولاية واحدة ، وربما يرجع ذلك الى عدم اهتمام العثمانيين بالصعيد ، أو أن القوى المسيطرة على الصعيد ، كانت فى مقدورها السيطرة عليه، ولاسيما عربان هوارة بالذات الذين حكموا الصعيد من المنيا إلى الشلال وأصبحت ولايات الوجه القبلى بعد ذلك كالآتى[1] . بهنساوية ، أشمونين ، منفلوط ، جرجا ، أطفيح البر الشرقى ، الواح من داخل جرجا (أى الواحات) وسميت الواحات فى الصحراء الغربية بإقليم الواحات خلال حكم خاير بك ، وتعتمد فى دخلها على الرسوم التى كانت تجبى من القوافل الآتية من سنار ودار فور المحملة بالذهب والعبيد ، وقد كانت تعتبر محطة وتمتعت بهذا الاستقلال إلى عام ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م حتى أنه إبان استقلالها كانت تابعة لولاية جرجا والجيزة والفيوم .

وكثيرا ماينشب الصراع بين الصناجق من الأمراء المماليك حول تولى حكم هذه الولايات الخمس الكبرى (الشرقية - الغربية - المنوفية - البحيرة - جرجا) ، وبخاصة ولاية جرجا التى أصبحت مطمعا للكثيرين منهم ، ويرجع ذلك إلى أهميتها الاقتصادية ، حيث كانت تعد مركز التموين الأول للبلاد وخاصة القمح[2] .

تلك كانت أهم الولايات الأساسية ، ولكن وجد بالإضافة إلى ذلك أربعة وعشرون قسما آخر عرفت باسم الكاشفيات وكانت موزعة على النحو التالى [3]:

ثلاثة بمصر السفلى ، وهى بلبيس وقليوب ، وشرق الدلتا ، ثم الطرانة غرب الدلتا وكانت تابعة لولاية البحيرة ، وسبعة فى مصر الوسطى ، وهى اطفيح (شرق النيل) الجيزة ، الفيوم ، بنى سويف ، المنيا ، أشمونين ، منفلوط (غرب النيل) وأربعة عشر فى مصر العليا ، وتشمل أسيوط ، وأبوتيج ، وطما ، وطهطا ، واخميم ، وفرشوط ، وبرديس ، وبهجورة ، وقنا ، وقوص ، وابريم ، والواحات واسنا وهو .

ولم تكن هذه الكاشفيات مستقلة بذاتها ، وان كان بعضها تمتع بما يشبه الاستقلال لانفصالها فى تدبير بعض شئونها الداخلية عن الولاية الكبرى [4] كما أن نظام الولايات قد

---

(١) محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ، ص٣٣ ؛ Shaw, Op. Cit., pp. 15-16.

(٢) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص٢٣ ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص٢٦ .

(٣) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٣٨١.

(٤) حسن عثمان ومحمد توفيق ، تاريخ مصر فى العهد العثمانى ، ص٢٥٣ .

تدهور فى أواخر القرن الثامن عشر وتم الخلط بين استخدام كلمة "ولاية" وكلمة "كاشفية". وكان يحكم الأقاليم الخمسة الكبرى حكام بكوات ، ويحمل كل منهم رتبة الصنجقية ، ويحصل على لقب حاكم . وكانت الصنجقية من أسمى الرتب فى مصر العثمانية وأمر السلطان سليم بعد أن فتح مصر أن يكون بها أربعة وعشرون طبلخانة ، أى أمراء تدق لهم الطبول وغيرها من آلالات الموسيقية تعبيرا عن مكانتهم العالية .

وكان منصب الصنجقية من المناصب الهامة ولها امتيازات مالية ، وقد تكون الصنجقية رتبة فقط أى يحملها صاحبها دون أن يشغل منصبا هاما ويعرف بأنه صنجق بطال ويرقى الصنجق الى رتبة بك ، طبقنا لثروته ومركزه ، وكان أمراء المماليك يسعون دائما لجعل الصناجق من أولادهم وأتباعهم[١] .

وكان حكام الأقاليم يقيمون دائما فى القاهرة ، ويعودون لبعض الوقت إلى أقاليمهم غير أن حاكم جرجا استقر فى اقليمه ، وقد ساعده ذلك على التمكن من اقليمه وكل بلاد الصعيد بحيث أصبح تحت ادارته ، العديد من القادة مثل قائد الشاويشية وأغا الانكشارية . وكان يحصل بك جرجا على نصيب عينى من السلع التى كانت تأتى من سنار ودار فور مع قوافلهم[٢] .

اشترك فى حكم مصر فى العهد العثمانى عدة عناصر . فالباشا ومعاونوه يمثلون السلطان العثمانى ويحكمون الولاية ويشرفون على ادارتها . وهيئة أمراء المماليك من رجال الأوجاقات "العسكرية" يشتركون فى الحكم والادارة أيضا إلى جانب مهمتها الحربية . فوجد تشابك وتداخل فى اختصاصات هذه العناصر ، كما وجد توازن بينها فى حكم البلاد . ولقد نظم قانون سليمان قواعد الحكم العثمانى كما اقتضتها ظروف الأحوال فى مصر . واليك وصفًا عاما عن أهم عناصر الحكومة والادارة فى ذلك العهد .

الباشا :

كان الباشا فى مصر العثمانية هو ممثل السلطان ونائبه فى الحكم والادارة ، ونظرا لأن مصر كانت من أهم الولايات فى السلطنة العثمانية ، فقد كان السلطان يبعث اليها بولاة من ذوى الخبرة ممن شغلوا منصب الصدارة العظمى أو عملوا فى المناصب الرئيسية فى البلاط العثمانى أو فى المناصب الادارية الهامة في الدولة العثمانية أو فى ولاياتها[٣] .

---

(١) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ١٦ ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٢٩٣ .

(٢) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٧٢ .

(٣) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٦١ .

ومن أشهر رجال الصدارة العظمى الذين تولوا باشوية مصر ، الوزير ابراهيم باشا (٩٣١هـ/١٥٢٥م) محمد رامي باشا (١١١٦-١١١٨هـ/١٧٠٤-١٧٠٦م) ومحمد عزت باشا (١٢٠٥-١٢٠٨هـ/ ١٧٩٠-١٧٩٣م) .

ومن الباشاوات الذين شغلوا مناصب رئيسية في البلاط العثماني ، قبل توليهم باشوية مصر ، داوود باشا الخادم (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨-١٥٤٩م) الذي نشأ في قصر السلطان سليمان القانوني ، وكان خازنداره ، وعلى باشا الذي تولى باشوية مصر (١١٠٢-١١٠٧هـ/ ١٦٩٠-١٦٩٥م) كان قائم مقام الركاب السلطاني[١] .

ومن الشخصيات ذات الخبرة في الإدارة العثمانية المركزية وفي ادارة الولايات ، أويس باشا الذي تولى باشوية مصر (٩٩٤-٩٩٩هـ/ ١٥٨٥-١٥٩٠م) وكان قد تولى القضاة والدفتردارية في السلطنة نفسها قبل توليه حكم مصر وسليمان باشا الخادم (٩٣١-٩٤١هـ/ ١٥٢٥-١٥٣٤م) الذي كان قائدا للحملة التي أرسلت لمساعدة الامراء المسلمين في الهند[٢]. وقره محمد باشا (١١١-١١١٦هـ/١٦٩٩-١٧٠٤م) عمل في منصب كتخدا الباشا السابق له في مصر اسماعيل باشا وأحمد باشا الذي تولى باشوية مصر (١٠٢٤-١٠٢٧هـ/ ١٦٠٥-١٦١٧م) عمل دفتردارا قبل توليه حكمها، وابراهيم باشا (١٠٨١-١٠٨٤هـ/ ١٦٧٠-١٦٧٣م) عمل محافظا لكريت ، قبل قدومه إلى مصر ، واسماعيل باشا الحلبي (١١٠٧-١١٠٩هـ/١٦٩٥-١٦٩٧م) قدم إلى مصر من ولاية الشام[٣] .

وكثيرا ماخرج الباشاوات بعد نقلهم من مصر إلى منصب الصدارة العظمى ، مثل حسين باشا الذي تولى حكم مصر (١٠٢٩-١٠٣١هـ/١٦١٩-١٦٢١م) ومحمد راغب باشا (١١٥٩-١١٦١هـ/١٧٤٦-١٧٤٨م) وأحيانا كان باشا مصر يخرج منها بعد عزله حكم ولاية

---

(١) قائم مقام الركاب السلطاني : رئيس معظم ضباط الخدمة الخارجية وهم الذين عرفوا بأغوات الركاب، وقد استخدمت كلمة ركاب عند العثمانيين من قبيل الاستعارة للاشارة إلى السلطان أو إلى حضرته، اذ أن الحاكم في الأيام الأولى كان يتلق العرائض والشكاوى وهو على ظهر حصانه ، وقد استخدم العثمانيون هذه الكلمة للاشارة إلى المواكب والاجتماعات التي يظهر فيها السلطان . ومن أغوات الركاب مير علم ، قابيجي باشا ، مير آخور ، طوبجي باشي (أنظر ، هاملتون جب ، هارولد بوون ، المجتمع الإسلامي والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصطفى الحسيني ، جـ١ ، ص١٢٠ ، القاهرة ١٩٧١) ، ليلى عبد اللطيف أحمد، الإدارة في مصر في العصر العثماني ، ص٦١ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة في مصر ، ص٦٢ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٣٢ .

أخرى من ولايات السلطنة ، وفى بعض الحالات كان الباشا يعود إلى مصر لتولى حكمها مرة ثانية بعد العمل فى الولايات الأخرى أو القيام بحملات حربية[١] .

وقد اختلفت شخصية باشاوات مصر فلم يكونوا كلهم من طراز واحد ، فقد كان منهم باشاوات على جانب كبير من الحزم وحسن الادارة ، مثل ابراهيم باشا (٩٣١ هـ ١٥٢٥م) الذى قام بتنظيم الادارة فى مصر بناء على تكليف من السلطان سليمان القانونى ، وسليمان باشا الخادم (٩٣١-٩٤١هـ /١٥٢٥-١٥٣٤م) الذى قام أدق مساحة الأقاليم مصر تلك المساحة التى سجلت فى ربيع سنة ٩٣٣هـ/١٥٢٧م . وقد ظل ذلك الدفتر أساس لمساحة مصر طوال العهد العثمانى[٢] ومحمد باشا (قول قران ومعمر ومبطل الكرية) (١٠١٦-١٠٢٠هـ/١٦٠٧-١٦١١م) استطاع بحزمة وقوة شخصيته أن يقضى على أخطر تمرد فى مصر العثمانية[٣] .

وقد شهدت فترة الحكم العثمانى لمصر باشاوات من طراز آخر فبعضهم كان محبا لجمع المال مثل محمود باشا المقتول (٩٧٣-٩٧٤هـ/ ١٥٦٥-١٥٦٦م) والذى كان لايلبس هو وأتباعه الا الديباج وجميع أوانيه من الفضه ومنهم من اشتهر بحب اللهو والخروج إلى المتنزهات فى خلاعة مثل محمد باشا (دوقة لين) ومعناها الخليع (٩٦١هـ-٩٦٣هـ/١٥٥٣-١٥٥٥م) [٤].

واشتهر باشاوات آخرون بالقسوة وسفك الدماء مثل على باشا السلحدار (١٠١٠-١٠١٢هـ/ ١٦٠١-١٦٠٣م) الذى كان سفاكا للدماء ، وكان اذا ركب يقتل عشرة أنفار وزيادة ويمر فى دمائهم بحصانه[٥] كما أخذ على بعض الباشاوات الاسراف فى الظلم وأخذ رشوة ، مثل حسن باشا الخادم (٩٨٨-٩٩١هـ/ ١٥٨٠-١٥٨٣م) بحيث أن خروجه من مصر لم يكن الا من على الترب من كثرةظلمه وخوفه من الرعايا[٦] .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص٦٣ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص ٦٣ .

(٣) يوسف الملوانى الشهير بابن الوكيل ، تاريخ مصر العثمانية من ٩٢٣-١١٣١هـ/١٥١٧-١٧١٩م ، من خلال مخطوطه ، دراسة وتحقيق ابراهيم يونس محمد ، لنيل درجة الماجستير من قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٨١ ، ص١٦٣ ، محمد بن أبى السرور البكرى الصديق ، النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ، دراسة وتحقيق وتعليق ، عبد الرازق عبد الرازق ، القاهرة ١٩٩٨م . ص١٨١ .

(٤) يوسف الملوانى ، تحفة الاحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، ص١٣٨ .

(٥) محمد بن ابى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص١٧٤ ، مصطفى الشافعى القلعاوى ، صفوة الزمان فيمن تولى مصر من أمير وسلطان ، ص١٥٠ .

(٦) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، ص١٤٦ ، محمد البكرى ، النزهة الزهية ، ص١٥٩ .

وعلى النقيض من هذا اشتهر باشاوات آخرون بالعدل وتكريم أهل العلم مثل على باشا الخادم (٩٦٦-٩٦٧هـ/١٥٥٨-١٥٥٩م) فقد كان حاكما عادلاً محبا للعلماء والفضلاء وكثير الاحسان لهم بحيث لم يوجد فى خزانته عند وفاته سوى سبعة دنانير ومن اللباس والتجملات شئ قليل[١]. وبينما كان بعض الولاة أميا لايقرأ ولايكتب مثل اسماعيل باشا (١١٠٧هـ/١٦٩٥م) كان البعض الآخر على جانب كبير من العلم مثل جعفر باشا (١٠٢٨هـ-١٦٩٥م) الذى كانت له اليد الطولى فى غالب العلوم خصوصا علم التفسير ، داوود باشا الخادلم (أطول باشاوات مصر العثمانية عهدا (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨-١٥٤٩م) وكان على درجة كبيرة من العلم وقد اهتم بجمع الكتب العربية ونسخ له النساخ كثيرا منها فتكونت لديه مكتبة كبيرة كان مواظبا على الاطلاع فيها[٢] . وعبد الله باشا الكبورلى (١١٤٢-١١٤٤هـ/ ١٧٢٩- ١٧٣١م) كان ميالا إلى الأدب مما جعل الشعراء فى مصر يمدحونه لفضله وميله إلى الأدب[٣] وأحمد باشا كور (١١٦٢-١١٦٣هـ/١٧٤٨-١٧٤٩م) كان مهتما بالعلوم الرياضية وأتصل بالشيخ حسن الجبرتى واشتغل عليه برسم المزاول والمنحرفات حتى أتقنها[٤].

ومن الشخصيات الفريدة بين ولاة مصر محمد باشا ملك (١١٩٥-١١٩٦هـ/ ١٧٨٠-١٧٨١م) ، وكان من أفاضل العلماء متضلعا فى سائر الفنون ويحب المذاكرة والمباحثة والمسامرة وأخبار التواريخ وحكايات الصالحين وكلام القوم[٥] . وقد اشتهر كثير من باشوات مصر بحب الخير ، ووقف الأوقاف الغديدة واقامة المساجد والأسبلة والمكاتب العلمية والتكايا ، فقد أقام سليمان باشا الخادم (٩٣١هـ/١٥٢٥م) مسجدا ببولاق وأوقف عليه وقفا كبيرا وعمرمسجد سيدى سارية بقلعة الجبل[٦] ومحمد باشا (قول قران) (١٠٠٦هـ/١٧٠٦م) أوقف

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص١١٣ ، يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب ، ص١١٢.

(٢) أحمد كتخدا عزبان الدمرداش ، كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، تحقيق ، عبد الرحيم عبدالرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ١٩٨٩ ، ص٢٧ .

(٣) يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب ، ص١٣٦ ، محمد البكرى ، النزهة الزهية ، ص١٤٠ .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٥٦٦ ، عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الاثار فى التراجم والأخبار ، جـ١ ، ١٤٤ .

(٥) نفسه ، ص١٨٦ .

(٦) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، ص١٣٤ .

عدة قرى ووكائل بثغر رشيد وأرضا بالأزبكية وبلغ ايراد تلك الأوقاف عشرين ألف دينار وجعل منها سحابة الحاج الشريف (أربعون جملا من الماء كل عام) [١] . واسكندر باشا (٩٦٣هـ/٩٦٦هـ-١٥٥٥-١٥٥٨م) أقام جامعا بباب الخلق وتكية تجاه هذا الجامع وأوقف عليهما أوقافا كثيرة[٢] وخسرو باشا (٩٤٠-٩٤٣هـ/١٥٣٣-١٥٣٦م) أنشأ عمارة بسوق الصاغة صهريجا ومكتبا يقرأ فيه الأيتام مع ترتيب الخير لهم[٣] ، وقرة محمد باشا (١١١١-١١١٦هـ/ ١٦٩٩-١٧٠٤م) أقام جامعا وتكية لفقراء الخلوتية من الأروام في حي الأربعين بجوار باب قرا ميدان وأسكن الأروام بالتكية وأنشأ تجاهها مطبخا ودار لضيافة الفقراء ، وفي اعلاها مكتبا للأطفال يقرءون فيه القرآن الكريم ورتب لهم مايكفيهم وعمر بالقرافة مقام سيدى عيسى بن عبد القادر الجيلانى وجعل به فقراء مجاورين ورتب لهم مرتبات وأنشأ صهريجا بداخل القلعة[٤] . وقد أقام اسماعيل باشا (١١٠٧هـ/١٦٩٥م) تكية فى قرا ميدان ووقف عليها وعلى سحابة بطريق الحجاز سبعة قرى أخذها من المحاليل فى اقليم البحيرة[٥] وقد قام بعض الباشاوات بتعمير الجامع الأزهر وتجديده مثلما فعل محمد باشا (١٠٠٤-١٥٩٥م) فقد عمر الجامع الأزهر وجدد ماهدم منه ورتب له من الشون العدس يطبخ فى كل يوم للفقراء ، ولأجل ذلك تسامعت الناس فأتوا اليه بطلب العلم من أقصى القرى[٦] .

ولم تقتصر أوقاف الباشاوات وخيراتهم على مدينة القاهرة وحدها بل امتدت إلى مختلف أنحاء البلاد فسنان باشا (٩٧٥هـ/١٥٦٧م) الذى أقام مسجدا وسوقا وحماما ببولاق[٧]

---

(١) محمد بن أبى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص١٨١ .

(٢) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، ص١٣٩ ، أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١١٢ .

(٣) محمد بن أبى السرور البكرى ، المرجع السابق ، ص١٢٩ .

(٤) عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص٣٠ .

(٥) أحمد كتخدا عزبان ، المرجع السابق ، ص٢٦ ، عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص١٠٠ .

(٦) محمد بن أبى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص١٥١ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق، ص٦٦ .

(٧) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٦٦ .

أنشأ أيضا جامعا كبيرا ببندر القصير على البحر الأحمر ، وأوقف على الجامع وعلى الخدمة به وقفا كبيرا بلغ ألفا وخمسمائه وسبعين فدانا من الأراضى الزراعية التى كانت من أملاك الباشا فى الوجه القبلى[١] .

ألقاب الباشا :

فى أوائل العهد العثمانى كان حاكم مصر يلقب بلقب بكلربك[٢] وقد أوردت المصادر المعاصرة أسماء باشوات مصر منذ بداية العهد العثماني إلى النصف الأول من القرن السابع عشر مقرونة بهذا اللقب[٣] وكان أول من لقب به خاير بك وقد أشار قانون نامه مصر إلى حاكم مصر بهذا اللقب[٤] .

ومن ألقاب الباشا الأخرى ، لقب والى ، فقد كان السلطان يخاطب باشا مصر بلقب والى مصر فيرد فى الفرمانات مثلا إلى عزت محمد باشا فى فرمانه بلقب (الباشا والى مصر) دون ذكر اسم الباشا بالتحديد . وتذكر ليلى عبد اللطيف[٥] ومن الالقاب التى أطلقت على باشا مصر ووردت فى الوثائق والمصادر المعاصرة :

«لقب الوزير الاعظم كافل المملكة الشريفة الإسلامية بالديار المصرية والثغور المحمية والاقطار الحجازية» .

محافظ أو حافظ مصر المحروسة

حافظ الديار المصرية والأقطار الحجازية .

وبعد صدور الأمر السلطانى بتعيين باشا مصر كان يأخذ طريقه إليها إما برا عن طريق الشام، إذا كان قادما إلى مصر من إحدى ولايات الشام أو العراق وإما بحرا إلى الإسكندرية إذا كان قادما من السلطنة نفسها [٦] . وفى الحالة الأولى كانت بعثة الاستقبال الرسمية

---

(١) ليلى عبد اللطيف، المرجع السابق .

(٢) محمدبن ابى السرور البكرى ، المرجع السابق ، ص١٥٢ .

(٣) قانون نامة مصر ، ترجمة وتعليق أحمد فؤاد متولى ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص١٥ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٦٦ .

(٥) المرجع السابق ، ص٦٧ .

(٦) نفسه ، ص٦٨ .

تخرج لمقابلة الباشا فى العريش وفى الحالة الثانية كانت البعثة تذهب لاستقباله فى الإسكندرية .

وإذا كان الباشا قادما عن طريق الإسكندرية ، كان يتوقف بها لزيارة مقامات كبار الأولياء مثل أبى العباس المرسى ، أبى الفتح الواسطى ، وقد يوقف بعض الأوقاف الخيرية ويقدم العطايا والانعامات للفقراء ثم يزور قلعة قايتباى ثم يزور مدينة رشيد[١] . وبعد اتمام مراسيم الاستقبال يتوجه الباشا إلى مقره بالقلعة حيث يبدأ مباشرة مهام منصبه[٢] .

أما عن مقر الباشا فقد كانت القلعة مقرا للباشا الحاكم كما كان الحال في العصور السابقة وقد بدأ اتخاذها مقرا لحاكم مصر العثمانية منذ ولاية خاير بك أول والى لمصر من قبل العثمانيين .[٣] ولما كان الباشاوات يشعرون بأنهم مؤقتين فى القاهرة فانهم لم يكن يهتموا كثيرا بالقصر الذى كانوا يسكنون فيه . ويذكر بعض القناصل ومنهم دى مايية . أن قصر الباشا فى حالة سيئة ، ونادرا ما كان أحد الباشوات يفكر بادخال أى أصلاح عليه ، ولكن نجد أن بعض الولاة المحبين للبذخ مثل اسماعيل باشا (١١٠٧هـ/١٦٩٥)[٤] فقد أدخل بعض الاصلاحات على هذا القصر في مدة ولايته ، وذلك بمناسبة الاحتفالات التى أقامها لختان ابنه، فأقام جناحا جديدا للقصر ، وزرع حديقه كان يحضر لها الماء يوميا على ظهور الجمال[٥] .

وقد حدد قانون نامه مقر الباشا ، أن يقيم كاسلافه فى القلعة ، ولكن القانون لم يربط الباشا بالقلعة كما وردت بعض المراجع الحديثة ، فقد وصف بعضهم بأن باشا القاهرة الأسير وأن قانون نامه قد حبس هذا الباشا بين جدران القلعة ، وقد أصبح الوالى سجينا

---

(١) محمد بن أبى السرور البكرى الصديق ، كشف الكربة فى رفع الطالبة ، تحقيق عبد الرحيم عبدالرحمن عبد الرحيم ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ٢٣ ، عام ١٩٧٦ ، ص٣٢٨ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص ٧٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٤) أحمد كتخدا عزبان ، المرجع السابق ، ص٢٧ ، أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ١٩٧ ، جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٣٦ .

(٥) جلال يحى ، مصر الحديثة ، ص١٣٧ .

فى القلعة[١] وهذه الأوصاف عن تقيد حرية الباشا وربطه بالقلعة أبعد ماتكون عن الحقيقة فقد كان باشوات مصر ينزلون من قصورهم فى القلعة[٢] ويتجولون بكل حرية فى مختلف أنحاء البلاد فابراهيم باشا (٩٩١-٩٩٢هـ/١٥٨٣-١٥٨٤م) ذهب بنفسه إلى جميع أقاليم مصر إلى الصعيد الأقصى [٣] وكان الباشاوات يذهبون إلى كبار العلماء فى منازلهم ويرأسون الحفلات العامة مثل الاحتفال بوفاء النيل ، ويذهبون للتفتيش على الشون الأميرية وأداء الصلاة بالجامع الأزهر وغير ذلك[٤] .

وربما كان ضعف سلطة الباشا وسيطرة العصبيات المملوكية على الادارة فى مصر العثمانية- تلك السيطرة التى بلغت ذروتها فى القرن الثامن عشر هى التى أوحت إلى المؤرخين المحدثين بفكرة تحديد اقامة الباشا فى القلعة[٥] .

أما عن مدة حكم الباشا ، فقد كانت سياسة الدولة العثمانية بالنسبة للتعيين فى الوظائف الكبرى تقوم على اجراء التعينات لتلك الوظائف سنة واحدة لا أكثر وان كانت تعد فى الواقع فى كثير من الأحيان عن طريق التجديد بتقرير خاص يصدر لتجديد مدة الباشا وهو ماعرف بتقرير السنة الجديدة . وكان التقرير الخاص بتجديد مدة الباشا أو تعينه يصدر دائما فى شهر شوال من كل عام وكانت هذه عادة الدولة بالنسبة لجميع ولاياتها اذ تصدر التوجيهات السنوية بالمناصب أو مدها فى هذا الشهر من كل عام[٦] .

---

(١) هاملتون جب ، هارولد بوون ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص١١ ، جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٣٧ .

(٢) Starford Shaw, The Fianancial and Administrative Organization and development of ottoman Egypt, P. 316 .

(٣) عبد الرحمن الجبرتى، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص٥٢ ، ليلى عبد اللطيف الادارة فى مصر ، ١٧١.

(٤) محمد بن ابى السرور البكرى ، المرجع السابق ، ص١٣٩ ، ليلى عبد اللطيف ، أحمد، الادارة فى مصر ، ص٧١ .

(٥) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٧١ .

(٦) أحمد عزت عبد الكريم ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص١١٢ .

وقد اختلفت مدة حكم الباشوات فى مصر ففى الفترة الأولى من العهد العثمانى الممتدة من بدايته إلى أواخر القرن السادس عشر ، استمر الباشاوات فى شغل مناصبهم لفترات طويلة وكانوا لاينقلون منها الا اذا رقوا لمناصب أعلى أو اضطروا إلى الاستغناء بسبب كبير السن ومن أطول الولاة العثمانيين عهدا فى مصر داوود باشا الخادم ، الذى ظل واليا على مصر من (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨-١٥٤٩م) حتى وفاته بها وهو فى منصبه الذى شغله لمدة أحد عشر عـــامـــا [١] وسليمان باشا الخادم الذى تولى حكم مصر وادارتها لمدة عشر سنوات من (٩٣١-٩٤١هـ/١٥٢٥-١٥٣٥م) ثم عاد إلى باشوية مصر وشغلها لمدة عام وخمسة أشهر من ٩٤٢-٩٤٣هـ /١٥٣٥-١٥٣٦م) ومـــسيح باشـا اسـتـمـر بحكم مـصـر من ٩٨٢-٩٨٨هـ/١٥٧٤-١٥٨٠م) أى لمدة خمسة أعوام وأويس باشا ، تولى باشوية مصر من ٩٩٤-٩٩٩هـ/١٥٨٥-١٥٩٠م) حيث توفى بها بعد حكم دام خمس سنوات وخمسة أشهر[٢] .

وقد لوحظ فى هذه الفترة طول عهد الولاة اذا ماقورن بالفترة التالية ، ويمكن تفسير تلك الظاهرة بالهدؤ النسبى الذى وجد فى مصر حينذاك حيث لم يتعرض الباشاوات بصفة عامة إلى معارضة قوية وذلك للقضاء على العناصر المتمردة التى شاركت فى ثورة أحمد باشا الخائن وثورة إينال وجانم السيفى [٣]. وقد كان للنفوذ الذى حصل عليه باشاوات الفترة الأولى لخدماتهم التى أدوها للدولة - أثركبير فى احتفاظهم بمناصبهم فترة طويلة ، فسليمان باشا الخادم الذى تولى حكم مصر مرتين ، كما سبق الإشارة كان قد أدى أجل الخدمات للدولة بقيادة حملاتها فى اليمن وفى المحيط الهندى ، وسنان باشا الذى تولى باشوية مصر من (٩٧٥-٩٧٦هـ/ ١٥٦٧-١٥٦٨م)ثم عاد إلى حكم مصر ثانية من (٩٧٩-٩٨١هـ/ ١٥٧١-١٥٧٣م) منح الحكم فى المرة الثانية مكافأة له على حملاته فى اليمن[٤] .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص٧٢ .

(٢) نفسه ، ص٧٢ .

(٣) نفسه ، ص٧٣ .

(٤) نفسه ، ص ٧٤ .

ويضاف إلى الأسباب السابقة التى أدت إلى طول عهد ولاة الفترة الأولى الفرصة لهم لاقامة المنشآت الهامة التى كان منها ماهو للنفع العام وماهو للنفع الخاص[١] .

وقد تميزت الفترة الثانية من فترات الحكم العثمانى فى مصر ، والممتدة من أواخر القرن السادس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر - بقصر عهد الباشاوات ولم يدم حكم أطولهم مدة عن خمسة أعوام بدءاً بالوزير ابراهيم باشا حاجى لم يدم حكمه الا ثلاثة أشهر وعدة أيام ، اذ تولى من ١٤ ذى الحجة ١٠١٢هـ/ ١٥ مايو ١٦٠٣م وقتله الجند فى آخر ربيع الثانى (١٠١٣هـ/٢٧ أغسطس عام ١٦٠٤م) [٢] وجعفر باشا لم يدم حكمه الا حوالى خمسة أشهر ، اذ توفى فى ٩ ربيع أول ١٠٢٨هـ/ ٢٥ فبراير ١٦١٨م) وعزل فى ١٤ شعبان من السنة نفسها (فى ٢٨ يوليو ١٦١٨م) وموسى باشا تولى حكم مصر فى (٣ جمادى الأولى ١٠٤٠هـ/٩ ديسمبر ١٦٣٠م وعزل فى (ذى الحجة ١٠٤٠هـ/يوليو ١٦٣٠م ، بعد حكم ثمانية أشهر تقريبا[٣] .

ويمكن تفسير قصر عهد ولاة الفترة الثانية بكثرة الاضطرابات التى حدثت فى مصر فى هذه الفترة ، وتمثلت فى ثورات الجند ومنازعات ومطامع الأمراء المماليك وسعيهم للسيطرة على ادارة مصر وقد أدى ذلك إلى كثرة عزل الباشاوات بالإضافة للأسباب الاقتصادية والتى بدأت فى انتشار الغلاء الذى كان يقع كثيرا اما لسوء الأحوال الطبيعية أو لانخفاض قيمة النقد ، ذلك الأمر الذى كان مرتبطا باقتصاد الدولة العثمانية نفسها ، كما أن تكرر حدوث الطواعين والأوبئة أدى إلى تعطيل الطاقات البشرية . لكثرة الوفيات - وبالتالى إلى عدم استقرار الحالة الاقتصادية ، الأمر الذى كان يثير شكاوى الأهالى فتقوم الدولة بعزل الباشاوات المسئولين عن ذلك[٤] .

---

(١) محمد بن ابى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص ١٩٩ .

(٢) نفسه ، ص٢٢٥ .

(٣) نفسه ، ص ٢٣٩ ، يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب ، ص١٧٧ ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٧٤ .

(٤) أحمد كتخدا عزبان ، المرجع السابق ، ص٣٨ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ٧٥ .

وكان تجديد مدة حكم الباشا يتم بارسال خط شريف (عرف بتقرير السنة الجديدة) من السلطان إلى الباشا فى مصر ويحمل هذا الأمر رسول خاص قد يكون أحد الأغوات أو قابيجى باشا[١] أو أمير آخور[٢] .

أما اختصاصات الباشا ، فقد لخص قانون نامه مصر اختصاصات الباشا فى الفقرة التالية (تفقد أحوال الرعايا وأحوال الأموال السلطانية وحفظ وحراسة المملكة ورعايا الأمن[٣]) . وتشير عبارة تفقد أحوال الرعايا إلى الاختصاصات المدنية والادارية للباشا ، كما تعني العبارة التالية وهى تفقد أحوال الأموال السلطانية والاختصاصات المالية للباشا أما العبارة التالية وهى حفظ وحراسة المملكة ورعاية الأمن ، فتعنى الإختصاصات العسكرية للباشا وسلطته فى حفظ الأمن وفى الشئون الجنائية ، وسيتم التعرض إلى هذه الاختصاصات فيما يلى :

من حيث الاختصاصات الإدارية والمدنية للباشا ، فقد كان له حق الاشراف على جميع الشئون الإدارية فى مصر عن طريق رئاسته لجلسات الديوان العالى أهم مجلس ادارى فى الولاية ، وقد كان من أهم أعمال الباشا كما جاء فى قانون نامه ، أن يقيم الديوان أربعة أيام فى الأسبوع ، لايفوته منها من غير مانع شرعى [٤] .

وقد استمر الباشاوات فى مصر طوال العهد العثمانى يعقدون الديوان ويرأسون اجتماعته بأنفسهم فيما عدا بعض الجلسات ذات الطابع الخاص والتى كان يرأسها نيابة عن الباشا كتخداه أو قاضى العسكر ، وعرف الديوان باسم الديوان العالى ويحضره قادة الأوجاقات

---

(١) القابيجى باشى : رئيس فرقة القابيجية وهم حرس بوابات القصر السلطانى ، وقد أقتصرت دخول هذه الفرقة على أبناء البكوات والباشاوات وبعض الأعيان الآخرين وقد كان للقابيجية مهمة أخرى فقد كانوا يوظفون فى المحل الأول بصفتهم تشريفاتية فى حفلات الاستقبال التى تجرى بالقصر والبعثات ذات الأهمية الخاصة والسرية بوجه خاص ، مما كان يوفد إلى الولايات . وقد بلغ عدد القابيجية ١٥٠شخصا فى القرن الثامن عشر ، وكان اثنا عشر منهم يصاحبون السلطان فى ذهابه إلى المسجد يوم الجمعة . (أنظر ، ليلى عبداللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٧٥) .

(٢) ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر ، ص٨٥ .

(٣) قانون نامة مصر ، المرجع السابق ، ص٧٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص٧٣ .

والبكوات وكبار العلماء [١] وكان هناك ديوان اخر عرف بالديوان الصغير أو ديوان الباشا وينعقد يوميا فى قصره بحضوره مع الدفتردار والروزنامجى وكتاب الخزينة لتصريف الشئون الادارية العادية[٢] . وكان على الباشا أن يتلقى وينفذ أوامر السلطان لإدارة مصر ، وهو المسئول عن تطبيق قواعد الحكم العثمانى فيها [٣] .

ومن أهم اختصاصات الباشا المدنية المحافظة على النظام العام ، وكثيرا ما كان الباشاوات يتدخلون لحل الصعوبات التى تهدد أو تنذر باضطراب ذلك النظام كما حدث أثناء احدى أزمات ارتفاع الأسعار ، فقد أرتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعا كبيرا فى عام ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م، مما إلى سخط المجتمع فقد وصل سعر أردب القمح إلى مائة وثمانيين نصف فأمر عبد الرحمن باشا - حاكم مصر حينذاك أن يباع الأردب بمائة وثلاثين نصفا فقط[٤] فى عام ١١٠٧هـ/١٦٩٥م ، نزلت بالبلاد مجاعة شديدة فى عهد اسماعيل باشا (فلما رأى الباشا ما فيه الناس من الكرب والغلاء أمر بجمع الفقراء والشحاذين بقراميدان ، فلما اجتمعوا أمر بتوزيعهم على الأمراء والاعيان على كل قدر حاله وقدرته وأخذ لنفسه جانب ولأعيان دولته جانبا وعين لهم مايكفيهم من الخبز والطعام صباحا ومساء إلى أن انقضى الغلاء[٥] .

والأمثلة على حدوث هذا التدخل من الباشاوات للمحافظة على النظام العام كثيرة ومتعددة طوال العهد العثمانى فى مصر .

ومن أهم اختصاصات الباشا المدنية ، المحافظة على نظافة العاصمة فقد كان يأمر (بقطع السفايف والدكاكين لتوسيع الطرق والأسواق) ويهتم بتمهيد الأرض كما فعل قرة محمد باشا (١١١١هـ/١٦٩٩م [٦] كما أصدر محمد باشا فى عام (١٠١٦هـ/١٦٩٩م) أوامره إلى

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٧٧ ، جلال يحيى ، المرجع السابق ،ص١٣٨ .

(٢) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٣٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٧٧ .

(٥) عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص٣٠ .

(٦) محمد بن ابى السرور البكرى ، النزهة الزهية، ص١٨١ .

الأهالي بقطع ذراع في عمق الأرض تجاه بيوتهم ودكاكينهم [1] وذلك فى كل شوارع القاهرة حيث تراكم الأتربة والقاذورات قد أدى إلى تشويه منظر العاصمة[2] وفى عام ١٠٦٣هـ/١٦٥٢م) أمر محمد باشا نظار المساجد في القاهرة بتبيضها مما جعل الناس يطلقون عليه لقب (أبى النور محمد[3] كما أمر مقصود باشا (١٠٥٢هـ/١٦٤٢م) بحفر الخليج الحاكمى والخليج الناصرى اللذين تهددهما تراكم الطمى[4] وأرتبط اسم حسين باشا (١٠٨٥هـ/١٦٧٤م) بترميم العيون التى تهدمت من الكوبرى القريب من الجيزة[5] ولم يفتر حماس الباشاوات فى مجال التنظيم ورعاية نظافة القاهرة الا فى أواخر القرن الثامن عشر[6].

ولقد اهتم الباشاوات برعاية المبادى الخلقية في ذلك العصر من ذلك ما كان من قيام محمد باشا البدكشى (١١٥٦هـ/١٧٤٣م) بابطال تدخين الدخان من مصر والتشديد فى منع ذلك من الشوارع والمحلات التجارية وأبواب البيوت[7] وقد اشتهر بعض الولاة بابطال المنكرات من مصر مثل عبد الله باشا الكبورلى (١١٤٢هـ/١٧٢٩م) الذى وصل به الأمر الى التنازل للوالى (الزعيم) عن جزء من ايراداته نظير ذلك[8] فقد أمر هذا الباشا بابطال المنكرات والخمامير ومواقف الخواطئ والبوظ من بولاق وباب اللوق وطولون ومصر القديمة ، وجعل للوالى والمقدمين عوضا عن ذلك فى كل شهر كيسا من كشوفيات الباشاوات وكتب ذلك حجة شرعية[9] .

---

(١) يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب ، ص١٩٦ .

(٢) نفسه ، ص١٨٩ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص٧٨ .

(٣) نفسه ، ص١٨٩ ، نفسه ، ص٧٨ .

(٤) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، ص١٨٩ .

(٥) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٧٨ .

(٦) نفسه ، ص٧٨ .

(٧) عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص١٥١ .

(٨) مصطفى بن الحاج ابراهيم ، تاريخ وقائع مصر ، تحقيق صلاح هريدى ، ص٣٦٤ .

(٩) عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، ص١٤٤ . جـ١ .

ومن الاختصاصات المدنية والادارية الأخرى للباشا ، اقامة الاحتفالات عند علمه بانتصار الجيوش العثمانية[١] ورئاسة الاحتفالات العامة مثل الاحتفالات بوفاء النيل ، وله فرحة كبيرة عند الجميع ، فهو دلالة على الرخاء بالنسبة للفلاح ، ودلالة على جميع الأموال بالنسبة للحاكمين[٢] .

وكان يشارك فى صلاة الاستسقاء لنزول المطر فى سنوات الجفاف وانخفاض النيل[٣].

ومن الاحتفالات العامة ذات الأهمية والتى كان الباشا يرأسها أيضًا الاحتفال بالعيدين[٤] ويرأس حفل خروج المحمل والكسوة فى طريقها إلى الحجاز[٥] .

أما الاختصاصات المالية للباشا ، فقد اعتبر الباشا المسؤول الأول عن تنظيم مالية مصر[٦] يساعده فى تلك المهمة الدفتردار والروزنامجى والادارة المالية التابعة لهما ،وكان على الباشا أن يضمن للدوله حسن استغلال مصادر الثروة فى مصر حتى يمكنه الوفاء بمصروفات الولاية وقد اعتبرت ولاية مصر مقاطعة يأخذها الباشا من الدولة لادارتها مقابل ايرادته منها ، ومما يؤيد ذلك ماذكر عن الوزير على باشا الحكيم الذى عقد أول جلسة للديوان (عام ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م) فى قرا ميدان بحضور مجموعة كبيرة من الأمراء وأرباب المناصب ، حيث قال لهم بعد تلاوة مرسوم ولايته على مصر أتيت لأعطى كل ذى حق حقه وحضرة السلطان أعطانى المقاطعات وأنا أنعمت بها عليكم فلاتتعبونى فى خلاص المال والغلال وأخذ عليهم حجة بذلك[٧] . وكان الباشا هو المسئول عن ادراة خزينة مصر وموازنة ايراداتها ومصروفاتها لذا كان ينص فى دفاتر الخزينة على أنها دربهاء الباشا أى فى عهدته[٨] .

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٣٧ .

(٢) نفسه ، ص١٣٨ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٣٨ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٧٩ .

(٥) جلال يحيى ، مصرالحديثة ، ص١٣٩ .

(٦) نفسه ، ص١٣٩ .

(٧) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٧٩ .

(٨) نفسه ، ص٨٠ .

ومن أهم واجبات الباشا المالية ارسال الخزينة الارسالية . وكان ارسال هذه الخزينة إلى استانبول يمثل أحد الواجبات الرئيسية للباشا وهناك بعض التلميحات فى كتابات القناصل أو المؤرخين عن ارسال هذه الخزينة إلى السلطان . ولم يشك الرحالة فرانسوا دى با فى عام ٩٣٣هـ/١٥٨٥م فى مسألة انتظام دفع مصر لهذه الجزية ، وحددها بنفس المبلغ الذى كان يصل إلى ٦٠٠٬٠٠٠ قرش أى ما يعادل ٢٬٤٠٠٬٠٠٠ جنيه فرنسى وذكر أنها كانت ترسل إلى استانبول بريا فى حراسة مشددة . وكان القناصل يذكرون من وقت إلى آخر أن الباشا كان يؤجل بعض العمليات نتيجة لانشغاله بارسال الخزنة إلى استانبول . وكانت هذه العملية تتم فى احتفال خاص ، يشارك فيه عدد من كبار الموظفين . ولذلك فان الخزينة الارسالية كانت تتم بطريقة منتظمة حتى منتصف القرن الثامن عشر ، ولكنها وصلت بشكل منقطع فى أثناء النصف الثانى من هذا القرن فانقطعت فى عام ١١٧٣هـ/١٧٥٩م وهى السنة التى سيطر فيها على بك الكبير على مصر ، وكان يطمع فى الاستقلال ورفض ارسال الخزينة الارسالية. أما محمد بك أبو الذهب ، الذى كان على علاقات أحسن مع السلطان ، فإنه سمح للوالى بعد أن أصبح شيخا للبلد ، بالقيام بواجبه من جديد ، فأرسلت الخزينة الارسالية فى عام ١١٨١هـ / ١٧٧٤م إلى استانبول ، وشكر السلطان أبا الذهب على ذلك ، وحينما ترك حسن باشا قبودان البحرية العثمانية مصر ، بعد حملته اليها فى عام ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م أوصى وكيله الذى سيصبح اسماعيل باشا فيما بعد بضرورة اعادة أمر ارسال الخزينة الارسالية بشكل منتظم . وحينما عاد ابراهيم بك ومراد بك إلى القاهرة فى عام ١٢٠٦هـ/١٧٩١م بعد أن كان القبودان باشا قد طردهما منها ، انقطع وصول الخزنة إلى استانبول . وفى أثناء العقد الأخير من هذا القرن كان من المؤلم على نفوس رجال الباب العالى أن يروا انقطاع وصول الخزينة من القاهرة[1] .

وكان باشا مصر يرسل كذلك إلى استانبول ضريبة عينية تشتمل على مواد غذائية ، وعلى كميات من الحلوى لسيدات القصر ، وكانت تصل فى قافلة بحرية تضم عدداً من السفن ، مزودة بالمدفعية ، وكانت تشتمل على الأرز والسكر والتمر والزعفران والفلفل والمسك والسنامكى والصمغ ، هذا علاوة على البخور والحناء ، وكان ذلك يمثل أعباءا بالنسبة للباشا

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٤٤ .

في القاهرة[١] والباشا هو المسئول عن ادارة شتى شئون مالية مصر فى الحدود التى ترسمها له الدولة وفى حدود التعليمات التى كانت تصله باستمرار من الباب العالى[٢] .

ولابد من الحصول على موافقة الباشا على أى عملية نقل حق الالتزام (سواء فى الأرض أو الجمارك) من شخص إلى آخر فقد (أذن له السلطان بالختم والعلامة على جميع التمكينات[٣] التى يقع فيها التغيير بالبيع والشراء[٤] .

والباشا هو المختص بتعيين كل موظفى الادارة في مصر ، وعند موافقته على تعيين أى موظف يصدر له بيورلدى[٥] بذلك وقد طبق هذا النظام بالنسبة لجميع موظفى الادارة فيما عدا منصب الدفتردار وأمير الحج فقد كان الباشا هو الذى يرشح بعض الأمراء لشغل هذين المنصبين الهامين ويرسل أسماء المرشحين إلى أستانبول ، وغالبا ما كانت الدولة تؤيد رأى الباشا وترسل خطا شريفا سلطانيا بالموافقة على تعيين من رشحها الباشا[٦] كما اختص الباشا بمنح رتبة الصنجقية لأمراء مصر أو عزلهم منها[٧] .

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٤٦ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٨٠ .

(٣) التمكينات : من أهم اصطلاحات العصر العثمانى ويعنى التمكين منح الحق فى الانتفاع بأرض أو جمرك أو وظيفة ، وقد عرفت تمكينات الأرض والجمارك التى كانت تصدرها الروزنامة بعد اعتماد الباشا لها وتوقيع الدفتردار عليها باسم التقاسيط وبهذه التقاسيط كان الملتزم يثبت حقه فى حصة الالتزام الزراعى أو جهة الجمرك المعينة له وبتمكين الوظيفة يثبت الموظف حقه فى وظيفه . (أنظر ، محمد شفيق غربال ، مصر عند مفرق الطرق ، ص١١ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٨١) .

(٤) نفسه ، ص ٨١ .

(٥) بيورلدى : كلمة تركية تعنى أمرا عاليا صادرا من الباشا ومحل بالطغراء أو الخاتم (انظر ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٤٤٢) .

(٦) أحمد كتخدا عزبان الدمرداشى ، المرجع السابق ، ٢١٢ ، عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص٥٠ .

(٧) عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص٣٦ .

ومن أهم الاختصاصات المالية للباشا قيامه بدفع مرتبات الموظفين من ساليانات[١] ومواجب وعلوفات[٢] وجرايات[٣] ويقدر مايكون الباشا سخيا فى منح العلوفات بقدر مايعلو شأنه ويوصف بالكرم ، فقورد باشا (١٠٠٣-١٠٠٤هـ/١٥٩٤-١٥٩٥م) ، كان كريما يعطى العلوفات لكل من سأله من الرجال والعلماء والفضلاء والأصاغر حتى النساء ، وكذلك فعل فى الجرايات مثل فعله فى العلوفات [٤] .

واذا ما حاول الباشا تخفيض علوفات الجند كان يتعرض لمهاجمتهم ومحاولتهم الاعتداء عليه ، فعندما حاول أويش باشا فى عام (٩٩٧هـ/١٥٨٨م) قطع علوفة ثلاثة أيام من سائر العسكر ، هاجمه الجند وتعدوا على قصره ونهبوا أمتعته وقتلوا بعض أتباعه ، ثم أخذوا ابن الباشا رهينه عندهم حتى يستجيب لمطالبهم وهاجموا الجوانيب ونهبوا المنازل ، فاضطر الباشا لارسال بيورلدى للقاضى حتى نفذ مطالبهم[٥] .

وبالنسبة لاختصاصات الباشا فى الشئون العسكرية وفى رعاية الأمن ، فهو الرئيس الأعلى للأوجاقات العسكرية وهو المسئول عن الدفاع عن البلاد ضد أى عدوان خارجى ، وعليه اعداد وتوجيه الحملات العسكرية اللازمة ، لحفظ الأمن فى الداخل من ثورات المتمردين والعربان وعلى الباشا واجب تجهيز الفرق المطلوبة للاشتراك فى حروب السلطان خارج مصر ، والتى كانت تذهب بقيادة أحد كبار الصناجق بناء على تكليف الباشا له بذلك[٦] .

---

(١) ساليانة : مرتب سنوى نقدى يصرف من الخزينة للباشا ولكبار الأمراء والصناجق وغيرهم من كبار الموظفين . (أنظر ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٤٤٨) .

(٢) علوفة : جمعها علوفات وهى مرتبات العسكر . (أنظر ليلى عبد اللطيف ، أحمد ، المرجع السابق ، ص٤٥٠) .

(٣) جراية وعليق ، جمعها جرايات وعلائق وتعنى المرتبات العينية من قمح وشعير والتى كانت تصرف من الخزينة للباشا وكبار موظفى الادارة ترد فى الوثائق بمعنى دفتر أو قائمة . (أنظر ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٤٤٤) .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٤٤٤ .

(٥) محمد بن أبى الرور البكرى ، كشف الكربة ، ص٣٠١ ، ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر ٨٢ .

(٦) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٨٢ .

وقد اهتم الباشاوات فى مصر برعاية الأمن عن طريق محاربة قطاع الطرق والقضاء على اللصوص ، وقد اشتهر منهم فى هذا المجال داوود باشا الخادم (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨م-١٥٤٩م) الذى تتبع المفسدين وقتل أعداد كبيرة منهم [١] وقد غالى بعض الباشاوات فى ذلك حتى وصفهم المؤرخون المعاصرون بأنهم كانوا سفاكين للدماء مثل على باشا السلحدار (١٠١٠-١٠١٢هـ/١٦٠١-١٦٠٣م) فقد أستأصل المفسدين وكان سفاكا للدماء[٢] ومسيح باشا الخادم (٩٨٢-٩٨٨هـ/١٥٧٤-١٥٨٠م) كان قتالا سفاكا للدماء يقال أنه قتل فى هذه المدة نحوا من عشرة آلاف نفس وغالبهم من أهل الفساد ، ولأن اللصوص كانت كثيرة فى زمن حسين باشا الذى سبقه فقطعها مسيح باشا المذكور[٣] .

وقد عبر المؤرخون المعاصرون عن اعجابهم باهتمام الباشاوات بشئون الأمن ونشر الرخاء بين الرعية فذكروا عن داوود باشا (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨-١٥٤٩) أن الرخاء فى زمنه موجود والجور والظلم فى دولته معقود والرعايا فى الرفاهية وتسهيل الأرزاق من غير مشقة[٤] .

وقد اشتهر بعض الباشاوات بالمغالاة فى استخدام هذه السلطة مثل محمود باشا (٩٧٣-٩٧٤هـ/١٥٦٥-١٥٦٦م) والذى عرف عنه أنه بمجرد وصوله إلى القلعة ، قدم اليه أمير الصعيد الأمير محمد بن عمر الهوارى بسفينة كبيرة مشحونة بأنواع الهدايا والتحف قدرت بخمسين ألف دينار ، ولكن كان رده على ذلك بمصادرة أمواله وممتلكاته[٥] . وقد اشتهر هذا الباشا بالظلم حتى على الموظفين وكان لايتورع بالقتل والمصادرة ، وقد كانت نهاية هذا الباشا بالقتل على يد مجهول ، بتحريض بعض الأمراء المماليك[٦] وهناك الأمثلة العديدة على ذلك .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الاشارات ، ص ١٢٧ .

(٢) محمد بن أبى الرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص ١٥٧ ، أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٣٦ .

(٣) محمد بن ابى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص١٥٧ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة ص٨٢.

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٨٢ .

(٥) يوسف الملوانى ، تحفة الاحباب ، ص١٣٦ .

(٦) نفسه ، ص١٣٦ .

وبالنسبة لأوامر الباشا الادارية ، فقد عرفت أوامره الادارية باسم البيورلدى ، وهى كلمة تركية تعنى أمرا عاليا ، ويصدر البيورلدى دائما باللغة التركية ويحلى بالطغراء أو الخاتم الباشوى ويشار إليه باسم بيورلدى شريف حضرة وزير أى الأمر الشريف الصادر من الباشا الذى كان يصدر أوامره لسائر الشئون الادارية فى مصر[١] .

وفى القرن الثامن عشر عندما سرى التدهور الى النظم الادارية فى مصر ، كان يشار إلى أوامر الباشا بلفظ فرمانات[٢] وقد حدث ذلك من قبيل التجاوز اذ المسلم به أن الفرمان لايصدر الا عن السلطان فهو أمر سلطان وليس أمرا باشا[٣] .

أما موارد الباشا ومصروفاته ، فقد كان له ايرادات من موارد دخل متعددة كرسوم بعض الجمارك وقرى الكشوفية وضريبة كشوف أرباب المناصب والمرتب أو الساليانة التى تصرفها له الخزينة[٤] وايرادات من قرى الحلوان[٥] .

وبالنسبة لعزل الباشا ومحاسبته ، فقد وجدت أسباب متعددة لعزل الباشا من ولاية مصر منها [٦] :

١- اعتلاء سلطان جديد عرش السلطنة .

٢- سوء تصرفات الباشا .

٣- النقل للعمل فى ولاية أخرى .

٤- النقل لمنصب الصدار العظمى أو غيرها من المناصب العليا فى السلطنة .

٥- فساد الإدارة المركزية .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٨٤ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ٨٤ .

(٣) نفسه ، ص٨٥ .

(٤) نفسه ص٨٦-٩٨ .

(٥) نفسه ، ص٩٨ .

(٦) نفسه ٩٨-١٠٧ .

٦- مؤامرة الادارة المركزية .

٧- مؤامرات الحامية وأمراء المماليك .

وبعد صدور الأمر بعزل الباشا لم يكن يسمح له بمغادرة مصر قبل محاسبته على يد الباشا الجديد عن خزينة البلاد وايراداتها ومصروفاتها ، وإذا حاول الباشا مغادرة مصر قبل وصول خلفه ، وقبل القيام بعملية محاسبته كان الأمراء المماليك يمنعونه من السفر بالقوة ، فحين عزل مصطفى باشا في عام ١٠٣٥هـ/١٦٢٥م حاول السفر قبل وصول الباشا الجديد ولكن منعه الصناجق من السفر حتى يحضر بيرام باشا لمحاسبته ، وفعلا لما حضر وجد أن الخزينة تحتاج إلى عشرين كيسا فالزمه بدفعها وتم ذلك[1] وهناك الكثير على ذلك .

وعلينا أن نذكر أن معاوني الباشا فهو القائم مقام والكتخدا ، والخازندار والتورجمان ، وسر متفرقة وسر كيلار الوزير وسنجقدار ، كاتب الديوان وديوان أفندى ، مقابلة حضرة وزير ، ومهردار ختم ، ميرخو ، سرطباخين ، والجاشنكير وسر منادين ، وسر جاوشان ، وكيل خرج، رئيس الديوان[2] .

ديوان الباشا :

قبل صدور قانون نامه ، كان باشا مصر يرأس مجلسا اداريا مكونا من رؤساء الحامية ومن الكتخداء والدفتردار وأمير الحج الذين يعاونون في ادارة البلاد كما يحولون دون اساءة استعمال لسلطته . وقانون نامه قد حول ذلك المجلس الادارى إلى ديوان على غرار ديوان استانبول . وهذا الديوان تسميه وثائق القاهرة (ديوان محروسة مصر) و(ديوان حضرت ولى النعم والى مصر) ويرأس الباشا أو الكتخدا اجتماعاته . وفى بعض الأحيان كان الباشا يتابع جلساته من وراء الستار كما كان يحدث فى استانبول . ويضم الديوان خلاصة العناصر التى تشترك فى ادارة مصر ، فيحضره طائفة من الموظفين مثل الدفتردار والمهردار ، حامل الاختام، والدويدار ، حامل الدواة ، وأكثر من فرمانجى لتحرير الفرمانات مع جماعة من الكتاب والتراجمة . وكذلك يحضره قاضى عسكر أفندى أى قاضى القضاة والمفتون على المذاهب

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ١٢٥-١٢٦ .

(٢) نفسه ، ص١٢٧ .

الأربعة ، وكبار رجال الدين والأمراء الصناجقة وأغاوات واختيارية الأوجاقات السبع ، وعضوية هؤلاء الأشخاص ثابتة وتابعة لوظائفهم ، لذا كان لابد من حضورهم جلسات ارسال الخزينة الارسالية ، واعلان وفاء النيل ، واستلام أمير الحج لأموال الحرمين الشريفين ومحاسبة الباشا وغير ذلك[١] وكان الباشا يتلقى مباشرة فرمانات السلطان التى يخاطبه فيها عن ادارة مصر ، وكذلك يخاطب دفتردار وقاضى عسكره وأمراء مصر من البكوات المماليك ورجال الحامية ، فيعملون جميعا على تنفيذ أوامر السلطان . والباشا يدعو الديوان إلى الإجتماع أربع مرات فى الاسبوع ، وتلخص اختصاصاته فى ادارة شئون الولاية مثل الاجراءات المالية وأعمال الخزينة ، وضرائب الأرض وبحث القضايا الهامة والباشا لم يكن يستطيع أن يقطع فى شئون الادارة الا بعد الاستفتاء بآراء ممثلى الأمراء المماليك ورجال الأوجاقات كل فيما يخصه. وكانت تعرض أوراق الديوان المختلفة على الباشا فيصدر عليها أوامره التى تعرف باسم "بيورلدى" أى تفضل وتوقع بخاتم الباشا . وكذلك كان يصدر الباشا وفى أغلب الأحوال بناء على رأى الديوان . فرمانات باشوية باعتباره ممثل السلطان العثمانى ، وتفتتح عادة بهذا التعبير (صدور هذا الفرمان الشريف الواجب القبول والتشريف عن ديوان مصر المحروسة) وكانت تسجل فرمانات الباشا فى القلم المختص بها[٢] .

وكذلك وجد فى مصر الديوان الصغير ، وكان يجتمع فى كل الأيام فى قصر الباشا ، ويحضره الكتخدا والدفتردار والروزنامجى وبعض رجال الأوجاقات السبعة ، وكان ينظر فى المسائل الادارية ويشرف على تطبيق قواعد الادارة العثمانية فى مصر[٣] .

هيئة المماليك ، الصناجق والكشاف :

بعد أن أتم السلطان سليم فتح مصرلم يعمل على القضاء على المماليك - كما رأينا - مكتفيا بما نالهم من الهزيمة . وأول والى على مصر العثمانية كان خاير بك وهو من المماليك . فلماذا اتبع السلطان سليم هذه السياسة أولا لأن المحافظة والابقاء على أمراء

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥١ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ، ص ٢٥٢ .

المماليك كان متمشيا مع سياسة الدولة العثمانية فى حكم الشعوب التى خضعت لها ، فالدولة العثمانية لم تكن تغير كثيرا فى نظم البلاد المفتوحة ، وامراء المماليك كانوا أدرى بعادات البلاد وحكمها. ومن ناحية أخرى فانه لم يكن من المستطاع القضاء نهائيا على قوة المماليك الحربية ، فلم يكن هناك بد من استخدام المماليك فى حكم مصر وفى الدفاع عنها . ومن ناحية ثالثة رأى السلطان سليم ومن بعده السلطان سليمان أن يدع المماليك يشتركون فى حكم البلاد وفى الدفاع عنها لكى يكونوا عنصرا موازنة ازاء الباشا ورجال الأوجاقات العثمانية(١) .

وكان الصناجق من أمراء المماليك المصريين عنصرا هاما فى حكم وادارة البلاد .ويعرف زعيمهم بشيخ البلد ومقره القاهرة ، وهو ثانى شخصية فى مصر بعد الباشا ، وكان يوازن سلطته وأحيانا يحل محل الباشا المخلوع حتى يأتى الباشا الجديد . وكان الباشا يعهد إلى بعض الصناجق البكوات بمهمة توطيد الأمن وحماية القاهرة من اعتداء العربان ويطلق عليهم لقب وال . وكان الصناجق يقومون أيضا ببعض السفارات الخاصة ، ويحمل أحدهم خزينة مصر إلى استانبول ، وكان يعهد اليهم أيضا بقيادة بعض فرق الأوجاقات العثمانية فى مصر ، أو بقيادة الفرقة المصرية العثمانية الذاهبة للاشتراك فى حروب السلطان أو بوظيفة الدفتردار أو أمير الحج(٢) .

الحامية العثمانية والأوجاقات السبعة :

الحامية العثمانية هيئة حربية مهمتها الدفاع عن مصر والاشتراك فى حروب السلطان . وكذلك لها اختصاصات أخرى غير حربية ، فهى تساعد الباشا والصناجق فى توطيد الحكم العثمانى فى مصر ، وفى الوقت نفسه تراقب الباشا والصناجق وتوازن سلطتهم . وكان أغوات الحامية يحضرون اجتماعات ديوان القاهرة ، وهم كهيئة رسمية لهم كلمة مسموعة فى ادارة البلاد ، ويتضح ذلك فيما كانوا يقدمونه من المطالب إلى الباشا اذا ما أحسوا

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥٣ .

(٢) نفسه ، ص٢٥٤ .

منه خروجا على العرف القديم ، وكلما فكروا فى استحداث قاعدة جديدة يعدلون به نصوص قانون نامه . وكذلك كان رجال الحامية العثمانية يشتركون فى صيانة الأمن فى القاهرة ويساهمون فى حكم الأقاليم وفى جمع الأموال الأميرية[١] .

وكان رجال الفرق السبع اما مشاة (بيادة) أو فرسان (أسباهية) ولكل أوجاق أغا أى رئيس وكتخداه . وقد اشتملت الحامية العسكرية منذ بداية العهد العثمانى على عنصرى العثمانيين والمماليك ثم دخلها أخلاط من الشوام والمغاربة وبالتدريج أخذ عنصر المماليك فى الحامية يقوى على حساب العنصر العثمانى حتى طغى عليه فى أواخر العهد العثمانى بمصر[٢] وكان عدد الحامية يتراوح بين ١٣ ألفا و١٥ ألفا وكانت طبقا لقانون نامه مصر منذ صدوره عام ٩٣١هـ/١٥٢٥م قواعد الجهاز العسكرى فى ولاية مصر ، حيث حددت مهام كل جماعة (طائفة أو أوجاق) على حده منعا لحدوث الاحتكاك والتنافس بين الجماعات كما كان يحدث قبل ذلك وأشار القانون أيضا إلى عدد كل جماعة وعلوفات العسكر على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم ، وفضلا عن ذلك وضع الضمانات الضرورية للاحتفاظ ، بالصبغة العسكرية لرجال الأوجاقات تفاديا لوقع الاختلال والتفكك بين صفوفها فى سبيل ذلك أعطى الأغاوات والباشا الحاكم عدة سلطات لمعاقبة الخارجين على القانون ، وندرس فيما يلى تلك النواحى بالتفصيل :

أ- جماعات السباهية (الفرسان) :

١- جماعة كوكليان : وقد وصفهم القانون بأنهم من الفرسان الذين يركبون الخيول ويتقنون استخدام الرماح فى حذق ومهارة ، فهم يجيدون اطلاقها يمينا ويسارا . وتنحصر مهمة أفرادها فى الأقاليم (الكشوفيات والصنجقية) فى خدمة الكشاف (حكام الاقاليم) وهم يخضعون لقادتهم وكبرائهم وينفذون أوامرهم ، ويقوم أفرادها بحفظ الأمن وحراسة البلاد

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص١٧٧ .

(٢) نفسه ، ص١٧٧ .

والتصدى لاعتداءات العربان على الأراضى الزراعية وعليهم الامتثال لأوامر الكاشف ونواهيه[١] .

وكان للأسباهية حاميات خاصة فى اقليم جرجا وابريم ، أى على حدود مصر الجنوبية عرفت فى الوثائق باسم جماعة كوكليان محافظين جرجا وابريم وكذلك جماعة التفنكجيان[٢] .

وكانت السباهية مصدر إزعاج دائم للفلاح المصرى ، الذى كانوا يرهقونه دائما بطلباتهم الكثيرة وظلمهم ، مما أدى إلى حصولهم على الامتيازات الكثيرة واستغل البعض ذلك ، أمثال الهوارة الذين امتنعوا عن دفع الضرائب بحجة انتمائهم إلى هذه الأوجاقات العسكرية ، وظهر ذلك واضحا فى عام ١١٠٩هـ/١٦٩٨م ، ولولا اعلان تنكر هذه الأوجاقات لهم لما دفعوا أموال الميرى والغلال اللازم لحاكم جرجا عبد الرحمن بك فى ذلك الوقت[٣] .

وازداد نفوذهم وقوتهم ، حتى أنهم تدخلوا فى عزل حاكم جرجا فى عام ١١٢٠هـ/١٧٠٨م محمد بك لأنه أنزل عربان المغاربة وأمنهم ، وتعللوا بأن القيام بمثل هذا العمل من جانب حاكم الولاية سيؤدى إلى الفساد ، وانتهى الأمر برضوخ الباشا فى القاهرة لاجابة مطالبهم وعزل الحاكم وعين بدلا منه محمد بك قطامش[٤] .

ولم تقف قوتهم عند هذا الحد ، بل وصل تحديهم لسلطات القاهرة ، وأعلنوا استقلالهم بمصر وقتلوا واليها ابراهيم باشا عام ١٠١٣هـ/١٦٠٤م ووصلت البلاد الى حالة من الفوضى حتى اضطر السلطان العثمانى أحمد الأول (١٠٠١هـ/١٦٠٣م - ١٠٢٦هـ/١٦١٧م) إلى ارسال محمد باشا (١٠١٦هـ/١٦٠٧م - ١٠٢٠هـ/١٦١١م) المعروف بقول قران وقضى على نفوذهم تماما ، وعلى النفوذ السياسى والعسكرى للمماليك مؤقتا ، وعرف عنه أنه أبطل الطلبة التى فرضوها على الفلاحين ، ونفى زعماءهم الثلاثة عشر إلى ابريم ،

---

(١) عراقى يوسف محمد ، الوجود العثمانى فى مصر ، فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص٧٤ .

(٢) ليلى عبد اللطيف احمد ، الادارة فى مصر ، ص ٢٢٤ .

(٣) يوسف الملوانى ، المصدر السابق ، ص٣٣٧ .

(٤) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٦١ .

وقضى على قوتهم تماما عام ١٠١٧هـ/١٦٠٨م[١]. وعرف ذلك بالفتح العثمانى الثانى ، ومما يجدر الاشارة اليه أن عربان هوارة قد اشتركوا فى القضاء على نفوذهم[٢] .

٢- جماعة تفنكجيان سوارى : ويقوم رجال هذه الجماعة مع زملائهم من الكوميلية بحراسة الأقاليم وحفظ الأمن بها وحمايتها من أغارات البدو كما يتعهدوا بحراسة الجسور للعناية بنظام الرى وحسن توزيع المياه على الأراضى الزراعية[٣] ومساعدة الملتزمين فى تحصيل الأموال من الفلاحين[٤]

٣- جماعة الجراكسة : وأفراد الطائفة من المماليك الجراكسة الذين دخلوا فى خدمة الدولة، واستظلوا بالسيادة العثمانية بعد أن سمح السلطان لهم بذلك ، وهم من الفرسان الذين اشتهروا بركوب الخيل واتقان فنون الفروسية ويعملون على تنفيذ وأداء الخدمات السلطانية ومسرح نشاطهم فى الاقاليم أيضا[٥] .

ب- أوجاق مستحفظان :

وهؤلاء هم الانكشارية ، وكانوا أقوى الأوجاقات وأكثرها عددا ، عرفوا بأوجاق السلطان ومهمتهم مساعدة الباشا فى تنفيذ أوامر السلطان كما كانت لهم رقابة عليه ، ومنهم طائفة من كبار أصحاب المناصب مثل كتخدا الباشا فى بعض الأحيان ، وأغا الانكشارية الذى كانت له الرياسة العليا على ضبط مدينة القاهرة ، وكذلك سردار الحج وسردار الخزينة[٦] .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المصدر السابق ، ص١٣١-١٣٤ وكانت الطلبة قد فرضت على الفلاحين منذ زمن أويس باشا عام ٩٩٧هـ/١٥٨٨م وقد وصلت قوة السباهية إلى اصدار أوامرهم بعدم استخدام العربان المماليك البيض ولايستخدم النصارى جوار ولاعبيد ويطشوا بهم (انظر ايضا محمد البرلس السعدى ، بلوغ الأرب برفع الطلب ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، بالمجلة التاريخية العدد ٢٤ ، ص٢٨٦).

(٢) محمد بن ابى السرور البكرى ، كشف الكربة برفع الطلبة ، ص٣٥١ .

(٣) عراقى يوسف محمد ، الوجود العثمانى فى مصر ، ج١، ص٧٦ .

(٤) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥٧ .

(٥) قانون نامه مصر ، ص٣١ .

(٦) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥٧ .

جـ- أوجاق عزبان :

كان لرجال هذا الأوجاق عدة اختصاصات فمنهم بحارة ترسانة الاسكندرية والسويس وكان من رجاله أمين البحرين وهو المشرف على ساحلي بولاق ومصر القديمة ، فيما يتعلق بالسفن وبالضرائب المفروضة على الغلال الواردة لهذين الساحلين . وكذلك كانت لهم اختصاصات بوليسية فتتألف منهم مراكز البوليس بالقاهرة ويشرفون أيضا على الملاهي والبهلوانات[١] .

د- أوجاق جاوشان :

كان العمل الرئيسي لهذا الأوجاق تحصيل الأموال الأميرية من الملتزمين وتوريدها إلى خزينة الروزنامه ،ومن واجبه أيضا الاشراف على شون الغلال الأميرية ، وكان المحتسب في العهد العثماني من رجال الجاوشان ، وتلخص اختصاصاته في الاشراف على الاسواق وضبط الموازين والمكاييل وتسعير المواد التجارية وضبط الأمن [٢] .

و- أوجاق متفرقة :

أهم أعمال هذا الأوجاق حفظ القلاع التي تحيط بمصر مثل قلاع الإسكندرية ، ورشيد والبرلس ودمياط والعريش والطور وأسوان وابريم ، ولكل من هذه القلاع طوائف من المتفرقة المشاة والفرسان والطوبجية مع جماعة من الطبالين ونافخي البوري والمعمارين والنجارين . ويشرف هذا الأوجاق أيضا على تشهيل القوافل ونقل الغلال ومختلف البضائع والمهمات بين الصعيد والقاهرة والسويس ويتولى هذا العمل قافلة باشي أي رئيس القافلة ، وكذلك يعني أوجاق المتفرقة بجمع البارود اللازم لشئون الدفاع عن مصر الذي يرسل جانب منه إلى السلطان[٣] .

القضاء :

أولى العثمانيون شئون القضاء في مصر جانباً كبيرا من اهتمامهم ، اسوة بما كانو يتبعونه في مراكز السلطنة في مختلف الولايات ، فأحاطوا منصب القاضي بأهمية كبيرة ومنحوه

---

(١) نفسه ، ص٢٥٧ .

(٢) نفسه ، ص٢٥٦ .

(٣) حسن عثمان ، المجمل في تاريخ مصر ، ص٢٥٦ .

سلطات واسعة قضائية وادارية ، مما جعل الوثائق تطلق عليه لقب الحاكم الشرعي ، فالقاضي هو المختص بالفصل في خصومات الأفراد ، والنظر في شئون تركاتهم ووصاياهم وسائرشئونهم الشرعية ، فلا يتم اتفاق بين شخصين الا أمام القاضي ، وأمامه تجرى جميع عمليات البيع والشراء في الأرض والعقارات . وكل موظف لايستطيع أن يمارس مهامه المحددة له الا اذا أثبت لدى القاضي صحة تعينه ، وسجل براءة هذا التعيين في سجل المحكمة . ويشترك القاضي اشتراكا فعليا في ادارة شئون الولاية عن طريق عضويته بالديوان العالي وهو أعلى مجلس ادارة في الولاية[1] .

وأصبح القضاء في مصر العثمانية تابعا للقضاء الإسلامي في استانبول ، وكان السلطان يرسل إلى مصر ، قاضي القضاة المعروف باسم "قاضي عسكر أفندى ، ويأتي في البروتوكول العثماني من حيث الترتيب ، بعد قضاة استانبول ومكة المكرمة والمدينة وبروصة ، بذلك يتضح أنه كان في مقدمة قضاة الدولة العثمانية [2] والذى تنعته الفرمانات العثمانية "بأقضى قضاة المسلمين .. وارفع اعلام الشريعة والدين . . مولانا قاضي مصر ، ويشترك في محاسبة الباشا في آخر ولايته ، ويشرف على القضاء في أنحاء البلاد . وفي بدء الحكم العثماني في مصر كان السلطان يرسل قضاة عثمانيين يعاونون قاضي العسكر في تطبيق العدالة في مصر، وهؤلاء يستعينون بالتراجمة لجهلهم لغة البلاد وتقاليدهم . وفي العهد العثماني أصبح مذهب أبي حنيفه هو المذهب السائد ، ولم يمنع ذلك وجود مفتين على مذاهب الشافعي ومالك وابن حنبل ، يرجع اليهم القضاة عند الضرورة . وكان القضاة يفصلون في أغلب القضايا المدنية والجنائية ، ولايصدرون أحكامهم الا بعد اثبات الحادث . وكانت أحكامه قابلة للنقض بعد الرجوع إلى المفتين وكانت تعرض المشاكل القضائية المهمة على ديوان الباشا لابداء الرأى فيها[3] .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة في مصر ، ص٢٤٢ .

(٢) عبد الرازق ابراهيم عيسى ، تاريخ القضاء في لمصر العثمانية (١٥١٧-١٧٩٨م) القاهرة ١٩٩٨ ، ص٨٤ .

(٣) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة في مصر ، ص٢٤٢ .

وكذلك من اختصاص القضاة فى مصر العثمانية الاشراف على ادارة الأوقاف والمرتبات الخيرية المخصصة للعلماء أو المجاورين بالأزهر . أو لأهل الحرمين الشريفين ، وتقسيم التركات وتحصيل الرسوم على المبايعات ، والتصرفات العقارية مع تسجيل حجج البيع والشراء . وكانت تحول إلى قاضى العسكر الأوراق من الديوان الدفترى ، فيما يستدعى التحقيق من عرائض الشكوى ، ومشاكل الملتزمين ، فينظر فيها ويصدر عنها أحكامه الشرعية التى يأخذ بها الباشا العثمانى[١] .

كما اختص قاضى العسكر فى قضايا ذات اختصاص نوعى إضافة إلى ماسبق هى [٢] .

١- فسخ الأنكحة .

٢- مبايعة الأنقاض .

٣- الكتابة على الواقف بماله من الشرط .

٤- الكتابة على أوقاف الدشايش .

وتصدر عن المحاكم الشرعية "حجج شرعية يثبت فيها صرف مرتبات العساكر وتسجل بها حالات انتقال الالتزامات و (اعلامات شرعية) وتحتوى على أحكام قاضى العسكر فى مسائل الالتزام ، واشهادات شرعية تسجل فيها حالات معينة كانشاء سفن نقل الغلال إلى الحرمين الشريفين أو حماية اليهود من استبداد الانكشارية"، و "تمكينات شرعية" تسجل فيها بعض المرتبات والمنح ، أو ينص فيها على حق الموظفين في وظائفهم[٣] .

وكان قاضى العسكر وسائر القضاة يحصلون على مراكزهم بالشراء فى نظير الرسوم التى يحصلونها مثل رسوم التمغات والقضايا ومعاينة التركات وتقسيمها ورسوم الحج والأوراق التى تصدر عن المحاكم . وقد يؤثر القاضى أحيانا الاقامة فى العاصمة دون الذهاب إلى مقر عمله فيرسل من ينوب عنه . وعندما ضعف النفوذ العثمانى فى مصر نقص العنصر العثمانى فى القضاة ، وحل مكانهم قضاة من المصريين . وقد نشأت قصص عن ذمم القضاة وشططهم

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥٨ .

(٢) نفسه ، ص٢٥٩ .

(٣) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥٩ .

فى جمع الرسوم دون العناية بتحقيق العدالة ، فكانت الحكومة تتدخل وتحاول أن تمنع ذلك الاختلال ، وأن تعمل على تحقيق العدل ، الا أن ذلك لم يكن من المستطاع فى الغالب فى عصر تأخر الدولة العثمانية(١) .

أما عن مدة تولية قاضى القضاة ، فنجد فى بداية العهد العثمانى كان قاضى القضاة ، يشغل منصبه لسنوات طويلة وصلت إلى ستة عشر عاما متوالية ، ثم قصرت مدة شغل القاضى لوظيفته تدريجيا ، فأصبحت تتراوح بين ثلاث سنوات وسنة واحدة ، وفى القرن الثامن عشر وحتى أواخر العهد العثمانى أصبح قاضى القضاة يعين لمدة سنة واحدة(٢) .

وفى حالة وفاة قاضى العسكر وهو فى الخدمة أو عند انتهاء مدته كان الباشا يصدر فرمانا بتعيين قائم مقام عنه حتى يصل القاضى الجديد من استانبول وفى هذه الحالة كان القائم مقام يطلع إلى الديوان ، ويتولى أعمال القائم مقام حتى قدوم قاضى العسكر إلى مصر(٣) .

بالإضافة إلى ذلك يوجد قضاة الأقاليم حيث قسم الاقليم المصرى إلى ستة وثلاثين قضاة يضم ست رتب ، وكانت المرتبة الثانية فى كلا القسمين تسمى موصلة تمهيدية . وكان القضاة فى الاقاليم درجات أعظمهم قضاة المديريات البحرية والثغور .

ويعين قاضى عسكر الأناضول قضاة الاقاليم ولاتوجد سلطة لقاضى عسكر عليهم منهم مستقلون عنه تماما . كما أن كل اقليم مستقل من الناحية القضائية عن الآخر(٤) .

أما الاختصاصات القضائية لقضاة الأقاليم نظر قضاة الشرع فى الأقاليم فى كافة أنواع القضايا التى تعرض عليهم ، فلم تكن هناك قضايا مخصصة لهم ، ومرد ذلك أن القاضى فى الاقليم كان رئيس الهيئة القضائية بهذا الاقليم ، لذا فلم تكن هناك نوعية محددة من القضايا

---

(١) حسن عثمان، المرجع السابق ، ص٢٥٩ ؛ ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٦٣ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٤٨-٢٤٩ ، عبد الرازق ابراهيم عيسى ، تاريخ القضاء فى مصر العثمانية ، ص٨٧ .

(٣) عبد الرازق ابراهيم عيسى ، تاريخ القضاء فى مصر العثمانية ، ص٨٥ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٤٨-٢٤٩ ، عبد الرازق ابراهيم عيسى ، تاريخ القضاء فى مصر العثمانية ، ص٨٧ .

أو اختصاص قضائى نوعى ومن حق الناس اللجوء إلى المحاكم فى أى وقت ورفع الدعوى على خصومهم وطلبهم امام الشرع . ويقدم مقدمو الادراك وهم المسئولون عن الأمن فى الاقاليم - من يقبضون عليه من المفسدين إلى القاضى الذى يقوم بالنظر فى حالته أو الأمر بسجنه حتى يظهر من أمره ماتكشف عنه التحريات(١).

وفى المحاكم الاقليمية أيضا ولدى القاضى كان يجرى تنصيب مشايخ طوائف الحرف وعزلهم أيضا(٢) واختصوا أيضا بالطب الشرعى والكشف على الجثة قبل دفنها وذلك بمساعدة الجراحجية(٣) وتحديد أسعار المأكولات ، كأنواع اللحوم والخبز وغير ذلك ، ويكون ذلك بحضور بعض المسئولين عن بيع هذه المأكولات ثم يقوم القاضى عن طريق رجاله بالجهر بالنداء بالتسعيرة الجديدة فى الأسواق(٤) .

أما عن مدة شغل القاضى لوظيفته تصل إلى عامين أو أكثر فى أوائل العهد العثمانى ، ولكن فى القرن الثامن عشر لم تعد مدة خدمة القاضى تزيد عن سنة واحدة(٥) .

المفتون :

وقد عرف نظام الافتاء فى مصر فى العصر المملوكى السابق لوجود العثمانيين فى مصر اذ كان المماليك يعينون مفتيا من كل مذهب يقيم فى دار العدل القائمة فى عاصمة كل نيابة . وفى القرن السادس عشر كان كثير من المفتين فى مصر والشام من أصل رومى أى من الأناضول أما فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فقد غدا المفتون فى مصر وغيرها من البلاد العربية شخصيات محلية عربية ، والمفتى عالم دينى ولم يكن يشترط تخرج رجال الافتاء فى الاقاليم من مدارس استانبول كقاضى العسكر وانما كان يقبل تخرجهم من أية مدارس أخرى(٦) .

---

(١) عبد الرازق ابراهيم عيسى ، القضاة فى مصر العثمانية ، ص٩٤ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٧٥ .

(٣) عبد الرازق ابراهيم عيسى ، المرجع السابق ص ١٠١ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٢٧٨ .

(٥) نفسه ، ص٢٨٥ .

(٦) نفسه ، ص ٢٩٠ .

وقد وجد فى مصر مفتون على المذاهب الأربعة فى الاقاليم كانوا يحضرون مجالس الشرع فى المحاكم الاقليمية حينما يكون موضوع الجلسة متعلقا بادارة الاقليم . ويأتى المفتى فى الاقليم بعد القاضى ، وفوق نائبه ، فلم يكن للمفتى فى مصر الدرجة التى وصل اليها المفتى فى دار السلطنة نفسها . وفى مصر العثمانية كان العلماء المحلين هم الذين يختارون مفتيهم ثم تعمل السلطات على الاعتراف بهم[١] .

أما عن ايرادات المفتين ومدة خدمتهم ، فقد كان المفتون يحصلون على بعض مرتبات الجراية والعليق من قمح وشعير يكون قد وقفها عليهم بعض الباشوات وهى مرتبات خيرية سنوية تصرف لهم من الخزينة . وبالنسبة للمدة فقد كان المفتى يحصل على منصبه لمدة الحياة لا لسنوات محددة ، ولايرتقى واحد منهم من منصب إلى آخرولا ينال أجرا من الدولة[٢].

ومن الشخصيات الدينية الأخرى التى وجدت فى مصر العثمانية :

نقيب الأشراف :

وكلمة أشراف تعنى أولئك الأفراد الذين هم من نسل سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أكان ذلك عن طريق الأم أو الأب ولم يكن هؤلاء بالضرورة رجال دين وإنما كان منهم التاجر والصانع والفلاح وان العلاقة القوية التى وجدت بين أرباب الحرف والاشراف نظرا لوجود كثير من الاشراف بين الحرفيين قد أفادت الاشراف من ناحيتى التنظيم والقوة فقد دعمهم أرباب الحرف وهم عادة ذوى سلطة سياسية وقد تمتع الاشراف باحترام خاص من مجموع الشعب وشكلوا جماعة منفصلة ومتميزة وحتى تراقب الدولة هذه الجماعة وتمنع الناس من ادعاء هذا النسب الشريف أوجد العباسيون ثم المماليك بعد رئيسا للاشراف اطلق عليه نقيب الاشراف سارت الدولة العثمانية على نفس المنهج وكان لنقيب الأشراف فى استانبول سلطة على نقباء الاشراف فى الولايات وهو الذى يعينهم وله سلطة قضائية عليهم[٣] وكان نقيب

---

(١) ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر ، ص٢٩٠ .

(٢) نفسه ، ص ٢٩١ .

(٣) عبد العزيز محمد الشناوى ، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها الجزء الأول ، ص١٣١ .

الاشراف فى مصر يرسل من استانبول فى بداية العهد العثمانى واستمر ذلك حتى القرن الثامن عشر ثم أصبح يتولاها شيخ السجادة البكرية من آل البكرى فى مصر . ويعتبر جمع الأشراف فى مصر أتباع للنقيب وله أن يمارس عليهم سلطة قضائية تصل إلى عقوبة التغريز وعقوبة الحبس ولم تصل تلك السلطة إلى حد عقوبة الاعدام . وكان لنقيب الأشراف نواب يمثلونه فى الاقاليم ويمارسون نفس سلطته على الاشراف فيها . ويحضر نقيب الاشراف الاجتماعات الادارية الهامة التى كانت تعقدها الادارة فى مصر فى شكل جمعيات لحل الازمات المحلية وذلك باعتباره شخصية لها وزنها فى المجتمع ولها تأثير على اتباعها ويتولى نقيب الاشراف منصبه لمدى الحياة . ولم يكن له مرتب من الخزينة ، وانما كانت أوقاف معينة من أراضى أوقفها السلاطين ليستعين بها النقيب فى معاشه ونفقة أتباعه[1] .

الإدارة المالية :

كانت لمصر فى العهد العثمانى ادارة مالية دقيقة ، اشترك فى ادارتها الديوان الدفترى وديوان الروزنامه ، وفريق من رجال الحامية العثمانية ووزعت الأراضى الزراعية والجمارك بطريق الالتزام ، وكانت تجبى الضرائب ، وتجمع ايرادات الولاية ، ثم تصرف فى الوجوه المخصصة لها ، وماتبقى يرسل لخزينة السلطان ، ولنعرض لهذه النواحى بصفة عامة[2] .

واستبقى العثمانيون فى بداية حكم فى مصر الموظفين والكتاب الذين سبقت لهم الخدمة فى خزينة السلطنة المملوكية ، وعهدوا إليهم بإدارة الخزينة العامرة ، وقد عين العثمانيون "متحدثا" أو مباشرا أو مفتشا لكل اقليم وكان أكثرهم من القضاة "ويتولى "المتحدث" الاشراف على سجلات الأراضى الزراعية الخاصة باقليمه ، ويحدد مقدار الضريبة المطلوبة منه، ويستلم ايراداتها من العمال والكشاف الذين يسلمونه اياها فى القاهرة فى مقر الخزينة بالقلعة، وكان يرأس هؤلاء المباشرين فى عملهم ويراقبهم رئيس أطلق عليه لقب "ناظر الأموال" ويساعده فى اداء مهمته أمين الشهر[3] .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٩٧ .

(٢) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص ٢٦٠ .

(٣) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٩٧ .

أما أقسام الخزينة السلطانية في مصر والعاملون بها ، نجد أن الخزينة السلطانية في انقسمت آلى قسمين :

١- ديوان الدفتردار أو الديوان الدفترى .

٢- ديوان الروزنامة .

١- الديوان الدفترى :

هو بمثابة ديوان المالية ، ويرأسه الدفتردار أى صاحب الشئون المالية وهو في العادة من الصناجق المصريين ومهمته الاشراف على شئون الولاية وتحصيل أموالها ، والتعجل بانجاز مهام الحرمين الشريفين وصرة أهالى مكة والمدينة ، و"تشهيل خزينة السلطان ومعتادات الأستانة" ومحاسبة الباشا فى آخر ولاية عهده بالولاية . وللدفتردار ساليانة ثابتة نقدية يصرف له من الخزينة ومقدارها ٨٩٢٠٠ بارة سنويا ، يضاف اليها مبلغ ٣٤٩١ بارة تصرف له من الخزينة أيضا وقت ارسال الخزينة الارسالية . وكان يحصل أيضا على مرتب عينى من القمح والشعير وهو ماعرف باسم جراية وعليق وصلت الى ١٠٠ أردب غلال فى السنة ٥٠٠ أردب قمح و ٥٠٠ أردب شعير[1] وعوائد مختلفة مثل بعض أموال على أصحاب المرتبات الثابتة ، وعلى بعض أموال على أصحاب المرتبات الثابتة ، وعلى بعض وجوه ايراد الباشا ، وللدفتردار وكيل ومهر دار ، وموظفون يعملون تحت اشرافه . وكان الديوان الدفترى عصب النظام المالى القائم على نظام الالتزام ، فهو الذى يطرح مقاطعات الالتزامات فى المزاد ، وهو الذى يقرر من يرسو عليه المزاد ، وهو الذى ترفع اليه أوراق الملتزمين من ديوان الروزنامة التابع له ، ويضع عنها البيانات اللازمة ، ويقدمها للباشا فى "عرضحال" خاص فيصدر الأوامر المناسبة ، ومن ثم يصدر عن الديوان الدفترى "تقسيط الالتزامات المحرر بخطى قيرمة والديوانى والمذيل بطغراء الدفتردار والمهمور بخاتم الباشا كما يصدر الديوان الدفترى "مراسيم دفترية" خاصة برفع أو تخفيض أموال وغير ذلك من الشئون المالية[2].

وقد حل الدفتردار مكان ناظر الأموال ، وكان الدفتردار فى بداية العهد العثمانى شخصية عثمانية يعين لرئاسة الادارة المالية فى مصر من بين رجال الخزينة السلطانية المركزية فى

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٦٠ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٩٨ .

(٢) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٦٠ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٢٩٨ .

استانبول ويلقب الدفتردار فى الوثائق بلقب دفتردار أفندى دفتردار خزينة عامرة . وكان الدفتردار شخصية كبيرة فكان يتولى مناصب ادارية هامة بالإضافة لمنصبه فى رئاسة الادارة المالية فى مصر مثل منصب قائم مقام الباشا فى بعض الأحيان(١) .

ولم يكن للدفتردار مدة محددة بل كان يستطيع الاحتفاظ بمنصبه طالما هو فى مركز القوة والسادة بين أقرانه من البكوات الصناجق فى مصر(٢)

٢- ديوان الروزنامة :

كان تابعا للديوان الدفترى مهمته جمع الأموال الأميرية وصرفها فى وجوهها المختلفة تحت أشراف الديوان الدفترى ، وكان يقوم بالعمل فيه أفندية من الكتاب أطراهم المؤرخون المعاصرون ووسموهم باللباقة ورقة الحاشية ودماثة الخلق ، وآثارهم المودعة فى دار المحفوظات المصرية ، تنبئ عن دقتهم وطول باعهم فى العلوم الحسابية ومختلف شئون الادارة والزراعة وجباية الأموال وجمال خطوطهم ينبئ عن مهارة خطية ترتفع إلى مصاف كبار الخطاطين . ولعل هذه الوثائق من دفاتر وأوراق من الآثار التى توسم بالدقة فى عصر غلبت عليه القلاقل والفتن.

وكان أفندية الروزنامة يرأسون أقلام الروزنامة والتى تسمى بالمقاطعات ويؤدون أعمالهم لمدى الحياة ، ويورثون أبناءهم أو مماليكهم وظائفهم بعد التمرن على أعمال الروزنامة . وسجل على الروزنامة طوال العهد العثمانى جو من السرية والتكتم ، وتعددت الأوامر فى وثائق ذلك العصر بالا يفشى أحد الأفندية شأنا من شئون الروزنامة الا بأمر من الباشا نفسه . وضمن لهم سرية أعمال الروزنامة تحريرهم دفاترهم ومعظم أوراقهم بهذا الخط السرى العجيب - خط القيرمة- الذى يصعب قراءته الا بعد التمرين على مختلف قوالب الكلمات والجمل(٣) .

والروزنامجى هو المدير العام لديوان الروزنامة وكبير الأفندية وكان الباشا يعينة بموافقة شيخ البلد والصناجق ورؤساء الأوجاقات ومهمته الاشراف على تحصيل الأموال المقررة

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٣٠٠ .

(٢) نفسه ، ص ٣٠١ .

(٣) حسن عثمان ، الجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٦٢ .

وصرفها، وتعرض عليه الأوامر الصادرة من الباشا فيحيلها بدوره إلى الاقلام المختصة ، ويرفع البيانات المتحررة من مختلف أقلام الروزنامة إلى الديوان الدفترى . والروزنامجى معاونون مساعدون وأهمهم أربعة خلفاء أو قلفاوات[١] وكان أهمهم "الباش مباشر" أو "الباش خليفة" أو "الباش قلفة" أو سر خليفة وكان هو الوكيل الأول للروزنامجى ، ويحل محله اذا خلا منصب الروزنامجى فيعمل فيه كقائم مقام بدل الروزنامجى وكان الروزنامجية دائما يؤخذون من طبقة الباش خليفة ، ثم يأتى بعد الباش خليفة ، ثانى خليفة ، ثم رابع خليفة[٢] ومنهم يتألف مكتب مدير الروزنامة وهو الخلفاء أو القلفاوات يشرفون على كل الأعمال الحسابية التى يقوم بها الأفندية ، على كل السجلات التى تحت أيديهم[٣] ومن مساعدى الروزنامجى الآخرين ثلاثة صبيان شاكرديه وكيسة دار[٤] .

والروزنامجى عضو أساسى فى الديوان العالى ولابد من حضوره فى الجلسات الخاصة بالنواحى المالية ومعه بعض مساعديه ليقدم البيانات المطلوبة عن مالية مصر فى حالة محاسبة الباشا بعد عزله . وفى حالة ارسال الخزينة الارسالية للسلطان ، وارسال مال الحرمين الشريفين وغير ذلك من الجلسات التى تعقد للاغراض المالية[٥] .

وينقسم ديوان الروزنامة إلى عدة أقلام أو مقاطعات يرأس كل منها أفندى تنعته الوثائق "بالمقاطعجى" وتوزع الاختصاصات الحسابية والمالية على هذه الاقلام أو المقاطعات ، ولديها سجلات متعددة مثل سجلات التزامات الأراضى الزراعية وسجلات التزامات الجمارك وسجلات الغلال المطلوبة عينا من الوجه القبلى ، وسجلات معتادات الاستانة وأموال الحرمين الشريفين وسجلات الغلال المخصصة للباشا وللدفتردار ، ولقاضى عسكر أفندى وللأمراء الصناجق وسجلات الأراضى الموقوفة والاحسانات والمنح ولديها أيضا سجلات "مواجبات العسكر وجامكياتهم" والذى كان يعاون أفندية الروزنامة فى تشهيلها أفندية الأوجاقات السبعة الممثلين فى ديوان الروزنامة وقلم "الخزينة دار" من الاقلام المهمة ، وهو قلم مدير خزينة

---

(١) حسن عثمان، المرجع السابق ، ص ٢٦٣ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٣٠٦ .

(٣) نفسه ، ص٣٠٧ .

(٤) نفسه ، ص٣٠٧ .

(٥) نفسه ، ص ٣٠٤ .

الروزنامة التى هى خزينة مصر ، ويتولى جميع الأموال الأميرية وقيدها وصرفها فى وجوهها المعينة ، كما يراقب جميع الأعمال المالية فى ديوان الروزنامة[١] .

ويضاف إلى أفندية الروزنامة بعض الموظفين مثل "التذكرجى" وهو الذى يحرر مختلف تقاسيط الالتزام والتذاكر الديوانية عن مختلف المرتبات والمخصصات الأميرية ، و"التاريخجى" وهو الذى يضع تاريخ كل مستند رسمى ، وروزنامجى واردات ويكون دائما أحد أتباع الباشا وهو يقيد ايراداته ، و"اغاء جبة جيأن" وهو الذى يقيد المطلوب من ملح البارود للجبة خانة العامرة و"أمين الصناديق" وهو بمثابة أمين دفتر خانة أو محفوظات الروزنامة،"كاغد أمين" أى أمين الأوراق والمهردار وهو حامل أختام الروزنامة[٢] .

ويعزل الروزنامجى من منصبه فى حالة فشله فى اصلاح مالية مصر وتجاوز الأزمات التى كانت تحل بها أو لاتهام الباشا له بالاثراء بطريقة غير مشروعة باستغلال منصبة وفى بعض الحالات كان الروزنامجى يعزل من منصبه لعجزه عن اداء عمله لمرضه أو بخلو المنصب لوفاة صاحبه[٣] .

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٦٢ .

(٢) نفسه ، ص٢٦٢ .

(٣) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٣٠٥ .

الفصل الثالث

الحملة الفرنسية على مصر ونتائجها

(١٢١٣-١٢١٦ هـ/ ١٧٩٨- ١٨٠١م)

١ - العالم القديم :

شهد الشطر الثانى للقرن الثامن عشر تحولاً ملحوظًا للجغرافيا السياسية العالمية التى كانت شبه مستقرة منذ الكشوف الكبرى ، فدفعة واحدة ، توصد أمريكا أبوابها فى وجه التوسع الأوروبى : فحرب السنوات السبع تؤدى إلى طرد الفرنسيين من أمريكا الشمالية (١٧٦٣م) . وحرب استقلال الولايات المتحدة تختزل حصة إنجلترا التى تضطر إلى التسليم باستقلال ذاتى متزايد الأهمية لممتلكاتها الأخيرة . وجزر الأنتيل يبدو أنها تضطر - فى مستقبل قريب - إلى الاعتماد على الولايات المتحدة . وكل الاعتبارات تسمح بتصور أن أمريكا اللاتينية - التى تملكها القوتان الايبريتان (أسبانيا والبرتغال) . سوف تتبع تطوراً مماثلاً لتطور أمريكا الشمالية . وينتهى الفصل الأوروبى فى تاريخ القارتين الأمريكيتين وبانتهائه تنتهى أول إمبراطورية استعمارية أقامتها القوى البحرية الأوروبية الغربية . ومع إدراك تحرر القارتين الأمريكيتين ، يحل مصطلح " الغرب " محل مصطلح " أوروبا " للإشارة إلى المجال الجغرافى للثقافة الأوروبية [١] .

لم يكن العالم القديم قد تعرّض بالكاد لتغيير يذكر منذ القرن السادس عشر ، ففى أثر التوسع الأوروبى فى هذه الأرجاء يشهد القرن التالى انكفاءً ، فالصين واليابان ، توصدان أبوابهما ، والإمبراطورية العثمانية وفارس لاتسمحان إلا بعلاقات تجارية ودبلوماسية . والانغراس الإقليمى الأوروبى الحقيقى لا يوجد إلا فى أرخبيلات المحيطين الهندى والهادى، وفى بعض أقاليم أفريقيا[٢] .

---

(١) هنرى لورنس وآخرون ، الحملة الفرنسية فى مصر ، بونابرت والإسلام ، ص١١ .

(٢) هنرى لورنس وآخرون، المرجع السابق ، ص١١ .

إلا أن هناك استثناءً ملحوظًا : الهند إن انهيار القوة المغولية يسمح ببروز توازن محلى بين القوى التى تستخدم فى نهاية الأمر مرتزقة أوروبيين لتدريب جيوشها ، ومنذ ذلك الحين ، فى القرن الثامن عشر ، يقف الفرنسيون والإنجليز وجهًا لوجه بالفعل فى " لعبة كبرى " قاصرة على شبه القارة الهندية هدفها السيطرة على تجارتها . وقد كسبتها الجلترا خلال حرب السنوات السبع ، فأصبحت بذلك قوة إقليمية ، تشارك بلا مواربة فى لعبة التوازن المحلى المعقدة ، حيث يؤدى نظام سياسى جديد مزدوج إلى الحفاظ فى آسيا على توازن أوروبى هش، ففرنسا يمكنها العودة بشكل هجومى إلى هذه الأقاليم بحشدها حولها جميع القوى المحلية لمناوئة لانجلترا؛ وروسيا وقيصرتها كاترين الثانية تبدأ فى التفكير فى تغلغل صوب المحيط الهندى مرورًا بأفغانستان ، الطريق التقليدى للغزوات البرية التى تستهدف شبه القارة الهندية[١] .

إن الهند غواية وانجلترا نموذج . أما فارس فهى غير متاحة إلا لروسيا . ومنذ عصر بطرس الأكبر ، كانت روسيا قد بدأت تعدياتها ، مستفيدة من انهيار الإمبراطورية الصفوية لكن البلد ليس ضعيفًا بالدرجة التى يبدو عليها ، والمغامرة قريبة العهد التى قام بها نادر شاه ، الذى سارت جيوشه من بغداد إلى دلهى فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن ، ماتزال حية فى الأذهان للتذكير بذلك . ومع صعود سلالة القاجاريين الحاكمة ، بيد أن البلد يستقر بعد أكثر من نصف قرن من الاضطرابات التى أثارت مشاعر أوروبا[٢] .

٢ - الإمبراطورية العثمانية :

والإمبراطورية العثمانية أقرب إلى أوروبا ، وهى تجمع تحت سلطتها كل غرب الإسلام ، باستثناء المغرب الأقصى وتوسع نفوذها فى القرن السابع عشر أيضًا ، على حساب أوروبا . وهذه الدولة العظمى تُعد - منذ القرن السادس عشر - مندمجة فى النظام السياسى الأوروبى. وتوجد فى عاصمتها بشكل دائم سفارات أوروبية . ومن حين لآخر ، توفد الحكومة العثمانية رسلاً مفوضين إلى كبرى بلدان أوروبا . ويوجد تحالف تقليدى مع فرنسا .

لكن هذه الإمبراطورية تبدى علامات اضمحلال ، والظاهرة معقدة ، فعملية انهيار المركزية السياسية ، والتى بدأت منذ أواخر القرن السادس عشر ، تشهد عندئذ أوجها . وتحت قيادة

---

(١) هنرى لورنس وآخرون ، المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٢) هنرى لورنس وآخرون ، المرجع السابق ، ص ١٢ .

سلطوية من جانب الباشوات الولاة على الولايات ، تتشكل أشباه دول فى الأقاليم الرئيسية للإمبراطورية والسلطة المركزية - الباب العالى - تجد صعوبة كبيرة فى كسب الانصياع لها ، لكن الجميع يظلون داخل النظام العثمانى . وإذا كان بوسع حروب أن تدور بين الولاة ، فإنه لا توجد فى الواقع حدود غير الحدود الإدارية ، وجميع هؤلاء الموظفين الإمبراطوريين الكبار شركاء فى اللعبة السياسية . والباب العالى العاجز عن اختزال درجات هذا الاستقلال بالشكل الذى يتمناه ، إنما يلعب على هذه التناقسات ويدير بمفرده مايمكن تسميته بالتوازن العثمانى .

ويتمشى مع هذا الانهيار للمركزية ضعف للانضباط الداخلى . ومن جراء التعرض لضغوط قوية ، تجعل من الوحدات العسكرية تعبيراً عن المجتمع المدنى الإسلامى ، لا تتمتع السلطة المركزية بعد بأداة عسكرية متماسكة ومنضبطة بدرجة تماسك وانضباط الإدارة العسكرية التى عرفها زمن العصور العثمانية الأولى . وبينما يبلغ التحكم فى سلوك الرجال فى أوروبا ، ذروته فى الانضباط البروسى ، فإن الجيش العثمانى يبدو مفككًا بشكل مطرد(١) .

والشىء الأهم هو أن الإمبراطورية العثمانية لاتعرف - فى القرن الثامن عشر - نمواً سكانيًا مساويًا لنمو سكان أوروبا ، التى تتحرر من الأسباب الرئيسية للارتفاع الكبير لنسبة الوفيات . فتدشن بذلك ثورتها الديموغرافية . ففى المجال العثمانى الشاسع ، تتكرر أوبئة الطاعون بصورة منتظمة ويصبح الداء متوطنًا هناك . وثقل البداوة وانعدام الأمن - اللذين يؤكد البدو والتركمانيون هيمنتها - يحدان من المجال الزراعى . وتزايد الضرائب ونظام جبارية غير ملائم - بالرغم من التدابير التى اتخذتها السلطة المركزية لإصلاحه - لايحفزان الفلاحين على زيادة انتاجهم ، على الرغم من ظهور تنويع المحاصيل . بسبب طلبات السوق الأوروبية المتزايدة . وعلى المستوى الديمغرافى ، تظل الإمبراطورية العثمانية فى مرحلة تاريخ راكد ، مرحلة تباين لعدد السكان بين قواعد متغيرة وسقف لن يتسنى تجاوزه إلا فى القرن التاسع عشر مع إعادة فرض سلطة مركزية قوية . وعلى مدار زمن جد طويل (من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر) يمكن رصد ارتفاع لعدد السكان فى الولايات الآسيوية على الأقل ، لكن هذا الارتفاع لايتناسب البتة مع الأرقام الأوروبية(٢) .

---

(١) هنرى لورنس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ١٣ .

(٢) نفسه ، ص ١٣ ، ١٤ .

وهكذا فإن وزن الإمبراطورية من الناحية الديموغرافية يصبح أقل فأقل قياساً إلى جارتيها الطموحتين اللتين تحت قيادة مستبدين مستنيرين - تعززان قوة الدولة مع تعبيرها العسكرى وتشرفان بذلك - عبر الانضباط على النمو الملحوظ لعدد السكان . وفى الشطر الثانى للقرن، يختل التوازن بين الإمبراطورية العثمانية من جهة ، والنمسا وروسيا ، من جهة أخرى ، اختلالاً حاسمًا ، وتوضح ذلك حربان : حرب / ١٧٦٨ - ١٧٧٤ م ، حيث تهب الإمبراطورية العثمانية استجابة لنداء من فرنسا إلى مساعدة بولندا ضد روسيا كاترين الثانية ، وتُمنى الإمبراطورية بهزائم مريرة بحيث أن مستقبلها يصبح محل شك وحرب / ١٧٨٧ - ١٧٩٢م ، حيث تنضم النمسا إلى روسيا ، متصورة أن بوسعها المشاركة بذلك فى اقتسام للبلقان مطابق لاقتسام بولندا ، أما فرنسا الغارقة فى قلاقل ماقبل الثورة ، ثم فى الثورة نفسها ، فهى لاتهتم باللعبة ، ويضطر العثمانيون المعاصرون إلى مناشدة بروسيا وانجلترا ، القادمتين الجديدتين إلى الساحة ، ويؤدى التوتر المتزايد الذى أفرزته الثورة والتقسيم الثانى لبولندا إلى انقاذ الإمبراطورية العثمانية - مؤقتًا فى نظر المعاصرين - من الفناء الذى توقعه المراقبون الأذكياء (١).

٣ - بونابرت والشرق :

إن الانتصارات الخرافية لحملة إيطاليا تبرز بونابرت فى صدارة المسرح ، وجيشه يعبده والفرنسيون - المعادون فى غالبيتهم للحكومة الجمهورية - يرون فيه منقذا محتملاً ، ذلك الذى سوف يضع نهاية للثورة مع حفاظه على مكاسبها . وهوش منافسه الرئيسى الذى قام مثله وربما أكثر منه ، بدعم حكومة الإدارة ضد أغلبية المجالس ، يحدث فى ١٩ سبتمبر ١٧٩٧م . لكن فاتح إيطاليا يدرك أن من شأن فترة عدم نشاط عسكرى ، أو إخفاق فى محاولة انزال فى انجلترا ، التهديد بتعريض وضع لم يتعزز بعد للخطر . ثم إن الشرق يجذبه بشكل عفوى(٢) .

إن مصدر قوة بونابرت إنما يكمن فى هيمنته الأبدية على الوسائل وقدرته ، فى ذلك العصر على الأقل على حسابها بدقة فى الوقت الذى تعتبر فيه الغايات زائدة عن الحد . وعلى الرغم

---

(١) هنرى لورنس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ١٤ .
(٢) نفسه ، ص ٢٢ .

من أنه كثير الكلام ، فإنه رجل وحيد . وما أندر الأفراد الكبار الذين كان يمكنهم الإفصاح لهم بما يعتمل في صدره . وفي خلال صيف ١٧٩٧م ، يكتشف تاليران العائد من منفاه في الولايات المتحدة ليصبح - بفضل حسه التآمري - وزيراً للعلاقات الخارجية . أنهما يتبادلان رسائل مهمة يكتشف بونابرت فيها أن الوزير يفكر مثله في مصر . وهو يكشف له آنذاك عن التوتر القائم في فكرة بين الخطاب السياسي المهندس الذي يوحي به الأيديولوجيون . والاثنان تلميذان لهما - والبعد شبه الكوني والواقعية الناجمة عن الحساب الدائم للوسائل[1] .

وهو يشير إلى أنه لايؤمن ، من زاوية الفعالية على الأقل ، ببياناته الخاصة بأحياء الإيطاليين . وإن الشيء الجوهري يكمن في حسابات الوسائل ... إلخ .

وتكمن المفارقة في اجتماع وهج الخيال وبرودة الوسائل : " إننا إذا ما اتخذنا كأساس لجميع العمليات السياسية الحقيقية ، وهي ليست غير نتيجة الحساب والتوليفات والفرص فسوف تكون لزمن طويل الأمة العظمى وحكم أوروبا ؛ وأنا أقول على ذلك أننا يجب أن نحافظ على التوازن ، وإننا سوف نجعله يميل كما تشتهي ، بل إنني - وهذا هو حكم القدر - لا أرى استحالة في أن يصل المرء في غضون سنوات قليلة إلى هذه النتائج العظيمة التي يحلم بها الخيال الجامح والمتقد ، وأن الإنسان البارد في تقديره للأمور والدءوب والحكيم إلى أقصى حد هو وحده القادر على بلوغها"[2] .

هذا التوسع الثوري الجديد يزعج كثيرين خاصة العثمانيين والروس . فالنسبة للأوائل تأسس التحالف مع فرنسا على البعد الجغرافي ، فملكية النظام القديم لم يك بوسعها أن تستهدف الأرض العثمانية . لكن استقرار الفرنسيين في الجزر الأيونية واتصالاتهم مع اليونانيين المستعدين دائمًا للتمرد ، بينما يميل كبار الباشوات إلى زيادة درجة استقلالهم بلاتوقف ، ليس من شأنه إلا أن يزيد انزعاجات الباب العالي ، أما فيما يتعلق بالروس ، فإن هذه الدعاية نفسها الموجهة إلى اليونانيين ، إنما تهدد بخلق منافسة رهيبة لهم بين صفوف هؤلاء العملاء جد المفيدين لهم من عام ١٧٧٠م . ثم إن سان بطرسبورج ، وهو ما يشمل مفارقة مميزة لكل وضع ديبلوماسي معقد ، تخشى من أن يؤدي التدخل الفرنسي إلى تقديم

---

(١) هنري لورنس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٦ .

(٢) نفسه ، ص ٢٧ .

عون لإمبراطورية عثمانية بسبيلها إلى الاستسلام فى أوروبا تحت ضربات الهجمات الروسية . إن عملاً فرنسيًا فى البلقان انطلاقًا من البحر الأدرياتى إنما يشكل خطراً أكيداً بالنسبة لتحقيق المشاريع الروسية الخاصة بالسيطرة على تلك المنطقة ، والوجود الفرنسى فى البحر الأدرياتى يعدل التوازن السياسى فى البحر المتوسط ومن ثم فى أوروبا[١].

إن المشجع الآخر على سياسة فرنسا هذه فى البحر المتوسط هو تاليران ، فهو وريث دعاة التدخل فى زمن الملكية الآخذة بالزوال . وقد عرف شواسول وتعرف على المسائل الشرقية من الدبلوماسيين الذين تولوا مناصب في الشرق . وتردد ، فى الولايات المتحدة على ڤولنى الذى كان عليه أن يكون أول من يطلعه على شخصية بونابرت وعلى مصر نفسها [٢].

وعلى المستوى السياسى ، لم يعد التحالف مع الإمبراطورية العثمانية تثمر شيئًا وقد أدت الحرب البحرية إلى تدمير تجارة الثغور . والانحطاط العثمانى لا علاج له . وقد استنفدت فرنسا بلا طائل فى دعم إصلاحات مستحيلة . واحتلال مصر يفرض نفسه بوصفه الوسيلة الوحيدة لمهاجمة انجلترا فى الهند[٣] .

والهند فى أواخر القرن الثامن عشر هذه ، هى العماد الرئيسى للقوة الإنجليزية ، أنها لم تصبح بعد سوقًا كبيرة مصيرها استقبال المنتجات المصنعة التى زادتها الثورة الصناعية الإنجليزية . وهدف جهود الأوروبيين هو السيطرة على الصادرات الهندية وفى ذلك العصر ، بفضل عمل جماهير غفيرة من الحرفيين ، تعتبر صناعة القطن أول صناعة فى العالم ، أكان ذلك من حيث نوعية أم من حيث كمية منتجاتها ، وحجم صادراتها . ثم إن الهند ، عبر شبكاتها التجارية ، تفتح أمام الأوروبيين مجمل الأسواق الآسيوية . وفى أواخر القرن الثامن عشر ، تسيطر انجلترا بفضل عملها الدءوب علي نسبة ٨٥ إلى ٩٠ فى المائة من تجارة الهند الخارجية .

والحال أنه إذا كان هناك من درس هذا الاقتصاد ، فإن تاليران أساسًا . وخلال إقامته فى الولايات المتحدة فكر فى عدة مشاريع للمضاربات التجارية [٤].

---

(١) هنرى لويس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٧ .

(٢) نفسه ، ص ٢٨ .

(٣) نفسه ، ص ٢٨ .

(٤) نفسه ، ص ٢٨ .

ومن المؤكد أن التجارة الإنجليزية مع القارتين الأمريكيتين تظل الأهم . والشيء الرئيسى هو أن الفرنسيين يجهلون الدور الذى تلعبه بداية الثورة الصناعية فى اقتصاد الجزر البريطانية ، وذلك بالرغم من احتجاجات على الدخول جد السهل للمنتجات البريطانية إلى فرنسا فى السنوات الأخيرة للنظام القديم . وبالنسبة لأهل القارة ، فإن سر القوة الإنجليزية لايمكن إلا أن يكون كامنًا فى تجارة انجلترا ، وهى ظاهرة جد مصطنعة قياسًا إلى الرسوخ الطبيعى ، الزراعى للسكان الفرنسيين ، وهذا البنيان التجارى الهش سوف ينهار بسرعة إذا ما جرد من عنصره الحيوى ، التجارة الهندية . والمسؤولون الإنجليز يتقاسمون هذا التفسير نفسه للمجريات الواقعية . فبالنسبة لهم هم أيضًا ، لا تُعد انجلترا دولة أوروبية عظمى إلا بفضل تجارتها مع الهند . وقبل أسبوع على تعيينه وزيراً يوجه تاليران إلى حكومة الإدارة فى ٢٣ يوليو ١٧٩٧م ، ثلاث مذكرات تدعو فى النهاية إلى الاضطلاع بعمل مشترك مع الأمراء الهنود ضد السيطرة الإنجليزية انطلاقًا من الجزر الفرنسية فى المحيط الهندى[١] .

وثم يجرى تدشين المشروع الهندى عندما يبلغ بونابرت حكومة الإدارة فى ١٦ أغسطس ١٧٩٧م ، بفتح الجزر الأيونية وتختم رسالته قائلاً : " لن يمر وقت طويل حت ندرك أننا لكى تدمر انجلترا فعلاً ، يجب أن نستولى على مصر . إن الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف والتى تهلك كل يوم إنما تملى علينا التفكير فى اللحظة المناسبة لاتخاذ الوسائل التى تسمح لنا بالحفاظ على تجارتنا فى شرق البحر المتوسط " .

وفى اليوم نفسه ، يكتب إلى تاليران : " إن معًا لا طائل من ورائه أن نسعى إلى دعم إمبراطورية تركيا" ، إننا سوف نشهد سقوطها فى أيامنا (...) وكورفو وزانت تجعلاننا سادة للبحر الأدرياتى ولشرق البحر المتوسط .

ويحمل رد تاليران تاريخ ٢٣ أغسطس : " لاشيء أكثر أهمية من اعتمادنا على ألبانيا واليونان ومقدونيا والولايات الأخرى للإمبراطورية التركية فى أوروبا ، بل وجميع الولايات المطلة على البحر المتوسط ، كمصر خاصة ، التى يمكنها أن تصبح عظيمة النفع لنا[٢] .

وهكذا فمنذ صيف ١٧٩٧م ، تلتقى أفكار تاليران وبونابرت ، رغم اختلاف الدوافع ، حول حملة مصر ، وهما بحاجة إلى مؤازارات واحدة . ففى ٣ يوليو ١٧٩٧م ، ذكر تاليران الجمهور

(١) هنرى لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(٢) نفسه ، ص ٢٨ - ٢٩ .

فى مذكراته الموجهة إلى المعهد الوطنى ، حول الفوائد المترتبة عى إيجاد مستعمرات جديدة فى الظروف الحاضرة ، بمشروع شواسول . والحال إن المعهد الوطنى ، حديث التأسيس ، إنما ينبثق من وسط الأيديولوجيين جد المؤثرين فى السياسة الجمهورية .

وبونابرت يدرك ذلك ، فهو عند عودته من إيطاليا ، يصبح منتخبًا هو أيضًا فى المعهد ويبرز فى بياناته إلى الجنود انتماءه إلى تلك المؤسسة . وهكذا يظهر بونابرت وتاليران ، فى تلك اللحظة من تاريخهما ، كممثلين للأيديولوجيين فى الأوساط الحاكم[١] .

والواقع أن العودة إلى استقلال أوروبى نسبى ، منذ معاهدات بال فى عام ١٧٩٥م ، إنما تسمح بعودة ظهور مذكرات ، موجهة إلى المسئولين السياسيين الفرنسيين ، ترى إيجاد مستعمرة فرنسية فى مصر ، وما ذلك غير إمارة على أن تراخى الحرب الثورية يعيد المسئولين السياسين تدريجيًا إلى مشكلات ماقبل عام ١٧٩٢م .

وصلح كامبو - فورميو (١٨ أكتوبر ١٧٩٧م) مع النمسا لايترك بعد غير خصم عنيد واحد ، هو انجلترا . وبما أنها لاتملك بعد قاعدة للعمل على القارة فإن الصراع لايمكن مواصلة إلا عبر " نزول " على الجزر البريطانية أو عبر عمل يتم الاضطلاع به ضد الهند . هذا هو الخيار الذى تفرضه قوة الأشياء على زعماء " الأمة العظمى " .

وفى ٢٦ أكتوبر ١٧٩٧م ، يحمل بيرتييه ومونج ، رفيقا بونابرت الوفيان ، نص معاهدة كامبو - فورميو إلى باريس . ويتمثل القرار ، المتخذ فى اليوم نفسه من جانب (حكومة) الإدارة ، فى الأمر بتكوين جيش لحملة انجلترا تحت قيادة بونابرت . ويتولى قيادته بينما يشارك بونابرت فى مفاوضات راستان حول تطبيق بنود معاهدة كامبو - فورميو على ألمانيا[٢] .

ومنذ نهاية أكتوبر ١٧٩٧م بدأ الجهاز الإدارى لحكومة الإدارة فى تنظيم جيش انجلترا . إن النزول ممكن ، إذا ما توفرت ، فى لحظة محددة فى نقطة محددة ، هيمنة على البحر تكفى لنقل الجيش الفرنسى . ولكى يتسنى ذلك ، لابد من توافر المبادرة فى العمليات ولابد من توافر عدة نقاط ممكنة لحشد القوات سعيًا إلى إرباك انجلترا فيما يتصل بنوايا القيادة

---

(١) هنرى لورانس ، المرجع السابق ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(٢) نفسه ، ص ٣٠ .

الفرنسية . وسوف يجيء الجانب الرئيسي من " الجيش الكبير " في إيطاليا بينما يصدر بونابرت الموجود بعد في موقعة ، الأوامر الضرورية .

وهو يصل إلى باريس في ديسمبر ١٧٩٧م ، ويقابل لأول مرة تاليران . ويحمل فاتح إيطاليا معه التصديق الذي قدمه الإمبراطور على معاهدة كامبو - فورميو . ويقدمه إلى حكومة الإدارة في اجتماع مهيب في ١٠ ديسمبر ١٧٩٧م . ويتميز خطابه بالتصور السياسي شبه الخلاصي الذي تبناه الأيديولوجيين : " إن أجمل جزأين في أوروبا ، جد الشهيرين في سالف الزمان بالفنون وبالعلوم وبالعظماء ، واللذين كانا مهداً لهم ، يتطلعان بأعظم الآمال إلى انبثاق روح الحرية من أرماس أسلافهما " .

والحال أن روح الحرية ، الفكرة المألوفة للبلاغة الثورية ، قد أبرزها ڤولني في " الأطلال " في عام ١٧٩١م . وفي هذا النص ، فإنه يجعل الروح تتنبأ بانهيار الإمبراطورية العثمانية ، وبعث الأمم المكونة لها وبالدور القائد لـ " الأمة العظمى " في هذا المشروع . وفي ذلك العصر ، يعد الأيديولوجي ڤولني الولي الفكري والسياسي لبونابرت الشاب[١] .

والصورة واضحة ، فالمسألة هي مسألة بعث قومي ، كما أن بونابرت ينبه حكومة الإدارة : " عندما ترتكز - مادة الشعب الفرنسي على أفضل القوانين الأساسية . سوف تصبح أوروبا كلها حرة " .

والحال أن دستور العام الثالث بعد انقلاب ١٨ فركتيدور ، هو دستور بالغ الهشاشة بالرغم من استئناف الزخم الثوري لـ " الأمة العظمى " . وفي مراسلاته مع تاليران ، كان بونابرت قد فكر بالفعل في مشروع إصلاح دستوري ينطوي على تعزيز ملحوظ للسلطة التنفيذية على حساب السلطة التشريعية [٢].

حدثت بعض التطورات ، فقد كان هناك مشروع لحكومة الإدارة لاحتلال الجزر البريطانية ، وحددت حكومة الإدارة المشاركة في جيش حملة إنجلترا ، ويتجه بونابرت إلى فحص الإمكانات التي تتيحها الموانيء المواجهة للأراضي المنخفضة . ويوجه بونابرت إلى حكومة الإدارة تقريراً لايخفي مصاعب المشروع ، ويقدم مشروعًا ثانيًا فهو القيام بحملة في شرق البحر المتوسط من شأنها تهديد تجارة الهند[٣] والاستيلاء على مصر . وتجد حكومة الإدارة

(١) هنري لورنس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٣٠ .
(٢) نفسه ، ص ٣١ .
(٣) نفسه ، ص ٣٤ .

نفسها مضطرة إلى التخلى عن مشروع النزول فى انجلترا والذى اعتبره العسكريون غير عملى. ومن شأن التدخل فى ألمانيا أن يعقد وضعًا شائكًا بالفعل وأن يهدد باشعال الحرب القارية . ومشروع فتح مصر مشروع بالغ الجاذبية . وبوسعه أن يجبر انجلترا على عقد صلح يعترف بهيمنة الأمة العظمى على القارة الأوروبية . وبدأ الاستعداد بالجيش والأسطول ، وصدرت التعليمات إلى نابليون بقيادة الحملة . ولقد اتهمت حكومة الإدارة في قرارها الذى أصدرته بكوات المماليك بالتحالف مع البريطانيين وأنهم نتيجة لذلك قد ضيقوا الخناق على المصالح الفرنسية وعاملوا الرعايا الفرنسيين معاملة سيئة فى مصر . ولقد تعرّض البيان إلى الاحتلال البريطانى لرأس الرجاء الصالح وعرقلة وصول الفرنسيين إلى الهند وطلب من نابليون ضرورة فتح طريق آخر إلى الهند . وتتلخص المهام التى كلف بها القائد العام لجيش الشرق فيما يلى : أن يستولى على مالطة ويطرد الإنجليز من مؤسساتهم فى الشرق ما أستطاع إلى ذلك سبيلاً ، وأن يشق برزخ السويس ، وأن يحسن الأحوال المعيشية للوطنيين فى مصر ، وأن يحتفظ بالعلاقات الطيبة مع الباب العالى [١].

وفى مايو ١٧٩٨ غادر جيش الشرق ميناء طولون . وهكذا كان قرار حكومة الإدارة بإرسال حملة عسكرية لاحتلال مصر مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالحرب مع انجلترا ، وساد الاعتقاد بأن الحملة لن تلقى فى مصر أى مقاومة عسكرية خطيرة. كما أن الدولة العثمانية لن تعارض هذا الأمر فكانت تأمل أن يرضى السلطان عنها لمحاربها المماليك والقضاء عليهم[٢] . وكانت وجهة الحملة هى جزيرة مالطة ، وهكذا أصبح احتلال مصر أمراً مقرراً وبدأ تسلسل الأحداث .

وصلت الحملة الفرنسية إلى جزيرة مالطة فى يونيو ١٧٩٨م ، وكانت تحت حكم فرسان القديس يوحنا ، واستولى عليها بونابرت بسهولة نسبية ، وترك بها ثلاثة آلاف جندى ، وجند بدلهم ما يقرب من الألفين من أبناء الجزيرة أخذهم معه عند سفره منها ؛ كما أخذ معه منها الأسرى من الترك والعرب والمغاربة ، الذين كانوا يعملون فى التجديف ويجبرون على القيام بالأعمال الشاقة لاستغلالهم فى مصر [٣].

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ١٧٩٨ - ١٩١٤م ، الاسكندرية ١٩٧٢ ، ص٣٣ .

(٢) نفسه ، ص ٣٤ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ١٥١٧ - ١٧٩٨ ، الاسكندرية ، بدون تاريخ ، ص ٣٤٣ .

وكان الأسطول البريطاني يراقب البحر المتوسط ، حتى يعرف وجهة الأسطول الفرنسي ، ويشتبك معه ويحطمه . وحضر أسطول الإميرال نلسون إلى الاسكندرية في يوم ٢٨ يونيو ، ولم يكن الأسطول الفرنسي قد وصل إلي هذه المدينة بعد ، نتيجة لقيامه بالاستيلاء عي مالطة. ووقف الأسطول البريطاني في عرض البحر ، وإن كانت وحداته في مدى رؤية أهل الثغر . ثم أرسلوا " قايق " صغير يحمل عشرة أفراد ، للتفاهم مع سلطات الميناء ، وقابلوا السيد محمد كريم أمين الجمرك ، وأفهموه أنهم حضروا للتفتيش عن الفرنسيين الذين خرجوا بعمارة كبيرة ، لايعرفون وجهتها ، وقد يقوموا بمهاجمة الاسكندرية ، ولاتتمكن سلطات المدينة من دفعهم ، ولا من منعهم من الاستيلاء على الاسكندرية . ولكن السيد محمد كريم لم يأمن لهذا القول ، واعتقد في أنها ربما تكون خدعة من جانب الإنجليز ، لاحتلال المدينة بدعوة مساعدة المصريين على صد الفرنسيين القادمين ؛ وجاوبهم المصريون " بكلام خشن " . وعرض الإنجليز أن تقف سفنهم في عرض البحر ، لملاقاة القادمين ؛ وقالوا أنهم لايحتاجون إلا للتموين بالماء والزاد وبثمنه ، ولكن سلطات المدينة رفضت هذا العرض ، وذكرت أن هذه البلاد كانت بلاد السلطان ، وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل فاذهبوا عنا " فاضطر الإنجليز إلى الانسحاب ، واستمروا في عملية تفتيشهم عن الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط[1].

وفي ٢٨ يونيو أذيع على الجند المنشور الموجه إلى الجيش والذى حرر بونابرت قبل ذلك بستة أيام ، وهذا نصه :

أيها الجنود .

إنكم موشكون على فتح له آثار بعيدة المدى في حضارة العالم وتاريخه . وستطعنون انجلترا طعنة تؤذيها لا محالة في أضعف مواطنها ، انتظاراً لليوم الذى تسددون فيه إليها الطعنة القاتلة .

سيقتضينا الأمر بعض الزحف المضنى ، وسنخوض بعض المعارك ، وسننتصر في جميع مغامراتنا ؛ لأن الحظ معنا .

ولن تنقضى على نزولنا البر أيام حتى نقضى على بكوات المماليك الذين لايرعون غير التجارة الإنجليزية ، والذين يظلمون تجارنا بمعاكساتهم ، والذين يستبدون بأهل وادى النيل الاشقياء .

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٣٤٤ .

إن القوم الذين سنعيش معهم مسلمون . وعقيدتهم الأساسية هى : " لا إله إلا الله محمد رسول الله " .

فلا تعارضوهم . واسلكوا معهم كما سلكتم فى الماضى مع اليهود والإيطاليين . واحترموا شيوخهم وأئمتهم ، كما احترموا شيوخ اليهود وأساقفة المسيحيين .

وأظهروا من التسامح نحو الشعائر التى يقضى بها القرآن ونحو المساجد مثلما أظهرتم نحو الأديرة ومجامع اليهود ، ونحو ديانة موسى وديانة المسيح .

لقد جرت الفرق الحربية الرومانية على أن تحمى جميع الأديان . وستجدون هنا عادات تختلف تمام الاختلاف عن العادات الأوروبية ؛ فلابد أن تروضوا أنفسكم عليها .

إن أهل البلاد التى سندخلها يعاملون نساءهم معاملة مختلفة : ولكن الرجل الذى يهتك عرض امرأة يعتبر فى جميع البلاد وحشًا .

أما السلب والنهب فلا يثرى منه إلا الأقلون . وهو يجللنا بالعار ، ويقضى على مواردنا ، ويثير علينا عداء الشعب الذى تنشد صداقته .

إن أول مدينة سنشهدها بناها الاسكندر . وسنجد فى كل خطوة آثار أعمال جديرة بأن ينسج الفرنسيون على منوالها "(١).

وفى ٢٩ يونيو وصلت إحدى القطع الحربية الفرنسية إلى الاسكندرية لإحضار قريب مجالون قنصل فرنسا فى الاسكندرية لمقابلة نابليون ، ولقد أخبره مجالون بمجىء الأسطول الإنجليزى إلى شواطىء الاسكندرية بحثًا عن الفرنسيين . ولقد غيرت هذه الأنباء خطة نابليون وقام بإنزال جنوده تجاه ساحل العجمى ظهر أول يوليو ١٧٩٨م . وبدأت فرق كليبر ومينو وبون بالزحف على الاسكندرية فى الفجر ، وفى الصباح وصلت الطوابير الفرنسية إلى حصون الاسكندرية الخارجية وبعد نزول الحملة بادر السيد محمد كريم إلى إخبار مراد بك بقدوم الأسطول الفرنسى ، وأرسل إليه فى تلك الليلة ثلاثة عشر رسولاً يطلب النجدة . وبذل أهل الاسكندرية كل مافى مقدورهم دفاعًا عن المدينة ، ولكن المقاومة لم تدم طويلاً فاقتحم الفرنسيون الأسوار ودخلوا المدينة ، ولقد قاومت قلعة الفنار – التى كان يتولى قيادتها السيد

---

(١) ج . كرستوفر هيرولد ، بونابرت فى مصر ، ترجمة فؤاد اندراوس ، مراجعة محمد أحمد أنيس ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٨٠ – ٨١ .

محمد كريم إلى ساعة متأخرة من الليل كما نشب القتال فى شوارع المدينة ويؤخذ من تقرير نابليون إلى حكومة لإدارة أن " كل بيت كان قلعة " . وفى رواية لأحد جنود الحملة أن الرصاص انهال عليهم من داخل المساجد ، ولكنهم لم يراعوا حرمة هذه الأماكن فاقتحموها ولم يبقوا فيها على أحد . ولكن سلمت المدينة فى النهاية وسلم حاكم المدينة القلعة ، وكف عن القتال وأبقاه نابليون حاكمًا للاسكندرية ، وليس أدل على شجاعة السكندريين ما كتبه الجنرال مينو إلى نابليون يقول : إن الجنود يستحقون الثناء العظيم على مابذلوه من الإقدام والهمة والذكاء وسط المخاطر العظيمة التى كانت تحيط بهم لأن الأعداء " الأهالى قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم ".

أما احتلال القاهرة ، فقد ترك بونابرت كليبر حاكمًا على الاسكندرية ، كما قرر أن يعهد إلى الجنرال منو بالحكم فى رشيد عند الاستيلاء عليها ، وانتقلت قيادة جيشه إلى الجنرال فيال Vial . وفى مساء ٣ يوليو بدأ الزحف على القاهرة . فأرسل بونابرت دوجًا للاستيلاء على رشيد ، وإعداد حملة نيلية تسير فى النيل حتى تلتقى عند الرحمانية بسائر الجيش الزاحف براً. كما أرسل برى Perrée ، مع أسطول صغير من المراكب الخفيفة ، إلى مصب النهر للدخول في النيل عند استيلاء دوجا على رشيد . وبدأ الجيش زحفه فى طريق الصحراء الشاق إلى القاهرة فاجتمعت مختلف الفرق فى دمنهور فى ٧ يوليو ، وفى هذا اليوم نفسه غادر بونابرت مع هيئة أركان حربه الاسكندرية ثم استأنف الجيش زحفه من دمنهور إلى الرحمانية ثم إلى شبراخيت وبالقرب من شبراخيت اشتبك الفرنسيون مع فرسان مراد بك فى معركة حتكية ١٢ يوليو لم يلبث أن انهزم فيها مراد بك واضطر إلى التقهقر صوب القاهرة . وكان فى هذه المعركة أن شكل بونابرت جيشه فى هيئة مربعات خمسة ، حتى يدفع عنه غائلة فرسان المماليك . ثم واصل الجيش زحفه على القاهرة[(١)] .

ولم يكن هذا الزحف " نزهة عسكرية " ، بل لقى الجند فى أثنائه شدائد وصعوبات كثيرة ، حتى سرت بينهم روح استياء خطيرة ، وكان أشد الناقمين أولئك الذين رسخ اعتقادهم من ذلك الحين بأن فولنى وسافارى وغيرهما من الرحالين الفرنسيين الذين زاروا هذه البلاد ، ووصفوا خصوبة أرضها ، ووفرة خيراتها ، واعتدال مناخها وما كان بها من مدن جميلة ، قد غرروا

(١)محمد فؤاد شكرى ، عبد الله چاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٨٧ -٨٨.

بمواطنيهم الذين صدقوا هذه الأكاذيب وآمنوا بها . فكان هذا الاستياء منشأ ذلك الانقسام، الذى استفحل أمره فيما بعد بين أنصار الاستعمار فى مصر والراغبين فى الجلاء عنها . فأفصح كثيرون من ضباط الحملة عن هذا الاستياء ؟ خصوصًا فى تلك الخطابات التى بعثوا بها إلى ذويهم فى فرنسا ، ووقعت فى أيدى أمراء البحر الإنجليز بعد ذلك . فكتب بواييه Boyer وغيره عما يقاسيه الجنود الفرنسيون من معاناة ومشقة طوال طريقهم من حرارة الشمس وتعقب العربان لهم ، وقتلهم للجنود المتخلفين . وعلى الرغم من ذلك كسبوا معركة شبراخيت[1] . ثم وصلوا إلى أم دينار فى ١٩ يوليو ثم واصلوا سيرهم ، وفى ٢١ يوليو اشتبكوا مع قوات المماليك بقيادة مراد بك فى معركة إمبابة الفاصلة أو الأهرام . وحلت الهزيمة بمراد ، فانسحب بفلول جيشه إلى الصعيد . أما إبراهيم ، الذى وقف بجيشه على ضفة النيل اليمنى عند بولاق ، ولم يحرك ساكنًا للاشتراك فى المعركة ، فقد حمل أمواله ونفائسه ، وقصد مع جماعته إلى بلبيس فى طريقه إلى الشام ، وقد صحبه أبو بكر باشا نائب السلطان فى حكم مصر ، ولما كان البكوات قد تركوا القاهرة دون اتخاذ أى إجراء للدفاع عنها ، فقد ساد الذعر وعم الاضطراب القاهرة ، وقرر المشايخ والعلماء تسليم المدينة ، فأرسلوا الرسل إلى بونابرت ، وكان لايزال بالجيزة ، يستفسرون عن مقاصد الفرنسيين ، ويطلبون " أمانًا " منهم لبعث الطمأنينة فى نفوس القاهريين ، وأجاب نابليون رغبتهم ، فذهب المشايخ لمقابلته وفى ٢٤ يوليو دخل بونابرت القاهرة ، بعد أن احتل جزء من الجيش مصر القديمة وبولاق والقاهرة ذاتها . ووقف ديزيه على مسافة فرسخين من الجيزة فى طريق الصعيد ، وأرسلت القوات لحراسة طريق الشام ، وفى ٣ أغسطس بدأت مطاردة الفرنسيين لقوات إبراهيم بك ، وأرسل بونابرت الجنرال رينيه لتعزيز طلائع الجيش الزاحف فى الشرقية ، بقيادة الجنرال لكليرك Leclerc ، فاحتلوا الخانكة ، ثم قصد بونابرت نفسه إلى بلبيس فبلغها فى ٩ أغسطس ولكنه لم يجد بها ابراهيم بك الذى غادرها إلى الصالحية . وفى ١١ أغسطس اشتبك الفرنسيون مع ابراهيم بك بالقرب من الصالحية ، فأظهر فرسان المماليك براعة وجسارة فائقة ، حتى كاد النصر يفلت من بونابرت ، لولا أن وصلت إليه النجدات سريعًا ، وقد ساعده انشغال ابراهيم بك برد اعتداء العربان على متاعه فى إحراز نصر كلفه جهداً بالغًا . فانسحب ابراهيم

---

(١)محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص٨٨ .

إلى سيناء ، وعاد بونابرت إلى القاهرة ، وفى أثناء عودته إلى القاهرة بلغه فى ١٣ أغسطس نبأ تحطيم الأسطول الفرنسى فى واقعة أبى قير البحرية (١) .

٤ – معركة أبى قير البحرية :

لكن نلسون هو الذى يصل فى أول أغسطس مع أسطوله . والفرنسيون لايتوقعون وصوله بعد . فقد ركنوا إلى أنه قد اضطر إلى العودة إلى غربى البحر المتوسط لإعادة التزود بالمؤن وللاهتمام بالإصلاحات التى تتطلبها إقامة طويلة فى البحر . ولم يتوقعوا الاستقبال الذى تم فى سيراكوز والذى سمح للإنجليز بكسب وقت ملحوظ للتزود بالمياه والمؤن الغذائية بفضل نفوذ السير ويليام هاميلتون والليدى هاميلتون على بلاط نابلى . وقد تسنى لنلسون العودة بسرعة إلى عرض البحر ، لكن مملكة نابلى تعتبر فى نظر الجمهورية الفرنسية متهمة بانتهاك خطير لحيادها . وهو ما سوف يكون أحد الأسباب الرئيسية لاستئناف الحرب فى إيطاليا .

وفى أول أغسطس ، فى بداية مابعد الظهيرة ، يرصد البحارة الفرنسيون السفن الشراعية الإنجليزية . وبعد مجلس حرب قصير ، يقرر بروى التمسك بقراره الخاص بالقتال من المواقع الثابتة . ويمسك نلسون بزمام المبادرة فى العمليات ، ويرى تركيز نيران سفنه الموضوعة فى المواقع الأنسب ، على رأس ووسط صف السفن الفرنسية . وعندئذ يلاحظ أنه يملك الموقع وخاصة العمق الكافى اللازم للسماح لسفنه بالمناورة بين الضفة والصف الفرنسى . ومن ثم يمكنه اجتياح هذا الأخير بين نارين ، وجسارته تسمح له بألا يقوم إلا باختيارات سريعة فى منطقة لم يقم فيها البحارة الفرنسيون بأى شىء على مدار شهر (٢) وفى خليج أبى قير فاجأه نلسون ، أمير البحر الإنجليزى ، فأنزل بالفرنسيين هزيمة بالغة ، وكان لهذه المعركة نتائج خطيرة (٣).

ذلك أن تحطيم الأسطول الفرنسى فى أبى قير كبد البحرية الفرنسية خسارة جسيمة ، وقضى على كل أمل فى إمكان إحياء هذه البحرية ، التى كانت قد ضعفت ضعفًا كبيرًا فى أثناء الحروب الأخيرة ، فى المياه الأوروبية ، وفى المياة الأمريكية وفى مياه الهند الغربية خاصة .

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ٩٠ .

(٢) هنرى لورنس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ١٧٨ .

(٣) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ٩١ .

فظل الإنجليز أصحاب السيطرة فى البحار ، وكان من أثر تأييد سلطانهم فى البحر المتوسط ، بعد أن حطموا أسطول بروى ، أن فرضوا حصاراً شديداً على الشواطىء المصرية ، حتى بات من المتعذر تماماً على فرنسا أن ترسل النجدات - العتاد الحربى أو أية إمدادات أخرى - إلى جيش الشرق فى مصر ولم يسع الفرنسيين حينئذ إلا أن يعتمدوا اعتماداً كلياً فى تدبير شئونهم ، وسد حاجات حملتهم فى هذه البلاد ، على موارد القطر الداخلية وحدها . وكان لذلك أكبر الأثر فى تلك السياسة الإسلامية الوطنية ، التى أرشد إليها تاليران فى تقريره إلى حكومة الإدارة (فى ١٣ فبراير سنة ١٧٩٨م) ووطد بونابرت العزم على اتباعها . وكان غرضها استمالة المصريين إلى تأييد الحكم الفرنسى ، وإقناعهم بأن الفرنسيين ما حضروا إلى بلادهم إلا ليعدلوا بينهم ، ويهيئوا لهم سبل العيش السعيد ، فلا يشعر المصريون أنهم إنما استبدلوا بحكم البكوات المماليك حكماً لايقل عنه ظلماً وعدواناً ، أو قد يفوقه فى شروره وآثامه . فأصبح غرض هذه السياسة الإسلامية ، توفير أسباب الحياة للفرنسيين أنفسهم ، وترويض المصريين بشتى الأساليب على قبول حكم أجنبى عنهم ، لم يكن هناك مندوحة عن أن يسبب لهم إرهاقاً عظيماً ، فثاروا ضده ، وتعسف الفرنسيون معهم ، حتى انعدم كل أمل فى حدوث أى " تفاهم " بين الفريقين ، أو إمكان تعاون أهل البلاد مع حكامهم الجدد على الرغم من كل تلك الأساليب التى ابتكرها بونابرت عند " تطبيق سياسته الإسلامية الوطنية فى مصر[1].

واستندت سياسة بونابرت الإسلامية الوطنية إلى قواعد ثلاث : احترام الدين الإسلامى ، والمحافظة على تقاليد أهل البلاد وعاداتهم الدينية وانتزاع المصريين من أحضان الخلافة العثمانية ، ببذر بذور التفرقة بين المصريين والعثمانيين ، والقيام بدعاية واسعة بين الشعوب الإسلامية فى الأقطار المجاورة ، لإظهار مبلغ احترام الفرنسيين للدين الإسلامى والمسلمين ، ولإقناع كبار حكامهم بأن إنشاء صلات الود والصداقة مع الفرنسيين فى مصر ، واستئناف النشاط التجارى بين بلادهم وبين مصر ، سوف يعود بفوائد كبيرة على هؤلاء الحكام ، وأخيراً إنشاء حكومة وطنية لتكون أداة تمكنه من معرفة رغبات المصريين ، والوقوف على حقيقة نياتهم وآرائهم ، ويتخذ منها وسيلة لإذاعة أوامره وتحقيق مآربه بصورة تضمن استقرار الحكم الجديد . وعدم انتفاض المصريين عليه . وقد كانت هذه ولاشك وسائل تدل على الحكمة وأصالة

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ٩١ .

الرأي ، ولم يكن ثم مناص من نجاحها في دعم أركان المستعمرة الجديدة ، لو أن بونابرت نفسه، وقادة الحملة من بعده ، وسائر الفرنسيين ، عرفوا كيف يسلكون الطريق السوى فى علاقاتهم مع المصريين ، أو أن هؤلاء المصريين قد بلغوا من قصر النظر وقلة الدراية حداً ، يسدل ستاراً كثيفًا على أعينهم ، حتى يصدقوا دعاوى الفرنسيين العريضة ويؤمنوا بها[1] .

ومنذ أن دان له الحكم فى القاهرة ، حرص بونابرت على توصية قواده وضباطه ورجال المملكة عمومًا فى القاهرة والأقاليم أن يظهروا على الدوام احترامهم العظيم لعقيدة أهل البلاد وشعائر دينهم وتقاليدهم . وفضلاً عن ذلك فقد رأى بونابرت فى مناسبات عديدة ، أن يظهر هذا الاحترام بصورة واضحة : اعتقد واعتقد كثيرون غيره أن من شأنها إقناع المصريين بصدق دعاوى حكامهم الجدد . وواتت الفرص بونابرت بعد أسابيع قليلة من دخولهم القاهرة ، للاشتراك مع المصريين فى احتفالاتهم القومية وأعيادهم الدينية . فترأس مهرجان قطع الخليج، وأقام الاحتفال بالمولد النبوى الشريف وطلب إلى الجنرال مارمون Marmont (فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٨م) أن يزور الشيخ المصرى لمناسبة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ويبسط له القول عن اجتماعه بالعلماء والمشايخ فى القاهرة ، وعن اقتناعه العظيم بقدسية دين محمد ﷺ وطهره ونشرت « صحيفة لوكورييه دوليجبت » بأول أعدادها وصفًا رائعًا لهذا الاحتفال، وبعث بونابرت بهذه الصحيفة إلى كليبر حاكم الاسكندرية حتى يطبع من هذا الوصف بعد ترجمته نسخًا عدة يذيعها فى جميع بلاد المشرق[2].

ومع ذلك فقد ثابر بونابرت على سياسته الإسلامية الوطنية ، وكان من وسائله محاولة فصم تلك العلاقات الدينية ، التى ظلت تربط بين المصريين والعثمانيين من أزمنة قديمة وبعث آمال المصريين فى نصرة الإسلام ، وإقناعهم بأن الإسلام فى وسعه أن يكسب قوة جديدة ، إذ نهضت القاهرة نهوضًا يرقى بها إلى مصاف المراكز الدينية الهامة فى العالم الإسلامى ، فتشغل إلى جانب مكة المكرمة مكان الزعامة فى هذا العالم على أن يتم ذلك كله بالتعاون بينهم وبين الفرنسيين ، وعلى ذلك فإنه ما إن ساءت علاقة بونابرت بالسلطان العثمانى ، وانضمت الدولة العثمانية إلى جانب الإنجليز والروس فى إعلان الحرب ضد فرنسا ، على أن تحطيم بروى فى معركة أبى قير البحرية خاصة ، حتى شرع بونابرت يبذر بذور التفرقة بين

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ٩٢ .

(٢) نفسه ، ص ٩٦ .

المصريين والعثمانيين ، ويظهر السلطان العثمانى فى صورة من أصبح لايهتم بمصلحة الإسلام، ولا يحرص على الشريعة الإسلامية . وكان من دعاواه فى ذلك أن السلطان ظل متمسكًا بعلاقات الود والصداقة مع فرنسا ، طالما أنها كتانت هذه أمة عريقة فى مسيحيتها ، حتى إذا تبدلت الأحوال بها ، وأضحى الفرنسيون أكثر عطفًا على الإسلام والمسلمين ، وأقرب ميلاً إلى تفهم العقيدة الإسلامية ، نبذ السلطان صداقتهم ؛ فإذا كان ذلك مسلك الأتراك العثمانيين مع هذه الدولة الصديقة ، التى ظلت على ولائها لهم من قديم الزمان ، فإن هؤلاء ولاشك سوف يعجزون عن المحافظة عى تراث الإسلام ولامفر من أن تقتسم الدول المسيحية ، وفى مقدمتها روسيا وألمانيا ، أملاك العثمانيين الإسلامية فيما بينها (١).

ومنذ بداية سبتمبر ، بيد امتلاك الدلتا ، بالرغم من العمليات التى ماتزال جارية متقدمًا بما يكفى فى نظر بونابرت ، بحيث يتسنى له اتخاذ قرار بعقد ديوان عمومى فى القاهرة لعموم مصر . ويتعين على كل إقليم أن يرسل إليه وفداً مؤلفًا من ثلاثة " فلاحين من مشايخ البلد وزعماء العرب " . ويتعين على الجنرالات اختيار هؤلاء الأعيان " من بين الأشخاص الأوسع نفوذاً بين الناس ، والأكثر تميزاً فى البلاد بمعارفهم ومواهبهم وأسلوب ترحيبهم بالفرنسيين : وعليهم أن يحرصوا على عدم اختيار أحد من أولئك لذين يقفون ضدنا - الفرنسيين - بشكل سافر " وموعد الاجتماع (الأول من أكتوبر ١٧٩٨م) وبسبب تأخر وصول بعض الوفود يجرى تأجيله إلى (٥ أكتوبر) .

وفى ذلك اليوم ، تبدو عملية تهدئة الدلتا ناجزة وتسمع أمور كثيرة يتوقع انحياز عام إلى صف الفرنسيين . على أن الحدث الرئيسى ، والذى يتمثل فى دخول الإمبراطورية العثمانية إلى الحرب وحملة الدعاية التى تلته ، سوف يقلب الوضع (٢).

٥ - موقف الباب العالى :

لم يكتب تاليران إلى روفان Pierre Ruffin القائم بأعمال فرنسا فى أستانبول لينهى إليه نبأ الحملة على مصر إلا فى ١١ مايو قبيل إقلاع الأسطول الفرنسى مباشرة . وطلب إليه أن يقنع الباب العالى بأن الحكومة الفرنسية لاتنوى القيام بأى عمل عدائى ضده ، وأن يعلن قرب

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٢) هنرى لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٢٢ .

وصول مفاوض فرنسى تخول له كامل السلطات . ولم يصل الخطاب إلى روفان إلا فى ٢٨ يونيو عشية نزول الفرنسيين الاسكندرية . وعلى حين ظل روفان يجهل مشروع الحملة تماماً ، كانت الحكومة العثمانية على علم بالاستعدادات الفرنسية منذ شهر مايو بفضل سفيرها فى باريس . وفى ١٩ يونيو علم روفان بالحملة فى مقابلة تمت بينه وبين الريس أفندى (وزير خارجية الدولة العثمانية) وثارت شكوك الباب العالى حول أهداف فرنسا لاسيما أن فرنسا لم ترسل سفيراً لها فى الآستانة ليفسر لها نواياها بل إن بونابرت تدخل فى الشئون الداخلية للدولة العثمانية فأجرى مفاوضات مع على باشا والى يانينا وأرسل الرسل إلى اليونان يحرضهم على الثورة . وكان مما ضايق الحكومة العثمانية دون إنذار أو إيضاح . ولكن الباب العالى لم يكن من القوة بحيث يعلن الاحتجاج ويندفع ويتهور . وكان على الدولة العثمانية أن تختار بين أمور ثلاثة :

الأمر الأول أن تقاوم الحملة الفرنسية علانية وبقوة السلاح .

والأمر الثانى أن تتحالف مع الجمهورية الفرنسية .

والأمر الثالث أن تتظاهر بموافقتها على بقاء مصر فى أيدى الفرنسيين ولكن تعمل سراً على إقامة العراقيل فى طريقهم [١].

وبالنسبة للأمر الأول فقد كان لدى العثمانيين أكثر من سبب يمنعهم من اتخاذ هذا الإجراء. فلكى يحققوا ذلك كان عليهم أن يعقدوا معاهدات مع أعدائها التقليديين ، وهذا يعرض أمن الإمبراطورية لتهديد القوات الروسية والنمسوية التى ستهرع عندئذ لنجدتها . وبالإضافة إلى ذلك فإن الجنود الفرنسيين الذين يرابطون فى جزر الإيونيان يستطيعون بسهولة السير إلى الآستانة ومعاقبة الباب العالى قبل وصول حلفائه ولم تستطع الإمبراطورية العثمانية بدافع الكرامة أن تختار الطريق الثانى . أما الأمر الثالث فقد كان مطابقاً لروح الحكومة العثمانية ، فقد صرح السلطان العثمانى بأنه لن يفرط فى حفنة من رمال مصر ويطالب المماليك بألا يثقوا فى مناورات الكفرة ، ويعدهم بإعطائهم كل مدد ونجدة ، فإنه فى الوقت نفسه يرسل إلى الولايات منشوراً لكى توضح أن الفرنسيين مايزالون أصدقاء الإمبراطورية العثمانية ولابد أن يعاملوا معاملة حسنة بالرغم من أن " شريراً يدعى نابليون قد غزا مصر " ، وهو خارج على

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، ص ٥٠ .

سلطة الحكومة الفرنسية التى لابدلها فى ذلك . وكان هذا ما توهمه العثمانيون ، فلقد أوضح تاليران - بعد معركة أبى قير بيومين - فى خطاب سرى لروفان ، النوايا الحقيقية للحكومة الفرنسية . قال : " إن جميع تجارة البحر المتوسط يجب أن تنتقل إلى أيدى الفرنسيين . تلك هى الرغبة الحقيقية لحكومة الإدارة ، ثم أنها ستكون النتيجة المحتومة لمركزنا فى ذلك البحر . ومصر التى كانت فرنسا تتمنى على الدوام الاستيلاء عليها هى بالضرورة من نصيب الجمهورية . ومن حسن الحظ أن أتاح لنا موقف المماليك ، الذى غلبت عليه الوقاحة والوحشية باستمرار وعجز الباب العالى عن الانتصاف لنا منهم ، أن ندخل جيشنا فى مصر وأن نثبت أقدامنا فيها دون أن نعرض أنفسنا لتهمتى الاغتصاب والجشع... إن الإدارة مصممة على الاحتفاظ بمركزها فى مصر بكل الوسائل الممكنة (١).

وهكذا لم تقطع الدولة العثمانية علاقاتها الرسمية بفرنسا ، واكتفى العثمانيون بالتضييق على روفان وظل الأمر كذلك حتى ٢٢ أغسطس عندما وصلت أنباء تدمير الأسطول الفرنسى فى أبى قير والذى وصل إلى إستانبول نحو ٢٢ أغسطس ١٧٩٨م . إنما يعزز إرادة القتال لدى العثمانيين . وفى ٢ سبتمبر ، يجرى احتجاز الدبلوماسيين الفرنسيين ، وفقًا للعرف فى قصر الأبراج السبعة . والحال أن تاليران ، الذى كان قد أدرك بسرعة أن وضع سفير فى أستانبول ينذر بألا يكون سعيداً البتة ، كان قد تخلى منذ وقت طويل عن هذا المنصب وعين فيه السفير السابق للمؤتمر ، ديكورش دون سان - كروا ، وكان هذا الأخير قد أجرى استعداداته ، لكن قطع العلاقات الدبلوماسية يحول دون رحيله . والواقع أن الباب العالى ينشر فى ٩ سبتمبر ١٧٩٨ ببيانه الحربى : إن فرنسا قد خانت بفظاعة الصداقة لتقليدية التى كانت تربطها بالباب العالى وهذه الخيانة جد مشينة ، بقدر ما أن الإمبراطورية العثمانية ، خلال إئتلاف دول أوروبا ضد فرنسا ، قد تمسكت بحياد عطوف وسمحت بإمداد فرنسا التى تتهددها المجاعة بالمؤن ، وكان جزاء ذلك أن فرنسا قد انتهجت سياسة تخريب فى الولايات الأوروبية للأمبراطورية ، ثم أقدمت على مهاجمة مصر مع سعيها إلى كسب الوقت عبر مناورات تسويفية لدى الباب العالى .

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، ص ٥١ .

وأعلن الجهاد ضد فرنسا ، وأرسل الباب العالى سلسلة بأكملها من الفرمانات إلى مختلف الأقسام الإدارية للإمبراطورية لتجنيد القوات [1]. ويصبح الشئ الأهم هو التعرف على رأى أحمد باشا الجزار ، فإذا ما أختار هذا الأخير الوفاق مع الفرنسيين ، فإن وضع الباب العالى سوف يصبح صعبًا . ومما يسعد هذا الأخير أن سيد عكا قد أدرك أن الفرنسيين فى مصر يشكلون خطراً أعظم بكثير على سلطته من خطر الباب العالى ، الأبعد بكثير ، والذى يحتفظ معه دائمًا ، بوجه عام ، بعلاقات طيبة . وهو يتصل من تلقاء نفسه بالإنجليز الذى يبدى لهم رغبة في القتال [2].

تأثر قرار الدخول فى الحرب بالضغوط الروسية أيضًا . على أن بول الأول كان قد أبدى فى بداية عهده رغبته فى اتباع سياسة سلمية وساعية إلى تضميد الجراح بعد الحروب الطويلة التى خيضت فى زمن كاترين العظيمة . ولكن وجود الفرنسيين فى البحر المتوسط ، وخاصة فى البحر الأدرياتى ، إنما يشكل فى نظر حكومته خطراً على الأطماع الروسية فى المنطقة . وقد جرى تفسير حشد القوات فى طولون بوصفه علامة تهديد وشيك لروسيا ، ويتم وضع أسطول البحر الأسود فى حالة استنفار . ويقود الاستيلاء على مالطة إلى اتخاذ قرار بمحاربة فرنسا : فمن اللازم حشد جيش يتألف من ستين ألف رجل على الحدود الروسية - العثمانية ، ويتمركز الأسطول البحرى الروسى على مقربة من المضائق ، ومنذ ٢٤ يوليو يجرى اقتراح تحالف على انجلترا .

وهكذا يجد الباب العالى نفسه مدفوعًا إلى التعاون مع روسيا ، وترسو السفن الروسية قبالة إستانبول فى ٢ سبتمبر ١٧٩٨م ، وتبدأ المحادثات العسكرية فى ٥ سبتمبر . وبالرغم من المطالب الإنجليزية ، فإنه يجرى إيلاء الأولوية للبلقان . والحال أن الجزء الرئيسى من الأسطول العثمانى ، الذى أصبح من جديد مهمًا بفضل عمل سليم الثالث ، يجرى إرساله للاستيلاء على جزر البحر الأيونى ، بالتعاون مع الأساطيل الروسية . وينجز الفريقان حشدهما فى ١٩ سبتمبر فى عرض الدردنيل الذى يغادرانه فى الأول من أكتوبر . وتسقط الجزر بسرعة فى أيدى العثمانيين والروس وعندئذ يجرى حصار كورفو ، القاعدة الفرنسية الرئيسية وسوف يقاومه الجنرال شابو حتى ٣ مارس ١٧٩٩م [3].

---

(١) هنرى لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٢) نفسه ، ص ٢٤٠ .

(٣) نفسه ، ص ٢٤٠ .

وكانت انجلترا قد أولت الأولوية للدفاع عن الهند . وبمجرد تلقى خبر رحيل الفرنسيين فى لندن ، سارع دونداس ، الذى كان آنذاك وزيراً للحربية ، بإصدار الأمر بإرسال تعزيزات إلى الهند . وبما أن قوات انجلترا البرية ضعيفة ، فإنها ستضطر إلى سحب قوات من البرتغال ، بالرغم من التهديدات الفرنسية لهذا البلد . والمسافة جد طويلة لأنه يتعين المرور عبر طريق رأس الرجاء الصالح . ويأمل البريطانيون فى أن تصل قواتهم إلى الهند قبل الجيش الفرنسى الذى تصوروا أنه سوف يتجه إليها عبر البحر الأحمر . ومن ثم فمن باب الاحتياط يتعين حصار ذلك البحر . والباب العالى نفسه هو أول من يقترح إرسال أسطول إنجليزى إلى البحر الأحمر بالرغم من قرب المدينتين المقدستين ، ومن ثم فإن الخطر العثمانى القديم يختفى بسبب الظروف (١) .

وفى ٥ يناير ١٧٧٩م عقدت بريطانيا محالفة مع الدولة العثمانية . وقعها من الجانب البريطانى كل من سدنى سميث Sir Sidney Smith وسبنسر سميث ، وجاء فيها " أن جلالة ملك بريطانيا الذى تربطه بإمبراطورية روسيا أواصر المحالفة الوثيقة ، قد انضم الآن فى هذه المحالفة « المبرمة بين انجلترا والدولة العثمانية » إلى المحالفة الدفاعية التى تم إبرامها أخيراً، بين السلطان العثمانى وقيصر روسيا "(٢) .

فضمن الطرفان المعاقدان كل منهما أملاك الآخر، وتعهد جورج الثالث ملك انجلترا بضمان جميع ممتلكات الإمبراطورية العثمانية دون أى استثناء ، ولما كانت قبل الغزو الفرنسى فى مصر . وتعهد السلطان العثمانى من جانبه بضمان الممتلكات البريطانية دون استثناء كذلك . وفضلاً عن ذلك فقد نصت المعاهدة على ضرورة مواصلة الحرب بالاشتراك فيما بين الحليفين المتعاقدين ؛ فلا يقدم أحدهما على إبرام الصلح منفرداً مع الأعداء دون موافقة الآخر . وبذلك مهد عقد هاتين المعاهدتين لتأليف المحالفة الدولية الثانية ضد فرنسا . إذ أنه سرعان ما انضمت مملكة نابلى إلى الحلفاء بمقتضى معاهدة القسطنطينية فى ٢١ يناير ١٧٩٩ ، كما ضغطت كل من انجلترا وروسيا على الحكومة النمساوية ، فأعلنت النمسا الحرب على فرنسا فى ٢٤ يناير ، وظلت بروسيا وحدها خارجة عن نطاق هذه المحالفة (٣).

---

(١) هنرى لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٤١ .

(٢) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ١٢٣ .

(٣) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

وحاول بونابرت أثناء وجوده فى مصر أن يوطد النفوذ الفرنسى بها وأن يسعى إلى إيجاد نوع من الصداقة والتحالف أن أمكن ذلك - بينه وبين الحكام العرب والمسلمين المحيطين بمصر. فحاول الاتصال بأمراء طرابلس والشام وعرض صداقته ونواياه الطيبة نحوهم ، كما حاول فى نفس الوقت الاتصال بشريف مكة وبأمراء الهند لتأليبهم على الاستعمار البريطانى هناك باذلاً لهم الوعود بمساعدة فرنسا لهم فى التحرر والاستقلال . ولكن لم تأت تلك الجهود بالثمرة المرجوة، لأن الحكم الفرنسى فى مصر لم يكن مستقراً ، كما أن فترة بقاء نابليون فى مصر كانت قصيرة ، وأهم من ذلك أن الدول الأوروبية - كما سبق القول - قد تحالفت على إخراج الحملة من مصر ، وعندما أعلن السلطان العثمانى الحرب على فرنسا ، أصبح مركز بونابرت فى مصر معرضًا لأخطار جديدة داخلية وخارجية ، فلقد كانت الفرمانات الآتية من عند السلطان تتلى فى المساجد لحث المؤمنين على طرد عدو الإسلام . وعندما علم نابليون بعزم الحكومة العثمانية على إرسال حملة إلى مصر لإخراجه منها بمساعدة الأسطول البريطانى المحاصر للشواطىء المصرية ، صمم على الخروج من هذا المأذق وغزو الشام[1].

وكانت عملية الحملة على الشام تهدف فى واقع الأمر محاولة من جانب الفرنسيين للقضاء عى خطر آخر من أخطار المقاومة التى واجهت وجودهم فى مصر ، وهو خطر قوات المماليك التى كانت قد انسحبت بعد معركة الصالحية إلى سوريا الجنوبية ، وخطر التجمعات العثمانية التى أخذت الدولة فى القيام بها ، بعد إعلانها الحرب على فرنسا ، للقيام بعملية غزو لمصر ، تستهدف استخلاصها من أيدى الفرنسيين . وزاد من خطورة الموقف أن الدولة العثمانية جاهرت بالعداء تجاه الجمهورية الفرنسية ، وأخذت فى إعداد قوات أخرى لها فى جزيرة قبرص، لكى تتعاون بها مع القوات البريطانية فى البحر المتوسط ، فى عملية الهجوم على سواحل مصر الشمالية ، وكانت السلطات العثمانية فى سوريا مع من انسحب إلى هذا الإقليم من المصريين ومن المماليك قد أخذت الاتصال بشيوخ مصر وعلمائها وأعيانها ، لكى تدفع المصريين إلى الثورة فى وجه الفرنسيين فى الوقت الذى تقوم فيه القوات العثمانية بالهجوم على مصر ووجد بونابرت أنه من الأصوب أن يلتقى بهذا الخطر الذى يتجمع فى سوريا ، كقوة للمقاومة ، قبل أن يتم استعداده ، ويصل لمصر ، وقد يكون ذلك فى وقت تأتى فيه حملة أخرى ، عثمانية إنجليزية ، إلى سواحل مصر الشمالية ، فكان عليه إذاً أن يأخذ بالمبادأة .

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، ص ٥٤ .

ولكن جزءاً كبيراً من قوات الحملة كان مشغولاً فى الصعيد ، وكان خروج حملة جديدة إلى سوريا يستتبع من بونابرت أن يقوم من جديد بمحاولة لاستمالة المصريين ، وإظهار رغبته فى اشراكهم فى حكم البلاد ، حتى يؤمن ، فى عاصمة البلاد ، أمن قواته الموجودة فى الصعيد ، وأمن قواته التى سيسير على رأسها زاحفًا إلى سوريا[1] وقرر بونابرت إعادة الديوان ، الذى كان قد ألغاه بعد ثورة القاهرة وقد أصدر الأمر بإعادة الديوان فى ٢١ ديسمبر ١٧٩٨ أى فى الوقت الذى أخذ فيه الاستعداد لحملة سوريا ، ولقد أصدر هذا الديوان بيانًا للشعب فى ٢٨ يناير ١٧٩٩م يحثه فيه على التزام الهدوء والسكينة ، ويعلنه فيه بونابرت قد عفا عفواً كاملاً عن كل ماقام به الثوار وأنه سيعمل على رفع المظالم ، وإجراء المشاريع التى تزيد من رفاهية البلاد . وذكر هذا البيان أن بونابرت سيقوم بفتح الخليج الموصل من النيل إلى بحر السويس إشارة إلى المشروع الخاص بوصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر وكان بونابرت قد عاد فى ذلك الوقت من السويس ، التى تعتبر رحلته نقطة ثانية بعد إعادة العمل بالديوان ، للاستعداد لحملة سوريا [2].

غادر بونابرت القاهرة فى فبراير ١٧٩٩ على رأس قوة تقترب من ١٣,٠٠٠ جندى متجه إلى الشام ، بمحاذاة الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، ووصل الجيش إلى قطيه ، والتحموا مع حامية العريش فى معركة حامية ، وغادر نابليون القاهرة ، ووصل إلى العريش يوم ١٧ فبراير، واحتشدت جموع الفرنسيين ومدفعيتهم تحت أسوارها ، واشتد اطلاق نيران المدافع على العريش ، حتى اضطر إبراهيم أغا حاكمها إلى توقيع شروط التسليم فى ٢٠ فبراير ، فاخليت القلعة واحتل الفرنسيون العريش ، وأستؤنف الزحف بعدها إلى سوريا[3] .

أما الأغراض التى يرجو الوصول إليها ن هذا الزحف ، فقد لخصها نابليون فى قوله أنها :

أولاً : دعم فتوح الفرنسيين فى مصر ، ودفع خطر الهجوم عى هذه البلاد من أية جيوش قد تنوى الزحف عليها من جهة الحدود الشرقية ، أو تريد الاشتراك فى العمل مع جيش أوروبى قد ينزل إلى الشواطىء المصرية .

ثانيًا : إرغام الباب العالى على توضيح موقفه بصورة تساعد على نجاح المفاوضات التى لاشك فى أن حكومة الإدارة قد بدأتها مع الباب العالى فى استانبول ، تأييد (بوشان) الذى أرسله فى مهمة لنفس الغرض إلى استانبول .

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٤١٥ - ٤١٦ .

(٢) جلال يحيى ، المرجع السابق ، ص ٤١٧ .

(٣) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر .

ثالثًا : حرمان الأسطول الإنجليزى فى البحر المتوسط من تموين سفنه من سوريا ؛ وذلك عند استطاعة بونابرت خلال شهرى الشتاء اللذين بقيا له أن يجعل الشاطىء السورى منطقة "صديقة" سواء أتحقق ذلك بالطرق الدبلوماسية ، أم بحد السيف والمدفع[1] .

وواصل الجيش زحفه بعد سقوط العريش ، فاحتل الفرنسيون خان يونس ثم سقطت غزة واللد والرملة ، وحاصر الجيش يافا فسقطت فى ٧ مارس ١٧٩٩ ، وفى ٩ مارس أرسل بونابرت إلى شيوخ نابلس يخيرهم بين الحرب والسلام ، حتى إذا اختاروا السلام طردوا من نابلس المماليك ورجال الجزار باشا . كما أصدر فى اليوم نفسه منشوراً موجهًا إلى شيوخ وعلماء وأهل غزة والرملة ويافا ، ويطلب منهم أن يخلدوا إلى الهدوء والسكينة ، ويعدهم باحترام شعائرهم وعقائدهم الدينية ونشر العدالة بينهم . ثم كتب إلى الجزار يدعوه إلى ترك القتال والعيش فى سلام مع الفرنسيين ، والانضمام إليهم ضد أعدائهم المماليك والإنجليز . وفى ١٣ مارس كتب بونابرت تقريراً مفصلاً يصف فيه لحكومة الإدارة موقف الجزار العدائى ؛ وإخفاق جميع ماقام به من محاولات لاستمالته . كما تضمن هذا التقرير ذكر المعارك التى خاضها جيش بونابرت فى العريش وغزة ويافا خصوصًا . ووجد بونابرت فى يافا عدداً كبيراً من المصريين المحتمين فى قلعتها ، ومن بينهم السيد عمر مكرم . فلم يتعرض لهم بأذى . بل إن بونابرت عى حد قوله فى الرسالة التى وصفت حوادث الغزو فى الرملة ومدينتى اللد ويافا ، وقرئت فى ديوان القاهرة ، قد رق قلبه لأهل مصر الذين كانوا فى يافا من غنى وفقير ، فأعطاهم الأمان ، وأمر برجوعهم إلى بلدهم مكرمين [2] .

على أن الوباء سرعان ما انتشر بين الجند المرابطين فى يافا وزاد من خطره وجود حوالى ثلاثة آلاف من أسرى العثمانيين فى حالة سيئة . فكثرت الإصابات بين الفرنسيين ، ولما كان هؤلاء متذمرين من قلة مالديهم من مؤن ، وكان الجيش على وشك استئناف الزحف على العدو، فقد بات من واجب قائد الحملة العام أن يفصل فى أمر هؤلاء الأسرى . ولهذا عقد بونابرت مجلسًا حربيًا لبحث هذه المسألة ، ورؤى فى بداء الأمر أن يرسل الأسرى إلى مصر ، ولكن صعوبات عدة حالت دون ذلك ؛ منها عدم وجود المؤن اللازمة لهؤلاء الأسرى فى أثناء سيرهم الشاق إلى مصر ، ويتعذر الاستغناء عن عدد من الجنود الفرنسيين لحراستهم ، كما

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ١٢٦.

(٢) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

كان يخشى من وقوعهم فى قبضة الإنجليز إذا هم أرسلوا بحراً إلى مصر . فقر الرأى على إعدامهم رميًا بالرصاص ؟ وذلك بدلاً من أن يتركوا فى يافا يقضى عليهم الجوع بها ، أو ينتهزون الفرصة للانضمام إلى جيش العدو ثانية ، فاعدموا . ولاجدال فى أن إعدامهم كان وصمة عار فى جبين قائد الحملة . وذلك باعتراف المؤرخين الفرنسيين أنفسهم (١). لأنه مهما كان نوع الأعذار التى انتحلت لارتكاب هذه الجريمة الشنيعة . فإن هؤلاء المقاتلين كانوا قد آثروا التسليم ، وفق شروط اتفقوا عليها مع بوهارنيه Beauharnais وكروازييه Croisier من ياوران بونابرت . وماكان ينبغى بحال من الأحوال ، ومهما كانت الأسباب أن يخالف الفرنسيون وعودهم ، وأن يخرقوا قوانين الحرب المعترف بها . وفضلاً عن ذلك فقد كان فى وسع بونابرت ، كما يقول بعض أنصاره أن يوفق بين مايتطلبه العمل من أجل المحافظة على جيشه ، وماكان يقتضيه واجب التمسك بتلك الشروط التى ارتضاها المحاربون فى ميدان القتال . وقد لقى بونابرت جزاء ما فعلت يداه ، عندما أصر العثمانيون وأحلافهم الذين نجوا من مذابح يافا على المقاومة بكل شدة ، آخذاً بثأر إخوانهم . فجنى بونابرت تحت أسوار عكا ثمار ما غرسه على شاطىء يافا(٢) .

لقد أستأنف الفرنسيون بعد استيلائهم على يافا ، استولوا على حيفا دون مقاومة . ثم وصلوا أمام عكا وبدأت عملية الحصار يوم ١٩ مارس ؛ ثم استمر الفرنسيون فى ضربها بالمدفعية ، دون أن يتمكنوا من الاستيلاء عليها . وانسحب بونابرت عن أسوارها ، وكان ذلك أول عملية انسحاب يقوم بها ، ولكنه سرعان ماخشى من أن يؤثر الانسحاب على معنوية جنوده ، فعاد إلى حصارها من جديد وحاول اقتحامها فى أول إبريل وتمكنت المدفعية من فتح ثغرة فى الأسوار . ولكن المدافعين استماتوا فى منع الفرنسيين من المرور منها . الأمر الذى أدى إلى فشل الهجوم الثانى (٣).

ولقد استمات أحمد باشا الجزار فى الدفاع عن مدينته ، وساعده على المقاومة وجود سفينتين حربيتين إنجليزيتين أمام الميناء . ويمثل وصول الإنجليز كارثة بالنسبة للفرنسيين . فأسطولهم الصغير المكلف بنقل مدفعية الحصار ، جد الثقيلة بحيث يصعب نقلها عبر

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ١٢٧.

(٢) نفسه ، ص ١٢٧ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٤٢٢ .

الصحراء ، يتم اعتراضه على الفور وأسره ، مما يحرم بونابرت بذلك من عتاده المخصص للحصار . ويتعين عليه إصدار الأمر بإرسال قافلة جديدة من الإسكندرية لتحل محل العتاد لمفقود . وفي يومي ١٩ ، ٢٠ مارس يبدأ الجيش مع ذلك محاصرة عكا بينما يغطي لان فرقته لموقع من جهة الجليل . ويمثل عباس ضاهر - حفيد ضاهر العمر أمام بونابرت ، وهذا خير يوليه فوراً على المجال التقليدي لآل الزيداني ، إقليم طبرية ، ويرسل رسائل إلى شيعة جبل عامل ويكتب بنفسه إلى الأمير بشير ، مبلغًا إياه بحصار عكا وبعزمه على القضاء على ستبداد الجزار (١).

والواقع أن عدداً من الجبليين يحضرون فوراً إلى المعكسر الفرنسي لبيع مؤن من كافة الأنواع لفرنسيين ولشراء أسلحة . ويرى الضباط الفرنسيون في ذلك علامة تحالف سياسي آخذ في لتشكل مع الدروز ، والواقع أن الأمر يتصل أساسًا بأنصار آل الزيداني وبالشيعة أكثر مما يتصل بالدروز والموارنة . ويكتفي الأمير بشير بالتغاضي عن تجارة يصعب عليها منها على أية حال (٢).

وكان لوصول الأسطول الإنجليزي الصغير أثر ملحوظ على حصار عكا . وإذا كان العثمانيون قد استفادوا بالفعل من إمكانية التزود بالإمدادات عن طريق البحر (فعلوا ذلك ي يافا عندما انقطعت الاتصالات البرية) بشكل مستقل عن الإنجليز ، فإنهم سوف يحصلون على مساعدة من عمليات القصف التي تمارسها السفن الإنجليزية وخاصة من وجود متخصصين مثل فيليبو ، عهد إليهم فوراً بالعمل لدى الجزار . وهم لن يشعروا بأنهم وحدهم في المحنة أن سيدني سميث - قائد الأسطول البريطاني - الراغب في الإعلاء من دوره الخاص. سوف يتفاخر بأنه قد رفع معنويات سيد عكا الذي كان يستعد للاستسلام . ولا يتفق ذلك بالمرة مع سيكلوجية الرجل الذي كان ينوي منذ البداية المقاومة بقواته الخاصة . وعلاوة على وحداته المألوفة من المرتزقة ، فإن معه جميع سكان المدينة الذين لم يتردد في تسليحهم . وهو يأمر بذبح المسيحيين لتجنب أي طابور خامس محتمل وخاصة لإظهار إصراره ، ومصير يافا و بدلاً من أن يرعب المدافعين ، يوضح لهم أنه ما من مخرج هناك سوى الموت في المعركة أو النصر . وليس أمام الجزار أكثر من اللعب على وتر الذود عن الإسلام لكي يتسنى له

---

(١) هنري لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٤٦ .

(٢) نفسه ، ص ٢٤٧ .

الوصول إلى إثارة حمية قواته ، وهو من جهة أخرى ، مناوىء لوجود وحدات مهمة تتبع الباب العالى فى إقليمه ، الأمر الذى يوضح أنه يهتم فعلاً بالمستقبل . ويبدو الإنجليز له أكثر حياداً ونافعين فى نهاية الأمر لإبقاء سكان الجبل اللبنانى فى فلكه السياسى (١) .

وفى نفس الوقت أرسلت الدولة العثمانية جيشاً لمهاجمة بونابرت من الخلف أثناء حصاره لعكا ولكنه استطاع التغلب على هذا الجيش والقضاء عليه فى موقعة " تل طابور " فى ١٦ أبريل ١٧٩٩م . ولكن بونابرت وجد أن استيلاءه على عكا عنوة سيكلفه كثيراً فاضطر إلى رفع الحصار عن المدينة والإسراع بالعودة إلى مصر لأنه علم بأنباء إرسال حملة بحرية وبرية إلى مصر . ومهما يكن من أمر فقد حقق بونابرت بعض أهداف تلك الحملة إلى القضاء على قوة المماليك المعتصمة فى تلك الجهات والقضاء على قوة الباشوات ، مثل باشا دمشق وباشا عكا حتى لايفكرا فى الزحف على مصر ، ونجح فى هذا كل النجاح : إذ إن انتصار القوات الفرنسية على القوات العثمانية فى الشام جعل هؤلاء الحكام لايفكرون مطلقًا فى تعقب القوات الفرنسية المتقهقرة إلى مصر . أما فشل نابليون الذى نسبه المؤرخون إلى تلك الحملة استناداً إلى فشل نابليون فى الاستيلاء على عكا فهو قول يجانبه الصواب لأن نابليون لو استطاع الاستيلاء على عكا لما أمكنه تحصينها نظراً لمحاصرة الأسطول الإنجليزى لسواحل الشام (٢).

دخل بونابرت القاهرة بجيشه فى ١٤ يونيو ١٧٩٩م ، ولم يلبث أن علم بوصول حملة عثمانية إلى أبى قير فى ١٤ يوليو ، فأصدر أوامره إلى قواده ليلتقوا به عند الرحمانية حيث قرر اتخاذها قاعدة الهجوم على الجيش العثمانى . كما أصدر تعليماته إلى الجنرال ديزيه فى الصعيد بأن يترك القوة والذخائر الكافية فى قلعة قنا وقلعة القصير ويرسل نصف قوته من الفرسان إلى الرحمانية . وتجمعت القوات الفرنسية عند الرحمانية وقادها نابليون لمواجهة الحملة العثمانية واستطاع نابليون القضاء عليها فى موقعة أبى قير البرية فى ٢٥ يوليو وأسر قائدها مصطفى وفر من بقى وكان من بين الفارين محمد على وعاد بونابرت إلى القاهرة فى ١١ أغسطس . وكانت أبى قير البرية نصراً كبيراً لنابليون لأنها بمثابة فتح جديد لمصر كما كانت واقعة الأهرام من قبل . وزال كل خطر على مصر من جانب العثمانيين على الأقل بضعة

---

(١) هنرى لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٣٤٧ .

(٢) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، ص ٥٦ .

أشهر. ولكن ترتب على موقعة أبى قير البرية نتائج أخرى مهمة . فقد حاول الفرنسيون بفضل اتصالاتهم بالعثمانيين والسير سدنى سميث أن يقفوا على كل شىء كثير مما كان يحدث فى أوروبا . أما الأسرى فلم يجد بونابرت بينهم من يستطيع إعطاء صورة حقيقية عن الأوضاع فى فرنسا ، حتى مصطفى باشا قائد الحملة الذى وقع أسيراً فى يده ، لم يكن يعلم عن أحوال أوروبا الشىء الكثير ، لذلك أرسل رسولين عقب الموقعة للسير سدنى سميث ليتفاوضا فى تبادل الأسرى ولكى يحصلا على مزيد من الأخبار عن فرنسا . وفى نفس الوقت كان القائد البريطانى متشوقًا للتعرف عن الأحوال فى مدينة الاسكندرية ، فأرسل سكرتيره إلى الشاطىء ومعه بعض الصحف التى يرجع تاريخها إلى ١٠ يونيو وقرأ فيها نابليون أخبار الكوارث التى حلت بفرنسا ، وعلم من الصحف بطرد الفرنسيين من إيطاليا وأن فرنسا نفسها معرضة لخطر الغزو من جديد . وفضلاً عن ذلك فقد أثبت المعاصرون رسالة من حكومة الإدارة إلى بونابرت محررة فى باريس بتاريخ ٢٦ مايو ١٧٩٩م ، تسلمها بونابرت بعد عودته من سورية إلى القاهرة وتشير هذه الرسالة إلى الأخطار المحيطة بفرنسا بسبب جهود كل من النمسا وروسيا تطلب منه العودة بالقسم الأكبر من قواته إن لم يكن الجيش كله ، ليقود جيش الإمبراطورية ، شرع بونابرت يعمل جديًا لمغادرة مصر بكل سرعة (١).

وكان بونابرت قد قرر ، أن يفاتح الباب العالى فى أمر إنهاء الحرب ، وعقد الصلح بينه وبين فرنسا ، وكلف مصطفى باشا أن يتصل بالصدر الأعظم فى هذا الشأن ، وترك له رسالة عرب فيها عن حسن مشاعر فرنسا تجاه الدولة العثمانية ، والصداقة القديمة التى كانت تربط بين البلدين ، وعدائها التقليدى لكل من روسيا والنمسا . وشرح فيها أن احتلال فرنسا لمصر لم يكن مبنيًا على روح عدائية للدولة العثمانية ، بل كان يهدف محاربة المماليك ؛ وإنه لم يكن يهدف فصل مصر عن الدولة العثمانية ، بل يهدف محاربة انجلترا فى الهند . وذكر أن الحملة الفرنسية قد احترمت حقوق السلطان ورعاياه وسفنه وأعلامه ، وأبدى أسفه لتعجل الدولة العثمانية الأمر ، وإعلامها الحرب على فرنسا ، وأعرب عن أمله فى قيام المفاوضات سريعًا بين الطرفين ، إما عن طريق سفير عثمانى يصل إلى باريس ، أو عن طريق مندوب يصل إلى مصر .

---

(١) عمر عبد العزيز ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، ص ٥٧ .

وهكذا وضع بونابرت قبل ذهابه من مصر ، أسس سياسية جديدة يمكنها أن تغير الموقف في صالح فرنسا بشكل عام ، وفي صالح الحملة الفرنسية في مصر بنوع خاص[١] .

وكذلك ترك بونابرت رسالة خاصة إلى أعضاء الديوان ، ذكر لهم فيها أنه ذهب إلى فرنسا من أجل " راحة أهل مصر ، وتسليك البحر ، فيغيب نحو ثلاثة أشهر ، ويقدم مع عساكره " والواقع أن عملية سفره من مصر بهذه الطريقة قد أثارت دهشة المصريين ، خاصة وأنهم كانوا يعلمون بمحاصرة سفن الأسطول البريطاني للسواحل المصرية .

وترك بونابرت رسالة ثانية لكليبر ، عن الأحوال العامة في مصر ، وأعطاه فيها التوصيات اللازمة ، وهي رسالة هامة ، شرح له فيها اضطراره للإسراع بالسفر قبل أن تعود السفن الإنجليزية أمام السواحل ، وترك له بيانًا بالشفرة لكي يتراسل به مع الحكومة ، وبيانًا ثانيًا لمراسلته هو ، وطلب إليه أن يوفد الأفندي الذي كان قد أسره في موقعة أبي قير ، وهو رشيد أفندي الكاتب بالديوان الهمايوني ، برسالته التي كتبها إلى الصدر الأعظم يعرض عليه فيها أمر الصلح .

وكان بونابرت يعرف دقة موقف كليبر في مصر ، فصرح له بأن يتفاوض مع الدول العثمانية في أمر عقد الصلح[٢] .

ونصح بونابرت كليبر بأن يعمل على كسب ثقة العلماء والمشايخ في القاهرة ، حتى يحصل على ثقة الأهالي . وأشار عليه بالاستمرار في عمل الاستحكامات اللازمة للاسكندرية والعريش ، وإقامة خطوط تحصينات واستحكامات عند الصالحية ، إذ أنها مفاتيح البلاد ، ونصحه بالتريث في إدخال الإصلاحات على نظام الضرائب ، والتريث في عملية تحصيلها . كما أوصاه باعتقال خمسمائة أو ستمائة من المماليك ، أو من رهائن العرب ، ومشايخ البلاد أو العمد وإرسالهم إلى فرنسا ، في حالة استئناف المواصلات البحرية ليبقوا بها سنة أو سنتين . وهكذا لم ينس بونابرت وقت سفره من مصر ، إعطاء كل التوجيهات اللازمة ، وكل السلطات المطلوبة لكليبر ، حتى يفيد منها إلى أقصى درجة ممكنة ، من أجل فرنسا أولاً ، ومن أجل الحملة الفرنسية الموجودة في مصر ثانيًا [٣].

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٤٤١ .

(٢) نفسه ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٤٤٤ .

وبعد سفره ، دخلت الحملة فى مرحلة جديدة من تاريخها ، وكانت مرحلة جديدة كذلك فى تاريخ مصر الحديثة .

اتفاق العريش سنة ١٨٠٠ :

مع نبأ وصول بونابرت إلى فرنسا ، أخرت حكومة الإدارة إرسال مبعوثها المكلف باستئناف المفاوضات مع العثمانيين – ديكورش دو سانت – كروا – ومن الواضح تمامًا أن بونابرت يقدم صورة متفائلة نسبيًا لوضع جيش الشرق . وهو يوافق على مشروع بعثة ديكورش ، ويدعو إلى إرسال تعزيزات (يجرى قبول ذلك من حيث المبدأ على الرغم من الافتقار إلى القوات والمال والسفن) . ويحدد ماكان قد أملاه على كليبر : عقد مفاوضات مع العثمانيين بهدف كسب الوقت ، وتقديم وعد لهم برد مصر عند عقد الصلح الشامل والاحتفاظ بها حتى ذلك الحين كأداة موازنة تجاه انجلترا (١) .

ولكن كليبر نظر إلى الموقف فى مصر ، بمنظار أسود ، فقد اعتقد أن مصير الحملة المحقق إلى الفشل : فخزانة خاوية ، ومرتبات الجند متأخرة ، والجيش العثمانى على الأبواب ، والمصريون متحفزون للثورة ، وحصار الإنجليز قوى ، وروح الجند ضعيفة . وكان كليبر – وهو الجندى الشجاع – يعز عليه أن يظل مع جنده محصورين فى مصر وفرنسا فى حاجة إلى سيوف أبنائها . لهذا قرر كليبر – منذ تولى القيادة العامة – أن يدعو العثمانيين إلى مفاوضات ، وكان مستعداً لأن يسلم بالجلاء العاجل عن مصر . وليس من شك فى أن العثمانيين – وقد هزموا فى الشام وعلى ساحل مصر وأخفقت محاولاتهم النزول فى أبى قير ودمياط – قد رحبوا برغبة كليبر . ودارت مفاوضات العريش بين بعض قطع الأسطول الإنجليزى فى شرقى البحر المتوسط ، ولكنه لم يكن مندوبًا رسميًا من قبل حكومته ، ولكنه اعتقد أن من صالح بلاده أن يجلو الفرنسيون عن مصر صلحًا قبل أن تضطر انجلترا إلى التقدم لإخراجهم عنوة ، وقد ثبت أن العثمانيين وحدهم غير أكفاء لهذه المهمة . وكان سيدنى يود كذلك – بتدخله فى المفاوضات – أن يعمل لحصرها فى موضوع مصر فقط فلا تتعداه إلى موضوع إنهاء الحرب بين الدولة العثمانية وفرنسا . وكان قائد البحر الإنجليزى يود لو أضاف إلى مركزه البحرى دوراً سياسيًا ينعش به المجد الذى كسبه أمام حصون عكا (٢) .

---

(١) هنرى لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٤٤٨ .

(٢) حسن عثمان ، ومحمد توفيق ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص ٢٩٤ – ٢٩٥ .

وتقضى اتفاقية العريش بجلاء الفرنسيين عن مصر بكامل سلاحهم وعتادهم وعودتهم إلى فرنسا على نفقة الدولة العثمانية دون أن يتعرض لهم أحد فى البحر . وشرع الفرنسيون فعلاً يخلون بعض المواقع استعداداً للجلاء ، كما شرع العثمانيون يتأهبون لدخول مصر ، ونزلت قوة إنجليزية فى ميناء السويس .

على أن الحكومة الإنجليزية - وقد بلغها أمر المفاوضات - كانت ترى الموقف رأياً آخر : كانت تخشى أن يعود الجيش الفرنسى المحصور فى مصر إلى ميادين الحرب فى أوروبا فترجح كفة الجيوش الفرنسية المحاربة ، ولهذا فضلت الحكومة الإنجليزية أن يبقى الفرنسيون بمصر ، أو يسلموا أنفسهم كأسرى حرب . وأرسل القائد العام للأسطول الإنجليزى فى البحر المتوسط بلاغًا بذلك إلى كليبر أعتقد أن فى الأمر خيانة من جانب الحكومة البريطانية ورفض الجلاء وهزم العثمانيين المتجمعين لدخول القاهرة فى عين شمس (٢ مارس ١٨٠٠) .

وكان فريق من جيش الصدر الأعظم ومماليك إبراهيم بك قد دخلوا القاهرة وأثاروا أهلها على الفرنسيين ، وقد اعتقد المصريون أن حكم الفرنسيين قد آذن للزوال . واستخدم الفرنسيون العنف فى القضاء على ثورة القاهرة « الثانية » .

وعلى الرغم من وصول موافقة الحكومة الإنجليزية على اتفاقية اشترك فى التمهيد لها أحد قوادها فإن كليبر - وقد وصلته أخبار أنقلاب بروميير - تشبث بالبقاء فى مصر ، وانصرف إلى إجراء بعض إصلاحات إدارية ومالية . ولكن لم يتسع الوقت لتنفيذها إذ طعنه « سليمان الحلبى » طعنة قاتلة فى ١٤ يونيو ١٨٠٠م (١).

٧ - منو والجلاء عن مصر :

تسلم القيادة العامة لجيش الشرق عقب مقتل كليبر أقدم قواد الحملة ، ثم وصل قرار بونابرت تثبيته فى هذا المنصب . ولم يكن منو يتمتع بكفاية عسكرية سواء فى فرنسا أو فى مصر تكسبه احترام الضباط والجند ، ذلك لأنه قضى أكثر حياته فى مناصب إدارية . ومنذ وصلت الحملة إلى مصر عين منو حاكمًا لرشيد حتى يونيو ١٨٠٠ حين نقل قائد لموقع القاهرة. وقد أنف أكثر الضباط أن يعملوا تحت أمرة هذا القائد « الإدارى » الذى لم يخض المعارك ولم يكسب له فى القتال مجداً . هذا إلى أنهم لم يرتاحوا لآراء منو وسياسته فى حكم البلاد ،

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

فقد كان منو من الرجال الذين استهواهم حب الاستعمار ، وكان يرى أن مصر خير مستعمرة تستطيع بتنوع مواردها أن تعوض فرنسا عن مستعمرات الأنتيل ، وكان منو يثق فى نجاح الحملة وفى قدرة فرنسا على الاحتفاظ بمستعمراتها الجديدة والقيام على استغلالها ، وأظهر منو - منذ كان حاكمًا فى رشيد - تحمسه للبقاء فى مصر ، فكان يرسل إلى بونابرت التقارير والمذكرات عن موارد البلاد والسياسة التى ينبغى انتهاجها لحكم المصريين والوسائل اللازمة لإيجاد علاقات تجارية بين مصر وداخل أفريقية ، وفى رشيد أعلن منو إسلامه وتزوج بسيدة من أهلها . وعلى أثر توليته القيادة أعلن بجلاء للضباط والجند عزمه على البقاء بمصر . ودعا اتفاقية العريش « تسليمًا » من كليبر . وكان هذا مدعاة لانقسام الضباط والجند بين أنصار البقاء وأنصار الجلاء ، وقد فعل هذا الانقسام فى التعجيل بنهاية الحملة [١].

وكانت انجلترا قد واصلت عدائها لفرنسا بشكل عام ، وعدائها لوجود القوات الفرنسية فى مصر بشكل خاص ، وكان نزول الحملة الفرنسية إلى مصر قد أظهر أهمية موقع مصر الجغرافى ، وبصفته مفرق هام للطرق والمواصلات بين الشرق والغرب ، وبصفته مركزًا يمكن للدولة المسيطرة عليه من أن تقول كلمة لها وزنها فى حوض البحر المتوسط ، ولم تكن أهمية مصر بالنسبة لبريطانيا تقتصر على مجرد الرغبة فى إخراج الحملة الفرنسية منها ، بل كانت تمتد كذلك إلى إمكانية وضع بريطانيا أقدامها فى مصر كنقطة ارتكاز يمكنها أن تفيد منها فى عملياتها الاستراتيجية اللازمة لاحتفاظها بمناطق استغلالها فى الشرق الأقصى . ولذلك فإن بريطانيا قد اختارت أن تعمل فى مصر إلى جانب الدولة العثمانية ، حتى تحصل بالود على تلك المزايا التى كانت الحملة الفرنسية قد فشلت فى الحصول عليها بالقوة [٢].

انصرف منو إلى العناية بحالة البلاد ، فقد أخذ يجبى الباقى من الغرامة التى فرضها كليبر ، وفرض عليها هو ضريبة جديدة ، فرضها على ملاك الدور ومستأجريها والملتزمين والتجار وأرباب الحرف ، وعهد إلى الفرنسيين أمر تحصيل الضريبة الجديدة إلى مشايخ الحارات الساكنين بالمدينة[٣] . وجدد ديوان القاهرة وكان قد أهمل اجتماعاته منذ موقعة عين

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٢) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٤٩٦ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى ، الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، جـ ٢ ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

شمس وثورة القاهرة ، وفكر فى إلغاء نظام الالتزام . وأصدر قراراً بإصدار صحيفة عربية تدعى " التنبيه " ، ولكن تطور الموقف لم يفسح له المجال لتنفيذ مشروعاته . وقد لاح أن الصلح العام وشيك الوقوع - أن من من صالحها إجلاء الفرنسيين عن مصر - كما سبق القول- وكانت تخشى أن ينجح بونابرت - بعد أن فشلت محاولة " جانتوم " فى يناير ١٨٠١م- فى إمداد مواطنيه فى مصر بالعداد والرجال أو فى إقناع العثمانيين بالانسحاب من محالفة انجلترا والروسيا وخاصة بعد أن تغير موقف القيصر « بولس » من عداء فرنسا إلى صداقتها. ولما كانت الحكومة الإنجليزية قليلة الثقة فى كفاية العثمانيين العسكرية ، قررت أن تقوم بدور فعال فى إجلاء الفرنسيين . وضع الإنجليز والعثمانيون خطة محكمة لمهاجمة مصر من نواح متعددة : من ناحية الشمال بجيش إنجليزى عثمانى ، ومن ناحية الشرق بجيش عثمانى ومن الجنوب بحملة إنجليزية هندية تسيرها حكومة شركة الهند الشرقية فى البحر الأحمر ثم تنزل بالقصير وتتقدم نحو القاهرة[١] .

وقد وصلت هذه الحملات كلها واشتركت فى القتال ، ماعدا الحملة الهندية الإنجليزية فقد وصلت بعد أن سلم الفرنسيون . ولكن حضور هذه الحملة إلى مصر من الهند أمر دلالته : فهو يدل على يد الارتباط بين المستعمرات البريطانية فى الشرق ومصر كمركز متوسط فى حلقة المواصلات الإمبراطورية [٢].

ارتكب منو خطأ عسكريًا فاحشًا بتقسيم قواته ، خرج بجزء منها للدفاع عن الاسكندرية وأرسل جزءاً آخر إلى بلبيس وآخر إلى دمياط ، وترك بقية القوة بقيادة بليار للدفاع عن القاهرة . واستطاع الإنجليز أن ينزلوا فى أبى قير وهزموا الفرنسيين فى كانوب فى ٢١ مارس ١٨٠١م ، واعتصم منو بالإسكندرية وقنع الإنجليز بترك قوة لحصارها وقطعوا البرزخ الفاصل بين مريوط وأدكو وتقدموا إلى القاهرة .

ويزداد موقف الفرنسيين حرجًا وتزداد روح جندهم المعنوية ضعفًا : فالمساعدة التى مناهم بها بونابرت - الذى تولى منصب القنصل الأول فى فرنسا - لم تصل ، والصدر الأعظم يقترب من القاهرة ، والقوة الإنجليزية الهندية أبحرت من بومباى وتوشك أن تبلغ القصير -

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص ٢٩٧ .

(٢) نفسه ، ص ٢٩٧ .

وستعبر الصحراء إلى قنا ثم تتجه شمالاً فى وادى النيل ، وستنضم إليها قوة محاربة قامت من رأس الرجاء الصالح ، ومراد بك يموت وهو فى طريقه إلى نجدة الفرنسيين ويعتقد مماليكه أن حكم الفرنسيين إلى الزوال فينحازون إلى الإنجليز.

وإزاء هذا كله آثر بليار قائد حامية القاهرة - وكان من أنصار الجلاء - التسليم بشروط اتفاقية العريش (يونيو ١٨٠١م) وشدد الإنجليز حصار الاسكندرية فاضطر منو إلى التسليم بهذه الشروط فى سبتمبر عام ١٨٠١م ، وعلى هذا النحو تم جلاء الفرنسيين عن مصر (١).

نتائج الحملة الفرنسية على مصر :

وقد كان لهذه الحملة الأثر الأول فى تكوين مصر الحديثة إذ قضى الفرنسيون على فرسان المماليك فمكن ذلك محمد على فيما بعد من القضاء عليهم ، خصوصاً وأن السلطان نفسه كان يريد التخلص من نفوذهم فأصدر فى هذه الآونة قراراً بمنع استجلاب المماليك إلى مصر حتى لايتمكن زعماؤهم من تجديد قواتهم التى أنهكتها المعارك (٢).

ولاريب أن وفود طائفة من العلماء إلى مصر للتنقيب عن اثارها والتعرف على أسرار طبيعتها المجهولة قد أيقظ فى المصريين روحاً جديدة ، فقد كان حملة العلم فيهم حملة الشرع وكانوا يتوهمون أنهم محيطون بالعلوم كافة ، فلما رأوا « الفلكيين » وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيأة والنقوشات والرسومات والمصورين ، والكتبة والحساب والمشئين » ورأوا المكتبة الجديدة التى أنشأها الفرنسيون وما حوته من المصنفات ، وترحيبهم بكل من يريد المراجعة من المصريين وخصوصاً إذا رأوا التجارب العلمية الجديدة وغير ذلك ، ورأوا المطبعة التى أتى بها بونابرت ، والصحيفتين اللتين كان يصدرهما ، ورأوا المصانع والمنشآت الحديثة عداهم شيء من الدهشة وحب الاستطلاع (٣).

وأنشأ بونابرت دواوين أو مجالس مؤلفة من كبار العلماء والتجار ، وممثلى الطوائف ، ومشايخ الحرف ، للنظر في الشئون العامة ، وبذلك كان بونابرت أول من أدخل المبدأ النيابى فى مصر ، وعلينا أن نذكر أن العلماء والمشايخ قد اشتد ساعدهم من ذلك الوقت وكان لهم

---

(١) حسن عثمان ، المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

(٢) محمد صبرى ، تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٣) محمد صبرى ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

فيما بعد أثر كبير فى اختيار محمد على لولاية مصر وإرغام الدولة العثمانية على تعيينه سنة ١٨٠٥م[1] .

دعمت الدواوين فى أقاليم مصر تنفيذاً لأمر بونابرت فى ٢٧ يوليو عام ١٧٩٨م ، وكان كل ديوان يتألف من سبعة أعضاء لإدارة مصالح الأقاليم ونظر الشكاوى وفض المنازعات ومعاقبة المفسدين والخطرين ومعاقبتهم وحفظ الأمن داخل القرى وبين القرى المجاورة . أما الإدارة المالية فقد عهد بها إلى « مباشر » ومعه وكيل فرنسى لجباية الأموال والضرائب وكافة الإيرادات . وفى ٢٠ أكتوبر من نفس العام صار الديوان يتألف من تسعة أعضاء ينتخبون بمعرفة جمعية عمومية مؤلفة من علماء وأئمة ومشايخ البلاد وأكابر وأعيان التجار والصناع الذين يعينهم قومندان الإقليم ولكل ديوان الرئاسة فى الإشراف على القضاة ومشايخ البلاد على أن يرأس ديوان القاهرة دواوين الأقاليم ، وقد ألغى منو هذه الدواوين وجعل على رأس كل إقليم قائداً فرنسيًا[2].

أما الأثر الاجتماعى ، فإن واقع الأمر أن الفرنسيين فى مدة إقامتهم لم يحاولوا بتاتًا أن يتعرفوا إلى المصريين ، أو يتغلغلوا فى أوساطهم ، حتى يقفوا على حقيقة شعورهم ، وماكان يجول بأذهانهم ، أو ماكانت تحدثه « إصلاحاتهم » العديدة ، والسريعة التى أرادوا منها إلى جانب الحصول على المال لسد نفقات الحملة « أن يخلقوا من عاصمة البلاد بلداً أوروبيًا يضارع عاصمتهم باريس فى بهائها وروائها ، وكثرة ملاهيها (قهاويها) وأنديتها وملاعبها ، حتى يكفلوا لجنودهم ورجالهم عيشًا هنيئًا سعيداً ، وفاتهم أنه من المتعذر على حكومتهم الجديدة أن تغير أخلاق القوم وعاداتهم ومادرجوا عليه من أساليب العيش القائمة على التمسك بالتقاليد الإسلامية من عصور قديمة بين طرفة عين وانتباهتها . وفاتهم أن هذه « الإصلاحات» التى نظر إليها المصريون كما ينظرون إلى « البدع » وكل أمر مستهجن ممقوت ، إنما تتعارض مع ماكانوا يدعونه ويذيعونه عن إسلامهم واحترامهم لشعائر الدين الحنيف ، ويحاولون إقناع المصريين بأنهم كانوا من حماته ومن المدافعين عنه[3] .

---

(١) محمد صبرى ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٢) زين العابدين شمس الدين نجم ، إدارة الأقاليم فى مصر ١٨٠٥ - ١٨٨٢م ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ١٧ - ١٨ .

(٣) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو ، وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ٥٥٢ - ٥٥٣ .

ولاجدال فى أن بعض هذه الإصلاحات التى تستلزمها عناية الفرنسيين بشئون الصحة العامة فى القاهرة والمدن الكبرى خصوصًا ، حرصًا منهم على عدم انتشار الأوبئة وفتك الأمراض الخطيرة بجنودهم ، كالطاعون والزهرى والرمد وغير ذلك ، كانت إصلاحات ضرورية ، ويصيب المصريين من إجرائها كل فائدة . ولكن تفكير بونابرت وقواده فى المحافظة وعلى سلامة الجنود ورجال الحملة وعلمائها قد طغى على كل تفكير فيما قد ينجم عن هذه الإصلاحات من نتائج يقع أثرها على القاهريين وأهل المدن عمومًا ، ولعل أكبر ما يؤخذ على الفرنسيين فى هذا الشأن أنهم حاولوا أن يفرضوا فرضًا على المصريين نوعًا من الحضارة الأوروبية كان مقضيًا عليها بالفشل لسبب بسيط ظاهر ، هو أن بونابرت وأنصار التجربة الاستعمارية فى مصر لم يكن فى وسعهم أن يعنوا بغير مظاهر هذه الحضارة الأوروبية المادية فى وقت كانت بحوث علمائهم لاتزال فى مراحلها الأولى ، ولم تكتمل بعد تلك الدراسات التى كان من المنتظر أن تكون أساسًا لكل إصلاح يراد إداخله إلى هذه البلاد ، حتى يثمر ثمرته المنشودة بفضل اطمئنان المصريين إليه وقبولهم له[١] .

ولقد كان من مقتضيات تلك السياسة الإسلامية الوطنية التى وضع بونابرت أصولها وأتباعها خلفاؤه ، أن يحتفل الفرنسيون بأعياد أهل البلاد الدينية ، ويحترموا شعائرهم وعاداتهم ، وأن يحاولوا جذب قلوب المصريين إليهم ، باستمالتهم والتقرب منهم ، وعقد أواصر المحبة والصداقة مع كبرائهم ومشايخهم ، ومحاولة الإختلاط مع عامتهم ، حتى يطمئن إليهم سواد الشعب ويرضى الناس بما قدر عليهم .

فكان لامناص من أن ينتهز هؤلاء فرصة الاحتفال بالأعياد الدينية والمواسم إلى جانب أعيادهم الفرنسية ، حتى يخففوا من حدة بلاياهم بالانطلاق وسط صخب الموالد وضجيج الأعياد والاحتفالات ، يتشاجرون مع العامة والدهماء ، بل يتقاتلون معهم ، ويزاحمون أدعياء « الولاية » وغيرهم من الدراويش و « البلة » فى شرورهم ومفاسدهم يعتدون على النساء ويستشيرون بفعالهم أهل النخوة والشهامة من القاهريين فيقتل من يقتل ويقتلون من يقتلون ، ويتدخل (برطلمين) بجماعته الموهوبة المكروهة « لقمع الفتنة » وإعادة النظام [٢].

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ١٩٥٢ ، ص ٥٥٣ .

(٢) نفسه ، ص ٥٥٥ .

وأما أعياد المصريين وموالدهم المشهورة التى شهدها الفرنسيون مدة وجود الحملة بهذه البلاد وحرصوا على الاحتفال بها ، وارتكبت فى أثنائها كل هذه الشرور والمفاسد ، فكانت الاحتفال بشهر الصوم والعيدين الصغير والكبير ، وإمارة الحج والكسوة الشريفة ، والمولد النبوى ، ومولد السيدة زينب ، ومولد السيد على البكرى ، ومولد الحسين ، والاحتفال بوفاء النيل ، وعلاوة على ذلك احتفل الفرنسيون بعيد جمهوريتهم كما أكثروا من إقامة الزينات فى كل مناسبة ، فاحتفلوا بذكرى واقعة ريفولى وعند رجوعهم من حملة الشام ، ونظموا مهرجانات عدة كلما عمد « مخترعهم » كونتية إلى إطلاق « بالونة » فى الجو ، وعملوا « شنكًا » وضربوا مدافع كثيرة كلما أتتهم الأخبار بانتصار بونابرت فى حملة الشام أو وصلت إحدى سفنهم إلى الشواطىء المصرية (١).

ونجم عن شدة اشتياقهم إلى خلق هذه العاصمة المرحة أو باريس الصغيرة على حد قولهم ، أو القاهرة الخليعة – على نحو ما اعتقد الشيخ الجبرتى ونظراؤه ولاشك من عقلاء المصريين – أنه لم يمض زمن طويل على وجودهم بالقاهرة حتى كانت القهاوى والمطاعم (ذات الموائد والكراسى على الطراز الفرنسى ، بدلاً من الجلوس على المصاطب أو المقاعد الحجرية) ثم (مشارب البيرة) – أو (البارات) قد أنشئت فى أحياء القاهرة وفتحت أبوابها تستقبل الفرنسيين ومن سار سيرتهم من أفراد الطوائف التى رحبت بهذا النوع الجديد من الحياة . وافتتح أحد صنائع الفرنسيين (قهوة) فى حى المشهد الحسينى ، يسهر الناس فيها حصة من الليل ويعلو صياحهم ، وصخبهم ، وفضلاً عن ذلك فقد افتتح أحد مشارب البيرة فى أهم الطرق بين القاهرة ومصر العتيقة . وأقيمت فى هذه المشارب والمطاعم حفلات رقص المخاصرة وصدحت الموسيقى ، وكان من علامات التحول الجديد التى سر لها الفرنسيون كثرة اللافتات التى وضعها أصحاب المحلات التجارية وغيرها على محالهم ، وكانت الكتابات التى على اللافتات باللغة الفرنسية (٢).

وأقام الفرنسيون مسرحًا لتمثيل الروايات « الكوميدية والتراجيدية والأوبراكوميك » ، وصادفتهم كذلك فى مبدأ الأمر صعوبة العثور على الممثلات ، فصار الرجال يتزيون بزى النساء ، ويقومون بأدوار السيدات فى هذه التمثيليات واستمر الحال على ذلك فترة من الزمن

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ٥٥٦ .

(٢) نفسه ، ص ٥٧١ .

حتى رضيت بعض الفرنسيات الاشتراك فى التمثيل ، وقد ظل هذا المسرح قائمًا حتى أواخر الحملة الفرنسية [١].

وكان تأثير الحملة الفرنسية على مصر كبيراً من وجهة النظر الاقتصادية ، ذلك أن مجىء الحملة إلى مصر أدى إلى قيام الأسطول البريطانى بفرض الحصار على السواحل المصرية ، الأمر الذى أدى إلى منع الاستيراد والتصدير بطريقة شبه كاملة من ناحية البحر ، رغم استمرار العلاقات التجارية مع الأقاليم المجاورة بطريق البر ، وإن كانت هذه المبادلات البرية قد انخفضت فى قيمتها كذلك بدرجة محسوسة نتيجة لتغيير الوضعية العامة فى البلاد ، ولاستمرار العمليات العسكرية . ولاشك فى أن هذا العامل قد أثر على التجار ، وبشكل جعلها تعيش فى أزمة حادة ، وجعل التجار ينظرون إلى هذه الفترة على أنها فترة بلاء [٢].

وكان الفرنسيون قد حضروا إلى مصر ، وهم يحملون بثرواتها ، وبالمغانم الكثيرة التى سيحصلون عليها من البلاد . وجاء انتقال الحملة عن فرنسا ، بعد موقعة أبى قير البحرية ، عاملاً يدفع المصريين إلى ضرورة الحصول على مايلزمهم من أموال من المصريين أنفسهم ، وأخذ ذلك شكل الغرامات والضرائب والإتاوات ، حتى تتمكن الحملة من الانفاق على نفسها . ومع استمرار الحملة فى مصر ، زاد احتياجها للأموال ، وزاد احتياجها إلى انتهاز كل فرصة لفرض الإتاوات . وكانت الثورات ذريعة لكى يضاعف الفرنسيون الضرائب ، بفرضهم غرامات حربية جديدة على الأهالى . وقد أدى ذلك ، سياسيًا ، إلى تذمر التجار والملاك من الفرنسيين ، ولكنه أدى من وجهة النظر الاقتصادية ، إلى تقليل سيولة رأس المال الموجود فى أيدى التجار، وخوف الأهالى من إظهار مالديهم من أموال ، الأمر الذى انتهى إلى ركود الأموال ، أى إلى ضائقة مالية يقاسى منها كل المصريين .

وكانت الحملة الفرنسية تمثل ، من وجهة النظر الاقتصادية ، قوة تمكنت فى بلادها من توجيه ضربة قوية إلى النظام الإقطاعى ، وتمهد الطريق أمام سيطرة الطبقة الوسطى ، أى الطبقة الرأسمالية ، وكان مجيئها لمصر يحمل هذا المعنى ، ويرسم لها القوى التى كان من الواجب عليها أن تعاديها ، والقوى التى كان عليها أن تتعايش معها ، حتى تتمكن من أن

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ٥٧٢ - ٥٧٣ .

(٢) جلال يحيى ، مصر الحديثة ١٥١٧ - ١٨٠٥م ، الاسكندرية ، بدون تاريخ ، ص ٥٣٦ .

تتكامل معها ، أو أن تقوم بعملية استغلالها ، وفي هذا النطاق ، نجد أن الحملة الفرنسية قد نظرت إلى المماليك نظرة عداء ، وهو عداء حقيقي ، من وجهة النظر الاقتصادية ، إذ أن تنظيمهم لحكم مصر واستغلالها كان يقرب من النظام الإقطاعي ، حتى وإن كان نظامًا إقطاعيًا التزاميًا ، عن قربه إلى النظام الحر ، النظام الرأسمالي ، الذي تسود فيه الطبقة الوسطى[١] .

وعملت الحملة الفرنسية على أن تمول نفسها في مصر عن طريق الضرائب ، وإن كانت قد فرضتها بطريق مباشر ، وفي شكل غرامات أو إتاوات ، وكان هذا النظام يقرب في أسسه من نظام التمويل الرأسمالي ، وإن كانت قد احتفظت ببعض الأسس السابقة ، واستعانت ببعض العناصر المملوكية . وفي هذا التسلسل نجد أن الجنرال منو قد فكر في ضرورة وضع نظام ضرائبي جديد للبلاد ، ترتبط فيه الضرائب بالأرض ، وتدفع مباشرة إلى خزانة الدولة ، دون وساطة الدولة أو صاحب الالتزام . ولو نفذ هذا المشروع لكان ضربة قوية تصيب النظام القديم في أهم أساس من أسسه ، وهو الأساس الاقتصادي ، وتؤدي بالتالي إلى إضعاف نفوذ السادة في مناطق الإنتاج الزراعي ، وإلى القضاء على سطوتهم [٢].

وعلينا أن نذكر أن مجيء ٣٦,٠٠٠ مقاتل إلى مصر ، قد خلق سوقًا جديدة ، لإشباع ما يحتاجه هؤلاء الرجال من سلع وخدمات ، ودفع بعض المصريين ، حتى وإن كان أكثرهم من النصارى والشوام والأقباط ، إلى النزول إلى هذا المجال ، وإلى فتح المطاعم ودور السهر واللهو ، وتقديم كا يلزم من خدمات ، وكان هذا تطوراً لبعض قطاعات الاقتصاد الموجودة في مصر في ذلك الوقت ، وحتى إذا كانت الحملة الفرنسية قد امتصت جزءًا من رأسمال المصريين السائل بالضرائب والإتاوات ، فإنها عادت إلى إنفاق جزء منه على مايلزمها في نفس البلد ، وأدى ذلك إلى تغلغل اقتصادي ، وإلى حركة إلى أعلى وإلى أسفل بين أصحاب رؤوس الأموال ، وارتفاع البعض ، وهم من يتعاملون مع الفرنسيين ويقدمون لهم الخدمات ، وإلى انخفاض البعض الآخر ، وهم من كانوا يصرون على التعامل في نفس نطاق نشاطهم ، وهي حركة ستبدأ من هذا العصر ، وتؤثر على توزيع رؤوس الأموال في السوق خلال فترات

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٥٢٦ - ٥٢٧ .

(٢) نفسه ، ص ٥٢٧ .

الاحتلال التى ستشهدها مصر فى تاريخها الحديث . وشهدت القاهرة حركة نشاط واضح فى ذلك الوقت فى كل ما يتعلق بتسلية جنود الاحتلال ، وانتشرت فيها ظاهرة ركوب الخيل والبغال والحمير ، التى أعجب بها الفرنسيون ، أو استخدموها وسيلة للتسلية بدلاً من الملل فى شوارع القاهرة[١] .

ولقد شعر المصريون بشراهية الفرنسيين فى جمع الأموال منهم ، الأمر الذى أدى إلى تحول التجار إلى مجموعات معادية للحكم الأجنبى . ورغم خوف التجار من الفوضى ومن الاضطرابات ، فإنهم قد شاركوا العناصر الوطنية فى الثورة على الحكم الأجنبى ، وأسهموا فى تمويل هذه الثورة ، والإنفاق على الثائرين . وهذا الضغط الفرنسى من أجل المال سيدفع بالتجار إلى الضجيج والشكوى ، وإلى شعورهم بأنهم أصحاب مصلحة ، عليهم أن يدافعوا عنها ، حتى لايكلفوا ما لاطاقة لهم به ، وأدى ذلك إلى انصهارهم ، مع بقية قطاعات المجتمع ، فى اتخاذ موقف معادى للحملة الفرنسية ، واتخاذ مكانهم القومى فى مواجهة قوات احتلال أجنبى .

ولم تسمح الفترة القصيرة التى بقيتها الحملة الفرنسية فى مصر بإنشاء مشروعات اقتصادية جديدة لها أهميتها بالنسبة للبلاد . حقيقة أن الحملة قد شعرت بأن عليها أن تعتمد على نفسها ، وعلى البلاد ، وبخاصة بعد معركة أبى قير البحرية ، ولكن انشغال بونابرت فى حرب الشام ثم اضطراره إلى العودة إلى فرنسا ، وتولى كليبر قيادة الحملة من بعده ، وكان من أنصار الجلاء عن مصر ، كل ذلك لم يسمح للحملة الفرنسية بوضع أسس لنشاط اقتصادى له قيمته من الناحية الإنتاجية فى ذلك الوقت . وتغير الحال بعد تولى منو الحكم ، وكان من أنصار البقاء فى مصر ، والاحتفاظ بها كمستعمرة فرنسية . ولكن ظروفه الخاصة وعلاقته بغيره من القواد ، وخوفه من المصريين من تعليم المصريين أسرار الصناعة ، حرم الحملة من أن تقوم بتجربة لصنع مايلزمها فى مصر ، وحرم مصر بالتالى من مشاهدة مثل هذه التجربة ، التى كانت ستفيد منها بلاشك[٢] .

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٥٢٨ .

(٢) نفسه ، ص ٥٢٨ - ٥٢٩ .

وبالإجمال فإن الحملة الفرنسية على مصر، قد عملت على هز وقلقلة النظام الاقتصادى الموجود فى البلاد، وساعدت على هدمه دون أن تتمكن من وضع أسس لبنيان اقتصادى جديد، وساعد ذلك على سيادة الفوضى والاضطراب وتسهيل عمل من يأتى بعدها.

أما النتائج العلمية فقد قام علماء الحملة من علماء النبات والكيميائيين والمهندسين والجغرافيين والرسامين والجراحين والمستشرقين والأدباء والفنانيين والميكانيكيين والاقتصاديين وكبار القواد العسكريين من أعضاء المجمع العلمى المصرى، وكان كل هؤلاء من أعضاء لجنة العلوم والفنون أو المجمع العلمى الذى انشأه بونابرت فى القاهرة.(١)

إن بونابرت، قد حرص على أن يصحب معه علماء ومهندسين، ومبرراته لذلك عديدة. فالتعلق النزيه الذى يبديه تجاه العلوم يعود عليه بقدر كبير من العطف من جانب جماعة الإيدلويجيين البالغة الأهمية ومع رغبة الفاتح فى الهيمنة على العالم، تتطابق فى مجال العلوم رغبة، توحيد كافة المعارف فى معرفة موحدة ومجد الرجل العظيم «إنما يستند أيضًا إلى العلماء والفنانين والكتاب الذين يحشدهم حوله، والحال أن بونابرت يريد أن يقدم نفسه، اعتماداً على قوة المفاهيم الجديدة، بوصفه البطل نصير الحضارة بامتياز. وبرنامجه الخاص بالحضارة التى تواصل مسيرتها إنما يتأسس على الفكرة المستعادة بلا ملل والتى تتمثل فى أن حملة مصر تشكل عودة العلوم والفنون إلى وطنها الأصلى. والعمل الذى يتوجب الاضطلاع به كان قد تم تحديده فى الانسيكلوبيديا نفسها فى مادتها عن «مصر» لقد كانت فى الزمن الغابر بلداً يستحق الإعجاب وهى اليوم بلد يستحق الدراسة فى هذا المشروع، فإنه يجد عونًا قويًا من كافاريللى، الذى يبدو فى أعين الجمهور بوصفه أحد ملهمى هذا المشروع المثير (٢).

وفى باريس ينشغل بونابرت بكل شئ، فهو مهموم باختيار الضباط كما باختيار العلماء. والاهتمام الذى تستسيره الحملة، التى يظل هدفًا لغزاً، هو اهتمام عظيم. لكن الخيار الذى يتجه إليه، يتميز أيضًا باعتبارات سياسية: ففى هذا المجتمع جد الممزق، مجتمع فرنسا التى تحكمها حكومة الإدارة، يقترح بالفعل صيغة وحدة قومية حول شخصه. والجانب

---

(١) جلال يحيى، مصر الحديثة، ص٥٢٩.

(٢) هنرى لورنس، شارك جيليسى، جان كلود جولفان كلود نزونيكر، الحملة الفرنسية فى مصر، ترجمة بشير السباعى، دار سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥، الطبعة الأولى، ص٣٨.=

الرئيسى من التجنيد يتألف بوجه خاص من مهندسين شبان ، خاصة خريجى المدرسة الهندسية حديثة الانشاء ، بالرغم من وجود جنود مخضرمين متفانين بواسل مثل مونج أو دولومير.

وسوف تتمثل مهمة العلماء فى توحيد جمع المعلومات المتوافرة عن مصر. وهذا العمل الضخم ، وهو رصد للأحوال الغابرة والحاضرة على شكل بيان وتبيان للتحولات التى يجب الاضطلاع بها ، سوف يصبح ذلك الصنف الرائع الذى يحمل عنوان «وصف مصر»[1].

هذا التفاؤل يعاود الظهور فى قيام بونابرت بانشاء المعهد (المجمع العلمى) المصرى فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٨ وهدف هذه المؤسسة يتطابق تمامًا مع فلسفة الأيديولوجين ، فهو معهد «للعلوم والفنون» يهدف إلى [2]:

١- ترقية ونشر الأنوار فى مصر .

٢- بحث ودراسة ونشر المعلومات الطبيعية والصناعية والتاريخية عن مصر.

(٣) ابداء رأيه حول مختلف المسائل التى تستشيره فيها الحكومة.

= يجعل ميشيليه من كافاريللى المسئول الرئيسى عن الجانب العلمى للحملة : «إنه هذه الآلة العظيمة قد جزت ليس عن طريق أنتان، فى بيت جوزفين الصغير، بشارع شانتريان، بل فى باريس الضفة اليسرى، الأقل شرودا بكثير والأوسع خيالا .

وعلى رأس كل ذلك ومن أجل بث الثقة كان هناك (وهو شئ نادر) كان هناك رجل كافاريللى، وهو رجل محب، وهب حبه للناس .

إن شهادة تيبودو لها دالتها:

«لقد اتخذ بونابرت موقف الكاهن الأكبر الذى يملك وحده مفتاح سر عميق؛ ومارس هيمنة عظيمة على كل ما يتعلق بالحملة. وبالنسبة له، لم يكن هناك فرق بين جمهورى أى ملكى، ارستقراطى أو يعقوبى، شريطة أن يتسنى استخدامهم جميعًا فى تحقيق أهدافه .

«لقد جند الجنرال بونابرت من كل حدب وصوب ضباطًا وجنوداً ، علماء وأدباء ، عمالا وفنانيين، وحشد معدات وأدوات وكتبًا آلات، ونماذج ؛ والواقع أنه بدا بكل هذه الاستندادات كما لو كان يتجه فى صورة كولمبوس جديد، إلى اكتشاف عالم وإلى نقل الحضارة إليه . وقد تجمع كل ذلك فى طولون؛ وكان عليه القول إن باريس سوف تهاجر إلى البحر المتوسط. وبالرغم من كل جهاز الحرب، فقد جرى الرحيل كما لو كان إلى نزهة استمتاع وكان الأمر أشبه بمهرجان ؛ وكان عند أولئك الذين اشتركوا فيها حماسة جد مختلفة عن تلك التى تسبق المعارك، ولم يكن دينون يتحدث إلا عن الراقصات الشرقيات، وعن صفو السماء، وعن العطور التى تفوح بها أرض الميعاد (انظر ، المرجع السابق، ص٧٠ هامش ٣٥) .

(٢) هنرى لورانس وآخرون، المرجع السابق، ص١٩٨ ، ١٩٩ .

وهو ينقسم إلى أربع شعب (الرياضيات، الاقتصاد السياسى، الآداب والفنون) من اثنى عشر عضوا وسوف تعقد جلستان عموميتان كل عشرة أيام ومن بين المذكرات التى تتلى فى هذه الاجتماعات سوف يجرى نشر المذكرات التى تعتبر أكثر أهمية؛ وأخيراً «فسوف يقدم المعهد كل سنة جائزتين الأولى لموضوع يتصل بتقدم الحضارة المصرية والثانية لموضوع يتصل بتقدم الصناعة.

ويجرى تعيين ستة وثلاثين عضوا للمعهد. وهم أهم شخصيات لجنة العلوم والفنون . والحال أن الأوقات الأولى لإقامة العلماء لم تك جد سعيدة وذلك بسبب الضروريات العسكرية التى دفعت المسئولين إلى مراعاة الأمور الأكثر الحاحًا ، وإهمال الكوادر المدنية . وكان العلماء قد تركوا فى البداية لشأنهم فى الاسكندرية ورشيد إذ أنهم قد رافقوا الأسطول الصغير على النيل ، الأمر الذى عاد عليهم بمحن معارك أكثر قسوة من محن الجيش البرى. وبوجه عام فإن رواتبهم لم تك تدفع. وقد قدم بعضهم مثل كونتيه فى الاسكندرية خدمات جد نافعة لسلاح المهندسين ولسلاح المدفعية . وتجمعهم فى القاهرة وانشاء المعهد يشيران بوضوح إلى أن الاستقرار يبدو الآن بشكل راسخ (١).

وتعقد الجلسة الأولى فى ٢٣ أغسطس ١٧٩٨ . ويجرى انتخاب مونج رئيسًا وبونابرت نائبًا للرئيس وفوربيه أمينًا دائمًا . وينشر تقرير عمل الجلسة فى العدد الأول من صحيفة المعهد، لاديكاد ايجيسان، والمسائل الواردة فى جدول الأعمال هى بالدرجة الأولى مسائل عملية: تحسين الأفران التى يستخدمها الجيش ، إيجاد بديل لحشيشة الدينار فى صنع البيرة ، تنقية مياه النيل، الاختيار بين طواحين الهواء أو طواحين الماء فى القاهرة ، موارد إنتاج البارود ولكن المشروع التمدينى ماثل أيضًا «ما هى فى مصر حالة القضاء ، والنظام القضائى المدنى والجنائى، والتعليم؟ ما هى التحسينات الممكنة فى هذه المجالات والمرغوب فيها من جانب أهل البلد؟

وسوف تكون تلك هى الأسئلة المطروحة على ديوان القاهرة ، ومن جهة أخرى، فإن عدداً من أعضاء المعهد سوف يتولون مهام موفدين إلى الديوان . والحال أن رئيس تحرير الصحيفة ، وهو تاليان على الأرجح ، يختتم هذا العدد باستدعاء الفكرة الأيديولوجية الرئيسية المهيمنة على الحملة:-

---

(١) هنرى لورنس وآخرون ، المرجع السابق، ص١٩٩ .

«إن أوروبا المثقفة لايمكنها أن تنظر بلا مبالاة إلى قوة العلوم المطبقة على بلد إعادتها إليه الحكمة المسلحة وحب الإنسانية ، بعد أن نفتها منه لزمن طويل روح البربرية والهوس الديني»[١].

في ٢٩ أغسطس يستكمل بونابرت العدة باصدار صحيفة خاصة بالجيش، هي لوركييه دوليجيت وهي تواصل تقاليد صحيفتي حملة ايطاليا لوكوريه ديتالي ولافرانس ڤودولارمييه ديتالي. ويتوجب عليها أن أداة دعاية وسط جيش يشعر بالفعل بأن وجوده في مصر هو نفي لايستحقه . وفي البداية يتحمل مسئولية النشر شخص مستقل ، هو مارك آوريل ، وهو صديق للقائد العام منذ اقامته في ڤالينس قبل الثورة . والمحرران ليسا غير ڤينتور دوپارادي وسكرتير بونابرت ، بوريان والصحيفة رسمية تقدم المعلومات بما يتمشى مع آراء القائد العام.

وهكذا يجري التذكير بمسلك بروى البطولي في أبوقير ، حتى يتسنى بعد ذلك على نحو أفضل القاء مسئولية الهزيمة على كاهله . ويجري الحديث عن النجاحات الباهرة للانتفاضة الايرلندية ضد السيطرة الانجليزية . ويجري اختراع رسالة منسوبة إلى بحار إنجليزي وأرسلت إلى مصر عن طريق تونس: حيث يجري التهوين من شأن الانتصار الإنجليزي في أبوقير بينما يجري الادعاء بأن فتح مصر قد جعل من البحر المتوسط بحيرة فرنسية وربما أكثر من ذلك[٢].

«لقد أصبحت مصر بشكل حاسم تحت هيمنة الفرنسيين الذين يمكنهم في غضون خمسين يوما تلقي الرد على رسائلهم المرسلة إلى الهند، أنهم سوف يعززون أمل أنصارهم، ويستثيرون سخط أعدائهم ، وسوف يجتذبون كل التجارة عبر السويس، ولكن ماذا أقول؟ من يدري الآن أين هم بالفعل؟ ولماذا لايصنع هذا الجيش الذي اجتاز الألب الجوليانية والسوداء ، وهي طريق غير معروفة في التاريخ الحديث، لكي ينقض على قلب المانيا ما صنعته المقدونيون والرومان، وإذا ما وصل مجرد ظل هذا الجيش،غير المقهور حتى الآن، إلى هناك ، فما هو مصير القوة الإنجليزية ... أنها ستصبح أثراً بعد عين»[٣].

ويشكل المعهد العلمي المصري مركزاً للتقارير حول مختلف الأمراض في البلاد وينشر التعليمات من أجل منع هذه العلل وعلاجها . وهذا جزء من نشاطاته ، التي لم تكد تتوقف

---

(١) هنري لورنس ، المرجع السابق، ص١٩٩

(٢) المرجع السابق، ص١٩٩، ٢٠٠ .

(٣) نفسه، ص٢٠٠ .

من جراء ثورة القاهرة ، الذى كان قد تسبب مع ذلك فى فقدان عديد من الآلات العلمية[١]، ويجرى تكشيف رحلات التنقيب عن الآثار فى أثر الجنود الذين يقومون بالغزو . كما تجرى دراسة الزراعة والحرف المصرية بهدف تسجيلى ونفعى فى آن واحد فالاهتمام باستقلال أكثر عقلانية ماثل باستمرار. وهكذا يقترح المعهد انشاء حديقة للنباتات مكرسة للمحاصيل الكولونيالية (القطن ، البن، النيلة، قصب السكر... الخ)تحت اشراف مستوطنين سابقين فى سانتو دومنجو وسوف تكون بمثابة مدرسة زراعية بالنسبة للمصريين.

إلا أنه لايجرى الاهتمام إلا بالأشياء . وكان ديچينيت قد ارتأى تنظيم خدمة طبية بالنسبة للمصريين، وسعياً إلى احتواء تحفظاتهم تجاه المنشآت الأوربية ، فإنه يرى وزملاؤه التحرك عبر المؤسسات الخيرية الاسلامية. وقد أدت هذه الأخيرة والتى أعاد الفرنسيون تنظيمها ، إلى تعويد السكان على الطب الجديد . وهو يؤكد بشكل خاص على ضرورة انشاء مدرسة للحكيمات ونشر التطعيم. كما أن الملاجئ سوف تصبح مراكز لتعليم ونشر اللغة الفرنسية . وتهيئ لهذا التعليم أنواع من المدارس الأولية. على أن غياب الامكانات الحالية يحول دون تحقيق هذا المشروع الذى لن يتجسد إلا بعد ثلاثين سنة فى عهد محمد على [٢].

والمعهد هو أداة الحضارة بامتياز . ومكتبته ومعامله مفتوحة للمصريين الذين يجرى استقبالهم بأقصى حد من الحفاوة. وقد زاره الجبرتى عدة مرات وتفتنه المكتبة التى تسمح بالوقوف على جميع العلوم. ويحوز الفرنسيون صوراً تمثل عديداً من الموضوعات من النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وأماكن الإسلام المقدسة إلى الأدوات التقنية وإلى اللوحات النباتية والتشريحية. وهم يجرون تجارب علمية أمام زائريهم ، دون أن يترددوا فى التأثير عليهم بتلاعبات على الكهرباء . إلا أنه إذا كان العلماء ، يعتبرون ذلك كله، محققين غير عادى ، فإنه بالنسبة لهم ليس غير نتاج العقل الذى يعتبر، فى ترتيب المعرفة، أدنى منزلة من الوحى. وهكذا فإنه الشيخ المهدى، عند حضوره مناقشة فى المعهد حول أسماك النيل، يطلب الكلمة لكى يقول : «إن النبى صلى الله عليه وسلم قد أعلن أن هناك ٣٠

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٩٨م، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، ج٣ ، ص٥١ .

(٢) هنرى لورنس، المرجع السابق، ص٢٩٦-٢٩٧ .

نوع من المخلوقات ١٠٠٠٠ على الأرض وفى السماوات و ٢٠٠٠٠ فى الماء ». ومن ثم فإنه لايجب التهويل من شأن وقع العلوم الأوروبية، فى عصر كانت الثقافة الاسلامية التقليدية ما تزال مسيطرة فيه سيطرة تامة(١).

ولايهمل المعهد الثقافة العربية . ويعرض مارسيل فى خطوط عريضة أشكال الأدب العربى ترجمة للسورة الاستهلالية للقرآن العظيم (الفاتحة) ، مقتطف من كتابات الجغرافيون العرب عن مصر، لمحة عن الحكايات العربية، وبالنسبة للشعر، يعرض قصيدة لنقولا الترك حول فتح مصر مهداه إلى بونابرت.

الشهم بونابارته لبث الوغى والاقتدار
من فاق قدراً وأرتقى أوج العلا وسما الفخار
ندب توحد بالورى بشهامة ذات اعتبار
قهر الممالك جمة وغزا البلاد مع الديار

وهذا المثال يسمح لمارسيل بأن يفسر لزملائه عناصر الكتابة الشعرية العربية . ويبتهج بونابرت بهذا النص الذى يفكر فى إحدى اللحظات فى نشره مستقبلا ليتم توزيعه فى الشرق كله.

والحال أن مارسيل ، المستشرق والمثقف، وصديق نقولا الترك والمهدى، هو أيضًا مدير المطبعة الوطنية التى تنشر صحيفتى الحملة والبيانات الرسمية والأوامر اليومية واللوائح التنظيمية والتنبيهات الطبية . وهو يقوم بتشغيل أول مطابع بالعربية وبالفرنسية تقام فى القاهرة، ويدرب فى هذه المهنة متدربين مصريين من الشباب .

وهكذا فإن الطباعة هى من عمل الفرنسيين فى مصر فى حين أنها من عمل الحكومة العثمانية فى استانبول ومن عمل الرهبان المسيحيين فى جبل لبنان . وعودة الطباعة إلى الظهور فى عهد محمد على سوف تكون نتاج هذه المؤثرات(٢).

كما يشهد العلم استخدام المناطيد استخدامات سياسية له. ويريد بونابرت التأثير على المصريين باطلاق منطاد فى ساحة الأزبكية (٣ نوفمبر ١٧٩٨) ويعلو المنطاد لبضع دقائق إلا أنه بسبب خلل فنى يسقط على الأرض. وبالنسبة للجبرتى فإن هذه المعجزة التى يجرى القيام

---

(١) هنرى ولرنس وآخرون، المرجع السابق، ص٢٩٧ .

(٢) هنرى لورنس وآخرون، المرجع السابق، ص٢٩٧ ، ٢٩٨ .

بها على الملأ ليست أكثر من الطيارة التى يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح . ويجرى استئناف التجربة فى ١٦ يناير ١٧٩٩، حيث يقطع المنطاد شوطًا أبعد لكن يسقط على الأرض فى مدى بصر المتفرجين ، وهو ما يلهم الجبرتى هذا التعليق الجديد: «لو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لتمت الحيلة وقالوا أنها سافرت إلى البلاد البعيدة بزعمهم»(١).

ويضطر الفرنسيون إلى الاعتراف بالفشل التام لهذه المحاولات : «لقد صدمنا من الانعدام المطلق للفضول من جانب بعض الأفراد ولسنا الوحيدين الذين رصدنا ذلك ، وقد رأينا منهم من يجتازون ساحة الأزبكية دون أن يتكرموا بتوجيه أبصارهم إلى الموقع الذى شد أنظار الجميع (٢).

إذا كان كليبر قد توصل بسرعة بالغة إلى إدراك أن الحملة منيت بالفشل ، فإنه يظل عميق التمسك بمكسبها الأكثر دوامًا ، العمل العلمى، وشأنه فى ذلك شأن ديزيه ورينيه ، فإنه يحب صحبة العلماء وهو لايرجع غيابه فى القائمة الأولى لأعضاء المعهد (المجمع العلمى) إلاّ إلى رفض بونابرت لاشراك قادة الفرق. ويجرى إصلاح هذا الخلل فى ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ عندما يصبح كليبر وديزيه ورينيه أعضاء في المعهد.

ويتواصل اكتشاف مصر وبعد عودة ڤيفيان دينون من مصر العليا ، فإن لجنة العلماء يرأسها فورييه وكوستاز، تحل محله للاضلاع بعمل منهجى أكثر، صار ممكنا بفضل التهدئة التى قام بها ديزيه . ويرجع الجانب الرئيسى من الكشوف الأركيولوچية إلى صيف وخريف ١٧٩٩ . والحال أن كليبر قبل تعينه قائداً عامًا ، كان قد وصل به الأمر إلى حد التفكير فى المشاركه فى هذه الأعمال .

وعشية معركة أبوقير البرية، فان القائد بوشار المكلف باجراء تحصينات فى رشيد، يكتشف حجراً يحمل نقشًا ثلاث اللغات ، من بينها الهيروغليفية والحروف اليونانية . وقد أدرك العلماء على الفور أهمية هذا الحجر الذى عثر عليه فى رشيد، ويخطو ريج ومومارسيل خطوة كبرى أولى في فك لغز الحجر بتوضيحها أن الكتابة الثالثة التى يشار إليها على أنها «غير معروفة» هى المصرية القديمة المكتوبة بحروف عادية سريعة(٣).

---

(١) هنرى لورنس وآخرون، نفس المرجع السابق، ص٢٩٨ .

(٢) المرجع السابق، ص٢٩٨، ٢٩٩ .

(٣) نفسه ، ص٤٣٧- ٤٣٨ .

ويهتم فورييه بالشاب إبراهيم الصباغ ، حفيد ضاهر العمر والذى يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا . وكان كافاريللى قد تعلق به وبدأ فى تعليمه اللغة الفرنسية والجغرافيا والرسم. وهو يعمل كأمين مكتبة مسؤول عن الكتب العربية وكترجمان للعلماء . وكان فورييه ومونج وبيرتولليه قد فكروا فى إرساله إلى فرنسا حتى يستكمل تعليمه . وسوف يوافق كليبر على التصريح له بذلك . والواقع أن الشاب سوف يلحق بالجيش فى فرنسا وسوف يكتب بالعربية تاريخًا لضاهر العمر . ومن المرجح أنه الشاب الشرقى الوحيد الذى تلقى تعليمًا أوروبيا خلال حملة مصر . ولابد من الاشارة إلى أنه كان أيضًا كاثوليكيا يونانيا [١].

ويتمثل أول تجديد كبير من جانب كليبر فى اضافة لجنة جديدة مكلفة بدراسة مصر الحديثة إلى اللجان التى تدرس مصر القديمة. وهذه اللجنة التى تتكون فى ١٩ نوفبر ١٧٩٩م. تتألف بين آخرين من ديجينيت فورييه وتاليان وروزيتى ودوجا. ووجود جميع هؤلاء المقربين إلى كليبر إنما يوضح تمامًا الأهمية التى يوليها لها . إن جميع جوانب مصر الإسلامية وإرادة فى البرنامج : التشريع، الأعراف المدنية والدينية، والإدارة، والشرطة الحكم والتاريخ ، الحالة العسكرية ، التجارة والصناعة، الزراعة، التاريخ الطبيعى للسكان، الآثار النقوش والأزياء ، الجغرافية والهيدروليكا وهدف اللجنة ينم عن اهتمام دقيق من جانب كليبر بالمؤرخين . إن عليها : «اعفاء الأجيال القادمة من البحث، تحت اطلال القرون وفى بحر التخمينات ، عما كانت عليه مصر فى الزمن الذى انتقل فيه الفرنسيون من الملكية إلى الحكم الجمهورى.

ولايسمح كليبر لنفسه بأن تستولى مصر القديمة على جماع فكرة : فهو يفكر فى مشروع عمل علمى ضخم يتناول أيضًا كافة الجوانب الأخرى لمصر، وسوف يشكل العلماء فريقًا تعاونيًا ، أما التاجر هاملان الذى كان كليبر قد استدعاه من مصر العليا - كان بونابرت قد سمح له بشراء الضرائب العينية فى مقابل دفع نقود مباشرة لخزائن الجيش- فانه يتعهد بتقديم الأموال الضرورية للطبع والنشر. ويتخذ القرار التأسيسى فى ٢٢ نوفمبر ١٧٩٩، ويمكن اعتبار أن كليبر هو بالفعل أب هذا الأثر الأدبى الجدير بالاسم الفرنسى، وصف مصر [٢]، وبوسعه أن يكتب بافتخار فى ٨ يناير ١٨٠٠ إلى حكومة لادارة .

---

(١) هنرى لورنس وآخرون، المرجع السابق، ص٤٣٨ .

(٢) المرجع السابق، ص٤٣٨، ٤٣٩ إن هؤلاء السادة (العلماء) الذين انهالت عليهم الغنيمة التى كانوا معتزين بها عن حق، كانوا يجبون فى حذر متواصل أحدهم من الآخر وكانوا =

لقد جرى اعطاء اهتمام خاص لوصف مصر القديمة . والحال أن الخرائط الطوبوغرافية والرسوم التصويرية والخرائط ورسوم العمارة سوف توضح هذه الآثار لأوروبا؛ وترتبط بذلك بحوث جد مسهبة عن التاريخ وعلم الفلك والفنون وعادات المصريين القدماء . وقد طلبت جميع كل أجزاء هذا العمل الأخير المتميز بطبيعة الحال عن الملاحظات الخاصة بمصر الحديثة. إن رجال الأدب والفنانين الذين يملكون هذه المجموعة مستعدون لأن يجعلوا عملهم متاحًا للجميع تحت إشراف الحكومة، وهم يجدون ، في الاتحاد الذى شكلوه، امكانات التكفل بنفقات النشر، وهذا المشروع الأدبى الذى سوف ترحب به كل حكومات أوروبا سوف يكون محل تقدير أكبر بكثير فى بلد تشجع فيه الحرية جميع الفنون، والكتاب الذين يؤلفون هذا العمل التجميعي إنما يتطلعون إلى شرف منح عملهم طابعًا قوميًا، وهم يعرضون مشروعهم عليهم بشكل محدد.

إن الأبحاث المتعلقة بالحالة الراهنة والحديثة لمصر إنما تقدم موضوعا مهمًا للفلسفة وللسياسة فالقوانين والعادات والتاريخ والحكم والصناعة والتجارة وإيرادات هذا البلد تستحق دراية أشمل بها لايمكن انتظارها من الرحالة الفرنسيين أو الأجانب الذين سبقوهم ، وقد جمعت الأشخاص الذين دوا إلى أكثر ملائمة للتنافس فى هذا العمل ومنحتهم كل السلطة والإمكانات التى يحتاجون إليها[1].

وواقع الأمر أن ميادين نشاط هؤلاء العلماء كانت متعددة وطفقوا يدرسون آثار مصر القديمة وتاريخها وطبيعة أرضها وأجناسها ، وحيواناتها وطيورها وغلاتها الزراعية وصناعاتها وتجارتها وعادات أهلها، وغير ذلك من الموضوعات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجغرافية والجيولوجية ، وكل ما يتعلق بماض البلاد وحاضرها . واستطاع لوبير

= يرفضون تبادل بحوثهم فيما بينهم ، وقد قال لهم فورييه دون طائل إن هذه الأعمال المبعثرة لاتصعد للنشر وأن من الضرورى جمعها وتنسيقها حتى يتسنى تحويلها إلى هيكل عمل كبير عن مصر. والحال أن الجنرال كليبر الذى كان يرى الرأى نفسه قد جمعهم عدة مرات عنده دون أن يتمكن من التوصل إلى شئ حاسم؛ وفى نهاية الأمر، خطر له أن يقترح عليهم أن يكون ناشرًا لهذا العمل المهم. وقد وافقوا على ذلك، وأرسل الجنرال فى طلبه . وجرى الاتفاق على عقد اتفاق يدخل فيه واحد من زاوية أهمية ومساحة أعماله. وكان هذا التقييم هو النقطة الأصعب . إلا أنه بفضل قوة كلام الجنرال ، أمكن التغلب عليه ، وقد تعهد – هاملان– بتقديم الأموال اللازمة وخصص لكل واحد جزء من الأرباح فى فرنسا . وقد وقع الجميع على هذا الاتفاق كما وقع عليه (نقلا عن هنرى لورانس وآخرن، المرجع السابق، ص٥٧١٢ هامش ٣٧) .

(١) هنرى لورنس وآخرون، المرجع السابق، ص٤٣٩ .

الأكبر ومساعدوه أن يضعوا خريطة دقيقة لها ، وكذلك حقق نوت وكورابوف مواضع أهم جوامع القاهرة وضواحيها ، وتمكن المذكورين الذين زاروا الأقاليم الشرقية من الوجه البحرى أن يحققوا مواقع دمياط وبلبيس والسويس والصالحية، ورسم الضابط سوهيت مجرى النيل من القاهرة إلى العطف واستكشف جيوفرى سنت هيلير الطريق بين القاهرة والصالحية وجزءاً من الطريق بعد الصالحية إلى الشام. كما استطاع أن يجمع فى أثناء رحلاته العديدة مجموعة من الحيوانات والطيور واهتم فضلاً بدلاً الحيوانات التى حفظها قدماء المصرين كالتمساح والثعابين والطيور ، وذلك عدا الأجسام البشرية التى عثر عليها فى طيبة وسقارة(١).

لقد أسهمت إقامة الفرنسيين فى مصر إسهامًا كبيراً فى توسيع مجال العلوم كلها». إن لجنة العلوم والفنون ، وهى أول لجنة من نوعها على الإطلاق تشهد ضمها إلى حملة عسكرية، كانت تضم فى البداية نحو ١٥١ عضواً ، كان ٨٤ منهم يتمتعون بتكوين تغنى وكان عشرة منهم من الأطباء ، والحال أن المعهد (المجمع العلمى) المصرى، وهو مثيل فيما وراء البحار للمعهد الفرنسى، قد افتتح جلساته فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٨ . وخلال السنوات الثلاث التى دام الاحتلال فيها، وعى إلى المشاركة ، فى المعهد ما مجموعه ٥١ عضواً . ومن بين هذا العدد التحق ٢٦ عضواً بهذه الشعبة أو تلك من الشعبتين العلميتين أى شعبة الرياضيات وشعبة الفيزيا »، وكانت الشعبتان المكونتان الأخريان هما شعبة الاقتصاد السياسى وشعبة الآداب والفنون(٢).

وكان على المعهد أن يجتمع عند الحاجة ، وقد عقدُ ٦٢ جلسة ، انعقدت الجلسة الأخيرة من بينها ٢٢ مارس ١٨٠١ . وكان الرئيس الأول للجنة هو مونغ ، أما النائب الأول لرئيس اللجنة فهو بونابرت ، وقد انتخب الإثنان معا لمدة ولاية من ثلاثة أشهر . وكان فورييه هو السكرتير الدائم للجنة من البداية إلى النهاية . وقد نظمت أعمال اللجنة وفق القواعد التنظيمية لأعمال الأكاديميات الفرنسية. وتمت تلاوة مذكرات أو جرى تقديمها مكتوبة ، وشكلت هيئة مراقبين مكلفة بتقديم تقرير عن هذه الأبحاث، وكان بوسع الحكومة - هى فى هذه الحالة، السلطة العسكرية - أن تطلب رأى المعهد حول مشكلات معينة ؛ وفى كل مرة كان يعهد بهذه المهام، وكذلك بنشاطات مختلفة إلى لجان مشكلة لهذا الغرض (٣).

---

(١) نفسه، ص٦٢٦ .

(٢) شارل سى. جيلسبى ، الجوانب العلمية لحملة مصر [١٧٩٨-١٨٠١] ضمن كتاب هنرى لورانس الحملة الفرنسية على مصر، نابليون والإسلام ، ص٧٠١ .

(٣) شارل سى . جيليسى، الجوانب العلمية لحملة مصر، ص٧٠٢ .

ونشرت بحوث المعهد وأعيد نشرها في غالبيتها ، فيما بعد في المجلدات الأربعة التى صدرت تحت عنوان «مذكرات حول مصر» فى باريس، عن دار نشر ب- ديدور من الكتابات التى لم تتمكن من نشرها صحيفة لايكادايجيبسيان التى توقفت عن الصدور فى عام ١٨٠٠ وقد ظهرت بعض المذكرات أيضًا فى نشرات علمية محكمة ، وكتب عدد من أفراد الحملة كتبًا عما شاهدوه وعما وقفوا عليه من معارف ، وهذا هو حال ديجينيت ، الذى نشر كتابه «التاريخ الطبى لجيش الشرق ١٨٠٢ . أما العمل الأشهر فى هذا الباب، فلايزال هو عمل ڤيڤان رينون» رحلة فى مصر السفلى والعليا ١٨٠٢ . وأخيراً ، الكتاب الضخم «وصف مصر» الذى ظهر من عام ١٨٠٩ إلى عام ١٨٢٨ ، مؤلفًا من «المقدمة التاريخية» التى كتبها فورييه ومن الأطالس الثلاثة التى تضم ولحات والتى نشرت فى عشرة مجلدات، ومن المجلدات التسعة التى تتضمن النص المكتوب، والموزعة كلها إلى ثلاث أقسام، العصور القديمة «والحالة الحديثة» والتاريخ الطبيعى»، الذى يحوى أطلسًا ، يضم خريطة طبوغرافية وجغرافية [1].

١- علوم الرياضيات والفيزياء:

والحال أن تحولاً حاسمًا من جهة أخرى هو الذي تمثله فى المسيرة العلمية لكاتبها «ملاحظات» بيرتوليه» حول كربونات الصوديوم».

كان سواد الشعب يرى هؤلاء العلماء يجوبون القرى والمدن يفحصون ويدققون ، كان يشاهدهم يفحصون الأرض والماء، والطبر والهواء فلايكترث لهم. أما خاصة الشعب فكانوا يدهشون لأعمالهم هذه ويحاولون تفسيرها ، فيرجعون إلى علمهم الذى تلقوه بين جدران الأزهر ولكنه لايسعفهم بالحلول المعقولة، فيصمت البعض منهم عجزاً ويقرنها عدوه- كان يعتقد بقصور العلم الذى تعلمه عن إدراك هذه الظوار العلمية الغريبة . ومن ذلك يمكن أن نتعرف إلى أي مدى أثرت الحملة الفرنسية فى عقلية المصريين وثقافتهم وبعبارة أخرى هل نجحت الحملة الفرنسية فى توجيه المصريين وجهة أخرى : نحو تفكير حديث وثقافة حديثة [1]؟

ولم ينجح الفرنسيين فى مصر أكثر من نجاحهم فى اضعاف قوة المماليك وقوة العثمانيين على السواء وإعداد الطريق لظهور قوة جديدة أخذت تعنى بسير الحوادث وترى لها فيها رأيًا. هذه القوة الجديدة هى الشعب المصرى ولو قد وفقَّ هذا الشعب إذ ذاك لزعيم يحسُّ باحساسه

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص ص ٢٢-٢٣ .

ويشعر بشعوره ، ويمكنه أن يعبِّر عما يجيش فيه من الآلام والآمال، على أن يكون من طراز آخر غير «السيد عمر مكرم» أو المعلم يعقوب لربما تغيَّر تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر.

على أن التأثير الفكرى للحملة الفرنسية يتضح أكثر من ذلك فى طائفة كانت بيئتها الخاصة تمهد لهذا التأثير : كالجبرتى المؤرخ «وحسن العطار» الأديب «وشهاب الدين» الشاعر، وطائفة أخرى نشأت فى كنف الفرنسيين ورعايتهم «كالياس بقطر» القبطى «ونقولا الترك» السورى المولد والنشأة و«المعلم يعقوب» الزعيم القبطى المعروف .

أما الأول «الشيخ عبد الرحمن الجبرتى «فقد نشأ فى بيئة علمية تدرس كغيره – علوم الأزهر ، إلا أنه أخذ عن أبيه بعضًا من أصول الفلك والرياضة ، فلما جاء الفرنسيون مصر، كان قد نضج عقله فاختاروه فى الديوان الذى انشأوه لمعاونتهم فى حكم البلاد ، فكثر اتصاله بهم وسماعه لأحاديقهم وآرائهم، ولما كان الجبرتى مؤرخًا يعلم قيمة الكتب فقد كان يتردد على مكتبتهم ويزور معاملهم، ويعجب بما يجرونه أمامه من العمليات الكيمائية .

كل أولئك ، مضافًا إليه تمرسه بالأشتراك فى أعباء الحكم والسياسة، صقل من قلمه ، فكانت كتابته فى تاريخه بعد الحملة أدق وأكثر نقدا لسير الحوادث ورجالها مما كانت عليه قبل الحملة، ويقال إن قلمه الناقد هذا قد أوذى به فى حكم محمد على[١].

ولد الشيخ حسن بن محمد العطار سنة ١١٨٠هـ / ١٧٦٦م من أسرة مغربية الأصل وكان من علماء الأزهر، ثم شيخًا له . لكنه تميَّز عنهم بتلك الرحلات التى قام بها فى كثير من البلاد. كما تميز بروح تجديدية جعلته يدعو دعوة خافتة لأن تتأثر مصر بالحضارة الأوروبية ، وهذه الدعوة الخافتة : هى بمثابة ثورة إذا راعينا ظروف البيئة والزمن .

ثم جاء الفرنسيون مصر وهو شاب عالم صغير ، فخاف على نفسه منهم وهرب ، كما هرب كثيرون من العلماء ، فنزح إلى الصيعد . ثم عاد إلى القاهرة فاتصل بطائفة من رجال الحملة الفرنسية ، يتعلم منهم أشياء من معارفهم ويعلمهم اللغة العربية . ثم سافر بعد ذلك إلى الشام فأقام فيها زمنًا . يتطارح الشعر مع شعرائها ويراسل علماءها ويصف غوطتها ومنازهها.

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ٢٤٢ .

ورحل بعد ذلك إلى الدولة العثمانية فأقام فيها زمنًا طويلاً. وخاصة فى بلدة سكودرة حيث تزوج من أهلها وأعقب ، ولكن عقبه مات ، ثم عاد بعد ذلك إلى مصر وقد زاد علمًا وخبرة ومعرفة . وجلس يدرس التفسير ، فكان العلماء يتركون حلقات غيره ، ويتكاثرون على حلقته يستحقون . وقدم فى أيام محمد على رجل من الدروز اسمه بطرس ، وكان ذا علم بالتواريخ والأنساب، والأيام وعلوم العربية ، فتعرّف إليه الشيخ فكانت بينها صداقة ، ومدح بطرس الشيخ بشئ من الشعر.

وللعطار عدة مؤلفات فى علوم الفقه والنحو والمنطق، ورسائل فى الهندسة والطب والتشريح، والرمل والزايرجه . وكان يرسم بيده المزاول لمعرفة الوقت بالليل والنهار . وأختاره محمد على محرراً للوقائع، أول صدورها، ثم ولاه مشيخة الأزهر فى الرابع من شوال سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م بعد وفاة الشيخ الدمهوجى . وبقى فى المشيخة إلى أن مات فى سنة ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤ م[١].

أما المعلم يعقوب فقد اتجه تفكره إلى وجهة عملية خالف بها «زميليه» اللذين لم يتجاوزا فى تفكيرهما حدود التمنى والانتظار ، أما يعقوب فقد رأى فى الاحتلال الفرنسى بدء حياة جديدة لمصر والمصريين مهدت لها الحملة الفرنسية . ومن ثم أخذ عهد السبيل لهذه الحياة الجديدة، وكان يرى الاعتماد على القوة الحربية المدربة ، فكون الفرقة القبطية وخرج بها إلى صفوف الفرنسيين يقاتل معهم ويعاون على تثبيت أقدامهم . وبذلك شاركهم يعقوب حياتهم فى السلم وفى الحرب واستمع إلى أحاديثهم وآرائهم فى النظم والتواريخ . ولاشك فى أنه قد كان كله أثره فى اثارة شتى الأفكار فى نفسه، وأخصّها كان يدور حول التمهيد لمستقبل البلاد السياسى وقد عوّل يعقوب على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية «فكان سباقًا إلى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر انتصار الغربيين فى جودة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية، فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان[٢].

وبعد رحيل الفرنسيين هاجر «يعقوب» إلى أوروبا على رأس «الوفد المصرى» لتحقيق آماله فى استقلال البلاد وكان أن وفته منيّته فى عرض البحر ودخلت حياة أول مفكر عملى فى استقلال مصر فى ذمة التاريخ.

---

(١) محمود الشرقاوى، مصر فى القرن الثامن عشر، ج١ ، ص٤٩، ٥٠ .

(٢) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص٢٥ .

أما الأزهر - فهو وإن كان معقل المقاومة للفرنسيين ابّان حكمهم مصر- إلا أنه لم يدخل عليه أى تغيير يخرجه عما ألفه منذ قرون ولم يحاول الفرنسيون أثناء احتلالهم للبلاد- أن يدخلوا عليه شيئًا من ذلك، وهم لو شاءوا ذلك لما استجاب لهم الأزهر، فقد كانت بينهم وبينه هوّة عميقة تزيد من تباين اتجاه كل منهم فى التفكير والعمل[١].

٩- الموقف بعد خروج الحملة:

بعد أن خرجت القوات الفرنسية من مصر تصارع على السلطة فيها قوات أربع كل منها تريد أن يكون لها الغلبة وتستأثر بحكم مصر. أولى تلك القوات هى قوة انجلترا التى بذلت جهوداً جبارة لإخراجة الفرنسيين من مصر إلى أن كللت هذه الجهود فى النهاية بالنجاح بانتصارها على قوات وطردها من مصر . وكانت انجلترا تود البقاء فى مصر ، ولكنها كانت تخشى أن يؤدى هذا العمل إلى إغضاب الدولة العثمانية ، وما قد يترتب عليه من زيادة تقربها من فرنسا . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فإن بقاء قواتها بمصر قد يدفع نابليون إلى إرسال حملة فرنسية جديدة لإخراجهم منها . ولما كانت انجلترا لم تتخذ موقفًا محدداً إزاء تلك الأمور فقد أجلت التفكير فى الجلاء عن مصر إلى فرصة أخرى[٢].

ومن المعروف أن انجلترا قد أرسلت قواتها لمصر استناداً إلى معاهدة التحالف التى كانت قد عقدتها مع الدولة العثمانية فى ٥ يناير ١٧٩٩م . وهى المعاهدة التى نصت على ضمان بريطانيا لاستقلال الدولة العثمانية وسلامة أراضيها . ولكن وجود القوات البريطانية فى مصر، وقيامها بدور فعال فى إخراج الفرنسيين من البلاد دفع الحكومة البريطانية إلى محاولة الإفادة من هذه القوات فى عملية الحصول على ميزات فى هذا الإقليم [٣]، وبعد جلاء الفرنسيين ومطالبة العثمانيين للإنجليز بالجلاء عن مصر، لم يكن أمام انجلترا سوى قطاع المماليك، أو بعض القطاعات الداخلية منه، لكى تستند إليها، وتتخذها ركائز لها ، وظهر موقف مماليك مراد بك بعد موت سيدهم بالطاعون فى سوهاج ، وهو يتحرك شمالاً لنجدة القوات الفرنسية، واتصال مماليكه، بالإنجليز، نتيجة لمعرفتهم بانتهاء حكم الفرنسيين لمصر

(١) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص٢٦ .

(٢) محمد محمود السروجى، ثورة ٢٣ يوليو جذورها وأصولها التاريخية، ص٤١ .

(٣) جلال يحيى، مصر الحديثة، ص٥٥٤ .

ومحاولتهم الاستناد إلى قوة خارجية جديدة يستندون إليها، ما داموا قد شعروا بعداء كل من العثمانيين والمصريين لهم (١).

أما الدولة العثمانية فانها تطلعت إلى بسط حكمها المطلق فى مصر بحجة أنها فتحتها بحد السيف ، وأرادت أن تجعل منها ولاية أو عدة ولايات تحكمها كما كانت تحكم ولايات السلطنة العثمانية بولاتها الذين لم تر البلاد منهم منذ عهد الفتح العثمانى سوى الظلم والفوضى وسوء الإدارة .

أرادت الدولة العثمانية أن تستخلص مصر لنفسها، لذلك استقر عزمها على محاربة المماليك والقضاء عليهم حتى لاينازعوها سلطة الحكم فى البلاد فكانت تعليماتها للصدر الأعظم يوسف باشا ضيا تقضى بابادة بقية المماليك كيلا تقوم لهم قائمة أو إبعادهم عن مصر وإسكانهم فى ولاية أخرى من ولايات السلطنة العثمانية(٢).

كانت القوات العثمانية فى مصر مؤلفة من جيشين، الجيش الأول عددهم نحو ٢٥ إلى ٢٠ ألف مقاتل بقيادة الصدر الأعظم ، ويتألف من الإنكشارية وحرس الوزير والجنود الذين تم حشدهم فى سورية ، والمعسكر العام لهذا الجيش فى القاهرة ، وجنوده تحتل العاصمة ومعظم بنادر مصر الوسطى والصعيد كبنى سويف والمنيا وأسيوط .

أما الجيش الثانى فكان مرابطًا شمال الدلتا بقيادة حسين قبطان باشا قومندان الأسطول العثمانى الذى كان راسيًا فى خليج أبى قير، وعدد هذا الجيش نحو ستة آلاف مقاتل معظمهم من الأرناؤود والإنكشارية يحتلون المواقع القريبة من مرسى الأسطول (٣).

أما المماليك فقد كانت قواتهم قد أصيبت بضربة شديدة نتيجة لمجئ الحملة الفرنسية إلى مصر. وكانت قوات المماليك هى التى حاولت جاهدة أن تزيد من سيطرتها على البلاد ، وعلى حساب سلطة العثمانيين، منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر، ودخلت بذلك فى صراع طويل مع الدولة صاحبة السيادة ، وفقد المماليك الكثير من رجالهم فى أثناء عملية مقاومتهم للفرنسيين ، بعد أن فقدوا بضعة آلاف منهم فى المعارك التى تمكن بها الفرنسيون من السيطرة على البلاد. وتم ذلك فى وقت حاصرت فيه الأساطيل البريطانية سواحل مصر ، واستمرت فيه

---

(١) جلال يحيى، المرجع السابق، ص٥٥٣-٥٥٤ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، ج٢، ص٢٧٨ .

(٣) نفسه، ج١، ص٢٩٧ .

سيطرة الفرنسيين على البلاد ، وبشكل يحرم المماليك من استيراد عناصر جديدة يزيدون بها أعداد قواتهم . هذا علاوة على أن الدولة العثمانية نفسها كانت قد منعت تصدير عناصر الجركس إلى مصر، حتى لايزيد من قوة المماليك، وحتى تفيد الدولة نفسها من هذه العناصر فى قوات الفرسان الخاصة بها، فكان الضعف النسبى إذن هو أول المظاهر التى ظهرت على قوات المماليك [١].

أما الظاهرة الثانية فكانت هى انقسام المماليك على بعضهم . وفى الوقت الذي انسحب فيه مراد بك إلى الصعيد، ومنه إلى الواحات للاستمرار فى مقاومة الفرنسيين من داخل مصر ، خرج منه إبراهيم بك من مصر إلى الشام، وانضم إلى قوات الدولة العثمانية ، وهكذا يمكننا القول بأن المماليك قد انقسموا إلى قسمين الأول يحاول استعادة سيطرته على البلاد ، وانتزاعها من أيدى الفرنسيين، والثانى يحاول الاستعانة بالعثمانيين على إخراج الفرنسيين من مصر ، ويقوم فى ذلك بدور التابع للدولة العثمانية .

وكان اتفاق مراد بك، أمير البكوات المصرية فى الصعيد مع كليبر ، يعنى تحول هذا القطاع مؤقتًا من العمل على استقلال مصر إلى وضعية التابع للسلطات الفرنسية فى مصر، وبهذا تحول المماليك ، نتيجة لضعفهم والضربات العسكرية التى نزلت بقواتهم إلى وضعية التابع لكل من العثمانيين والفرنسيين[٢].

ولكن خروج الحملة الفرنسية من مصر كان يعنى تُغيراً للحالة العامة للبلاد، وعودة الأمور إلى ما كانت عليه قبل مجئ هذه الحملة. وشعر المماليك بأنهم كانوا حكام مصر سابقين وبأنهم كانوا قد أداروا سلطاتها منذ أزمان بعيدة ، فحاولوا إعادة سلطتهم إلى البلاد. وأغراهم الموقف . ووجود الإنجليز إلى جانب العثمانيين ، على محاولة الحصول على كل السلطة لأنفسهم فى البلاد. وشعر المماليك بأن العثمانيين يرغبون فى تقليل نفوذهم فى البلاد، وحتى فى التخلص منهم بشكل نهائى ، ودفعهم هذا الشعور أو دفع بعضهم إلى محاولة الاستناد إلى القوات الإنجليزية لتثبيت أقدامهم فى مصر، ورغم وجود القوات العثمانية[٣].

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة، ص٥٥٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص٥٥٩ .

(٣) نفسه، ص٥٥٨ .

أما المصريين فكانت قوتهم أنهم أصحاب البلاد الفعليين، وقد تصدت هذه القوة لجيش نابليون منذ وأن وطئت أقدامه أرض البلاد، فقاومته في الاسكندرية وتتبعته في الوجهين البحري والقبلي. وتحملت جزءاً من أعباء الحكم في عهد الحملة. وهم الذين قدموا التضحيات من الرجال. فمنهم من أعدم ومنهم من شرد ومنهم من سجن، وجد هؤلاء أن قوة الدولة العثمانية قد وهنت، وأن سطوة المماليك قد ذهبت إلى غير رجعة، وأن قوات انجلترا إن عاجلاً أو آجلاً سترحل عن البلاد، فلابد من الاستعداد لهذا اليوم الذي يتولون فيه الحكم وتقرير مصير البلاد بأنفسهم خصوصًا وقد بدأت بعض الزعامات تخرج من بين صفوف المصريين وتساهم في الأحداث التي مرت بها البلاد مثل السيد عمر مكرم والسادات والشرقاوي وغيرهم.

وقد فطن محمد علي بثاقب نظره إلى خطورة هذه القوة الجديدة. ورأى أن يحتضنها وأن يستغلها لصالحه وحده، فأخذ يتودد للمصريين ويتقرب إلى زعمائهم من أمثال عمر مكرم والشيخ الشرقاوي والشيخ الفيومي وغيرهم لتأييد سلطته في مصر وكسب ثقتهم فيه. وقد آتت هذه السياسة ثمارها حينما قام السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي في ١٣ مايو سنة ١٨٠٥م بالباس محمد علي حلة الولاية والمناداة به واليًا على مصر، دون أن يصدر فرمان من الباب العالي. وهذا يدل على مدى ما بلغته اليقظة المصرية من قوة في ذلك الوقت[١].

---

(١) محمد محمود السروجي، ثورة يوليو جذورها التاريخية، ص٤٢.

الفصل الرابع

مصر في القرن التاسع عشر
(١٨٠٥-١٨٩٢)
محمد علي وباشوية مصر

١- تولية محمد علي باشوية مصر

ولد محمد علي في قولة بمدينة مقدونيا بإقليم الروملي عام ١٧٦٩م وتوفي والده عام ١٧٧٣م ، وقد تكفل به عمه طوسون ثم والي المدينة بعد وفاة عمه [١] وقد وفق في استهلال حياته العاملة إلى تحصيل الأموال التي امتنعت عن دفعها إحدى القرى المجاورة. وسرعان ما سطعت شهرته وعلا نجمه بعد هذا العمل الجزىء فرقي إلى رتبة اليوزباشي وبعد زمن وجيز عقد قرانه على أرملة واسعة الثراء، من بنات عمومة الحاكم، فأصبح مالكًا لمتجر دخان وبهذا توصل إلى إنشاء علاقات مع تاجر فرنسي في مرسيليا يدعى المسيو ليون، وقد أخذ ليون يردد على مسامعه مآثر بونابرت معاصره، الذي أصبح واسع الصيت ، بعيد الذكر عظيم الأهداف مما حاك حول اسمه شتى الأقاصيص والأساطير وربما كانت مظاهر عطف محمد علي نحو فرنسا راجعة إلى تلك الصداقة القديمة [٢].

وما كاد محمد علي يهبط مصر حتى ظهرت مواهبه ، فرقي إلى رتبة أعلى ولم يلبث أن عيِّن لواء [٣] بأمر باشا مصر خسرو ذلك الذي خلفه محمد علي وناصبه العداء فتفاقم

١- R. R. Madden, Egypt and Mohamed Ali, p.-1 .

٢- رينيه قطاوي، جورج قطاوي : محمد علي وأوربا ، نقله عن اللغة الفرنسية الفريد يلوز، القاهرة ١٩٥٢ ، ص٤٤-٤٥ .

٣- لواء : لقب فخري رسمي يحدد درجات وظيفية بعينها- مثله لقب باشا ، بك، أفندي ويعني هذا اللقب أن حائزة صاحب لواء سلطاني أي من حقه أن ترفع له راية سلطانية في موكبه دليلاً على ارتفاع مكانته وكان هذا الحق في مصر العثمانية للباشا صاحب الولاية والبكوات الصناجق الأربع والعشرين الذين يختارون سنويًا منذ عهد سليم ويعهد إليهم بالمناصب المهمة في إدارة مصر مثل حكم الأقاليم والدنتردارية وإمارة الحج. (انظر ، مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية ، دراسة تطور الألقاب حتى إلغاء الخلافة العثمانية من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات ، ١٥١٧-١٩٢٤م، القاهرة، عام ٢٠٠٠م، ص١٥٣) .

بينهما الأمر واستشرى الشر. وقد حدث غداة عصيان الألبانيين وشقهم عصا الطاعة على خسرو واغتيال طاهر، أن أرسل العثمانيون واليًا جديداً هو على الجزائرلى باشا الذى كان مصيره أيضًا الاغتيال فى فتنة عسكرية. وهكذا أصبح محمد على، بين عشية وضحاها فى مقدمة المتنافسين ، لكن سداد رأيه، وصواب تدبيره ومضاء فطنته كل هذا جعله يظل بعيداً عن المعمعة ، مترقباً حلول ساعة الحظ المواتى والظرف الملائم .

بدأ محمد على بالتحالف مع عثمان البرديسى فأوجس البريطانيون خيفة، وأوجدوا له منافسًا فى شخص الألفى، الذى نجا من مذبحة ١٨٠١م، ولجأ إلى لندن حيث قضى ثلاث سنوات، ثم نزل الألفى فى أبى قير فى الثانى عشر من فبراير سنة ١٨٠٤ واحبط الخطة المحكمة التي وضعها البرديسى لتعقبه ، وذلك بأن سار مع مجرى النيل ووصل إلى الوجه القبلى، واتخذ منه مركزاً لسلطته الإقطاعية [١].

وسرعان ما وقع الخلاف بين البرديسى والألبانيين، إذ أخذوا يلحون فى المطالبة بمرتباتهم مؤيدين من محمد على قائدهم ، وتمادى البرديسى فى طرق ظالمة كيدية لتحصيل الضرائب من التجار، وكان بينهم فريق من الشرقيين والأوربيين مما أحدث اضطرابات فى القاهرة ، فانتهز الفرصة محمد على وأعلن إلغاء الضرائب ولهذا اقترب من الشعب وتعلق به الجنود الألبانيون، ثم طرد البرديسى من العاصمة ، فلجأ إلى الصحراء وتم الصلح بينه وبين الألفى، ومع ذلك ظل محمد على مسيطراً على الوجه البحرى، ومتمتعًا بثقة الشعب والجنود الألبانيين[٢].

وقد شاءت الظروف أن يعود خسرو باشا إلى وظيفته. فلم تمض ثلاثة أيام حتى أرغم على مغادرة القاهرة والإبحار إلى الآستانة. وهنا فكر الألبانيون فى عرض المركز الشاغر على محمد على لكنه تصرف تصرفًا حكيمًا، فعيّن فى هذه الوظيفة خورشيد حاكم الاسكندرية واكتفى لنفسه بادىء ذى بدء بأن يكون قائم مقام له[٣].

١- رينيه قطاوى، جورج قطاوى، محمد على وأوربا، ص٤٥ .

٢- نفسه ، ص٤٧ .

٣- قائمقام ، وهو فى الواقع ليس من معاونى الباشا، ولكنه الشخص الذى يقوم بعمل الباشا خلال خلو منصب الباشوية لعزل الباشا ، أو وفاته حتى تدوم باشا آخر (انظر ، ليلى عبد اللطيف أحمد، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٨م، ص١١٨) .

- وقد تبين لخورشيد أيضًا أن إبعاد الألبانيين المتمردين هو الحل المعقول الوحيد فأمرهم بالجلاء عن مصر. وتظاهر محمد على بالإذعان والرضوخ لكنه أمام إصرار الشعب الهائج بالبقاء فى القاهرة، وفى الثانى عشر من شهر مايو سنة ١٨٠٥، اجتمع المشايخ والعلماء فى المحكمة وانتخبوه واليًا على مصر فأصبح ابتداء من هذا اليوم سيد البلاد الرسمى. ولكن كان ينقصه شيء واحد وهو أن يلتف الجميع حوله، ويظفر برضائهم، غير أن الألفى بك كان لايزال مؤيداً من الإنجليز، وعثمان البرديسى مالبث متعلقًا بأهذاب فرنسا. وخورشيد مُصّر على استرداد حقوقه فقد لجأ إلى القلعة المشرفة على العاصمة واعتقد أنها حصنه المنيع الذى لاينال.

وفى اليوم التالى (الاثنين ١٣ مايو) أجمع العلماء على عزل خورشيد باشا وتعيين محمد على واليًا مكانه وامتنع محمد على فى بادىء الأمر حتى لاينتسب إليه أنه المحرّض على هذه الثورة، ولكن السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى قلداه خلعة الولاية غير أن محمد على أظهر التمنع، وقال أنا لاأصلح لذلك ولست من الوزراء ولامن الأمراء ولا من أكابر الدولة، وكان هذا القول رياءً ونفاقًا من محمد على حتى يتمسك الحاضرون به. وفعلاً قالوا جميعًا قد اخترناك لذلك برأى الجميع والكافة، والعبرة رضا أهل البلاد. وجهروا بخلع خورشيد أحمد باشا من الولاية. وإقامة المذكور فى النيابة حتى يأتى المتولى أو يأتى له تقرير بالولاية ونودى فى المدينة بعزل الباشا وإقامة محمد على فى النيابة (١).

ويرى عمر عبد العزيز أنه من خلال هذه التطورات تتضح الحقائق التالية (٢):

١- أن السيد عمر مكرم هو الذى تزعم «انقلاب» مايو سنة ١٨٠٥م كما كان صاحب الاقتراح الخاص بعزل خورشيد وتولية محمد على بدلا منه.

٢- قرر المصريون مبدأ دستوريًا مهمًا عندما قرر قادة الشعب بزعامة عمر مكرم حق الأمة فى اختيار وتعيين حاكمها.

٣- أن عمر مكرم كان يرى أن والى مصر يجب أن يكون عثمانيًا.

١- عمر عبد العزيز عمر، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ١٧٩٨-١٩١٤، الإسكندرية ١٩٧٢، ص١٠٠-١٠١.

٢- نفسه، ص١٠١- ١٠٢.

٤- أن يعين محمد علي كان بصفة قائمقام (والي بالنيابة) حتى يصدر السلطان العثماني فرمانًا بتعيينه أو تعيين عثماني آخر واليًا على مصر.

٥- قبل محمد علي الشروط التي رفضها خورشيد من قبل ، كما أقر الرجوع إلى هؤلاء الزعماء في شئون الدولة. وهكذا لم يفوض العلماء إلى محمد علي السلطة المطلقة وإنما اختاروه واليًا «بشروطنا».

يعتبر هذا الانقلاب «حدثًا فريدًا ويومًا مشهودًا في تاريخ كفاح الشعب المصري ويقول الرافعي عن هذا اليوم بأن مصر وضعت فيه أساس حريتها واستقلالها ، وأعلنت عن حقها في تقرير مصيرها . ولم يقنع العلماء بالدور التقليدي الذي كانوا يقومون به من قبل وهو بذل الوساطة بين الحاكم والمحكومين بل «تزعموا المحكومين وخاطبوا الحاكمين بلهجة شديدة الجرأة بعيدة المعنى». وتتمثل روعة هذا الحدث في أنه كشف عن طبيعة الشعب المصري الأبية فلم يجبن أمام استبداد الولاة العثمانيين ولم يتقاعس بل كافح وأظهر روح العزة والكرامة المتأصلة فيه وليس أدل على ذلك مما قاله عبد الرحمن الجبرتي «وكان الفقراء من العامة يبيعون ملابسهم أو يستدينون ويشترون الأسلحة» كما أدت هذه الأحداث إلى زيادة نفوذ العلماء وعلو شأنهم فأسهموا وعلى رأسهم السيد عمر مكرم في مواجهة ومعالجة الأزمات التي تلاحقت بعد ذلك مثل أزمة نقل محمد علي إلى سالونيك والحملة البريطانية على مصر عام ١٨٠٧م والوساطة التي طلبها محمد علي لإنهاء خصومة المماليك له. ومن ناحية أخرى ، عندما حاول محمد علي التخلص من الالتزام الذي يقضي بطلب المشورة من الزعماء والرجوع إليهم في شئون الحكم، تمسك عمر مكرم بميثاق ١٣ مايو عام ١٨٠٥م، وأدى ذلك إلى حدوث صراع حول هذا المبدأ بين عمر مكرم ومحمد علي انتهى بالصدام بينهما (١).

وعندما علم خورشيد باشا بهذا الانقلاب ولما ذهب إليه من أنبأه بتعيين خلف له أجاب «إنني والي مصر بمقتضى وثائق منحتها من السلطان . ولا اعترف بعزل صادر من الفلاحين . ولن أنزل من القلعة إلا بأمر من الباب العالي».

ثم أمر بأن ينقل إلى القلعة الماء والقمح والخبز الجاف والمؤونة التي تسنى له جمعها ، وأغلق على نفسه الأبواب ، بعد أن أحاط نفسه بقوة مكونة من ألف وخمسمائة رجل مخلصين، واستعد للدفاع . ثم اجتمع الجمهور المسلح في ميدان الأزبكية ، وحرر المشايخ في المحكمة

١- عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق، ص١٠١-١٠٢ .

إقراراً بالأسباب التي جعلتهم ينضمون إلى محمد على ضد خورشيد . ثم أرسلت هذه الوثيقة إلى الآستانة ، بعد التصديق عليها من القاضي وقد أخذ المشايخ يجوبون أرجاء المدينة، بهمة ساهرة ، ونشاط موصول لمقاومة الاضطرابات ، أسوة بما ضربه لهم السيد عمر مكرم ثم نشر محمد على، باللغتين التركية والعربية ، أمراً صادراً إلى الألبانيين بقضاء السهرات في منازلهم وبعدم التعرض للشعب الهادىء المسالم وبعدم استعمال القوة كذلك إلا إذا أهينوا من الجنود المتمردين. وقد حدث شغب بين فريق من الألبانيين وفريق من العمال في باب زويلة[1] ، فاتخذت تدابير حازمة، مما حال دون تفاقم الخطر[2].

أصبح هم محمد على هو الحصول على اعتراف بسلطته الفعلية من الباب العالي، وذلك بمحاولة إزالة خورشيد باشا من طريقه وقد أرسل الديوان[3] إلى القاهرة صالح بك الكتخدا[4] الثاني مكلفًا بمهمة إجراء التحكيم ، وتأييد سلطة الأقوى منهما فعين صالح بك محمداً علياً

١- باب زويلة ، بناه أمير الجيوش بدر الدين الجمالي عام ٤٨٥هـ وهو وزير المستنصر بالله، وهذا الباب باق إلى الآن (انظر تقي الدين المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، بيروت بدون تاريخ ، ج١ ، ص٣٨٠) .

٢- رينيه قطاوي، جورج قطاوي، محمد على وأوربا ، ص٤٦-٤٧ .

٣- الديوان الكبير : وقد أنشئ هذا الديوان في مصر لأول مرة بعد إعلان قانون نامة مصر سنة ٩٣١هـ / ١٥٢٥م، الذي نص في المادة الثانية والثلاثين منه على إنشاء هذا الديوان، وأشار إليه باسم الديوان فقط، ولم يحدد اختصاصاته ولامقره ولاعضويته ، وإنما اكتفى بتحديد مواعيد عقده بأربع مرات أسبوعياً ، ونص على أن الباشا لابد وأن يرأس جلسات الديوان إذا لم يحل بينه وبين ذلك مانع شرعي. أما الديوان الصغير أو ديوان الباشا، فقد نص قانون نامة مصر ٩٣١هـ / ١٥٢٥م على إنشاء ديوانين للإدارة في مصر أشار إلى أولهما باسم الديوان فقط، ولم يذكر شيئًا عن عضويته واختصاصاته بل نص على مواعيد انعقاده فقط، وأشار إلى الثاني باسم ديوان ناظر الأموال (الدفتردار) . [انظر ليلى عبد اللطيف أحمد، المرجع السابق ص١٣٢ - ١٣٤] .

٤- كتخدا: بفتح الكاف وسكون التاء وضم الخاء، في التركية كتخدا من الفارسية كتخدا الكلمة فارسية من كلمتين (كد) بمعنى البيت (وضا) بمعنى الرب والصاحب ، فالكتخدا هو في الأصل رب البيت ويطلقها الفرس على السيد الموقر وعلى الملك ويطلقها الترك على الموظف المسئول الوكيل المعتمد والأمين، فقد كان يقال مثالا وزراء كتخدا لرى (أي مديرو مكاتب الوزراء أو أمناؤهم ، وكان يقال كتخداس أي أمين الخزانة (انظر، أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، القاهرة ١٩٧٨، ص١٢٧).

قلته مقام في القاهرة، وطلب إلى خورشيد باشا أن يرحل إلى حامية الاسكندرية فرفض، لكن محمداً علياً هدده باستخدام القوة وأخيراً غادر خورشيد القلعة بعد اعتصامه بها، في السابع من أغسطس إلى الاسكندرية، ليبحر منها إلى الآستانة . ومنذ ذلك التاريخ أصبح محمد على سيد القاهرة غير منازع ، فبادر الباب العالى إلى تأييد انتخابه. ولم يبق أمامه إلا كسر شوكة المماليك ، مثار الاضطراب والشغب في البلاد ، وقد كانت السياسة البريطانية تدفعهم دفعاً إلى هذه الفوضى (١).

وبهذا أصبحت سيطرة العثمانيين مقصورة على مرفأ اسكندرية . وقد رأى المعتمد البريطاني ميسيت Misset ، أن احتفاظهم به يعد ضماناً للحيلولة دون نزول الفرنسيين ، إذ هم تواطأوا مع محمد على . ورغم ذلك فإنه لم يستطع إخفاء القلق الذى أخذ يساوره من جراء سوء إدارة العثمانيين لهذه المنطقة ، التى ما فتئ الشعب ضارباً أطنابه بها ، ووضح ذلك في رسائله إلى اللورد كامون واللورد بلجريف ، يقرر أن خير وسيلة لمعالجة هذه الحالة هى التفكير في نزول القوات البريطانية ، وعندما شرع ميلسيت في تبادل العلاقات الطيبة مع الألفى ، كان يعلل نفسه بهذا الأمل لاعتقاده أن الألفى هو الوحيد بين المماليك الذى يستطيع جمع شملهم وضم شتاتهم . وما زال الألفى يحلم بلقب «شيخ البلد»(٢). وها هو السفير البريطاني، يقوم بوساطة غير رسمية في المفاوضة ، بل لقد ذهب به الخيال بأن الباب العالى سيستبعد محمداً علياً ، نظراً لحرصه الشديد على تشجيع النفوذ الفرنسي(٣).

ومن جهة أخرى كان دورفيتى Dorvetti المندوب الفرنسي للشئون التجارية يعترف بلا تردد أن محمداً علياً هو الرجل الوحيد الذى يستطيع إقرار النظام في مصر ، وأن تلك البلاد ستعود فيجرفها تيار الفوضى والاضطراب ، لو ترك أمرها للمماليك ينشرون فيها الفساد ويهلكون

١- رينيه قطاوى، جورج قطاوى، محمد على وأوروبا ، ص٤٨ .

٢- شيخ البلد : كبير الأمراء المماليك، وهو منصب استحدث في القرن الثامن عشر، وكان من أرفع المناصب المملوكية ، ولذلك كان موضع تنافس شديد بين المماليك بعضهم بعضاً، والواقع أن شيخ البلد كان يعتبر ثاني شخصية في مصر بعد الباشا المخلوع حتى يأتي الباشا الجديد (انظر، أحمد السيد دراج، السيد رجب حراز، دراسات في التاريخ المصري، القاهرة ١٩٧٦، ص١٤٣ ؛ ليلى عبد اللطيف أحمد، الإدارة في مصر في العصر العثماني، ص٤٤٩) .

٣- رينيه قطاوى، المرجع السابق، ص٤٨ .

الحرث والنسل. وكان المندوب الفرنسي يقدر أيضًا لباشا مصر. ما يبديه من المقاومة العنيفة لأساليب انجلترا والألفي بك، تلك الأساليب الملتوية ، المشوبة بالموارية والرياء في خداع ومخاتلة . ومما يضاعف فضل دروفيتي أن وزير الخارجية في باريس كان ممتنعًا عن تزويده بأية تعليمات .

في هذه الأثناء تجلى عجز خورشيد باشا عن مزاولة سلطته في الإسكندرية فاشتد خوف انجلترا من نزول الفرنسيين فيها مرة أخرى. وكان هذا هو الخطر الذي أشار إليه ميسيت قبل ذلك، لكنه أخذ يلتمس لنفسه العزاء في مظاهر الصداقة التي كان يبديها الألفي نحو انجلترا ولا غرو فقد كان ميسيت أقل فطنة من دروفيتي، فكان يتشبث بأمل خيالي وذلك أن يرى غالبية المماليك يؤيدون ، في نهاية الأمر الألفي الطامع في الحصول على لقب باشا مصر من السلطان، وكان سفير انجلترا في الآستانة يتصور أنه ما زال في استطاعته التأثير على الديوان، لينتزع منه أمراً بخلع محمد على بعد أن أصبحت ميول الباشا لفرنسا ظاهرة للعيان[١].

وفي ظل هذه الأحداث حصل محمد على العفو الكامل من السلطان، بعد أن ساعده القنصل الفرنسي دروفيتي صديقه وقبطان باشا الذي وضع الأسطول العثماني المرسل إلى الاسكندرية لتهديد محمد علي – في قبضته وملخص ذلك أن مسيو لالاند Laland كان قد أرسل مرشداً وضابطًا فرنسيًا على سفينة قبطان باشا– ليقوم ذلك المرشد الإنجليزي الأصل . وحصل منه على معلومات تفيد بأن البحرية الفرنسية قد هاجمت الأسطول العثماني عند ساحل آسيا الصغرى، كذلك أخبر قبطان باشا بموت السلطان وتولية خسرو باشا منصب الصدر الأعظم، كما أفاد بأن الضابط الفرنسي يعمل لصالح روسيا ، وأن مصالح الإمبراطورية العثمانية محفوفة بالخطر الجسيم، وأنه لابد أن يلجأ الأسطول العثماني إلى مصر . عند هذا تم عقد مجلس الضباط وانتهى الأمر أن يرسو الأسطول في الإسكندرية ليكون تحت سيطرة محمد علي[٢].

ولم يكن الطريق سهلاً أمام محمد علي، فأوعزت الحكومة البريطانية إلى الباب العالي، بإبعاده عن السلطة والحكم لكي تعمل على تثبيت حكم المماليك ، فأرسل فرمانًا في ١٨٠٦م

١- رينيه قطاوي : المرجع السابق ، ص٤٩ .

٢- R.R. Madden . Egypt and Mohamed Ali , pp. 2-4 .

بأن يكون واليا على سالونيك وتعيين موسى باشا بدلاً منه الذى وصل بالفعل على بعض السفن العثمانية، ومعه أمر آخر بإعادة المماليك إلى مراكزهم وحصولهم على امتيازاتهم السابقة. ولكن محمد على أوعز إلى المشايخ والعلماء وبعض أمراء المماليك الذين انضموا إليه، وأرسلوا التماسًا إلى الباب العالى ببقاء محمد على فى الحكم واستدعاء موسى باشا وتم لهم ما أرادوا وللمرة الثانية يتظاهر محمد على بالخضوع ويبيح لنفسه أن المشايخ والعلماء والجند قد أقنعوه بالبقاء فى مصر ثم يسترد عطف الباب العالى عام ١٨٠٦م، بأن يدفع ٤٠٠٠ كيسًا[١] للسلطان[٢].

الصعاب التى واجهت محمد على وكيف تغلب عليها :

لم يكن الطريق سهلاً أمام محمد على لكى يؤسس الحكم الوراثى له ولأسرته من بعده، فقد واجهته مصاعب عديدة: منها موقف الدولة العثمانية نفسها التى حاولت جاهدة إبعاده عن مصر رغم الإرادة الشعبية الممثلة فى الزعامة الشعبية، وحاولت عدة مرات إبعاده عن مسرح الأحداث ولكنه بذكائه ودهائه استطاع أن يثبت أقدامه فى الحكم.

أما المشكلة الثانية التي واجهته عندما كان يحارب المماليك فى صعيد مصر علم بوصول الحملة الإنجليزية بقيادة فريزر عام ١٨٠٧ واستولت على الاسكندرية بسهولة واتخذت طريقها لاحتلال رشيد وأخذ يراقب الموقف، ولكن استبسال المقاومة الشعبية فى رشيد وانتصارها جعله يجنى ثمار هذا الانتصار بضم الاسكندرية إلى والى مصر، حيث أنها لم تكن ضمن حكمه، وكان لها وضع خاص مثل الموانئ الأخرى كرشيد ودمياط فى البحر المتوسط السويس والقصير فى البحر الأحمر، حيث إن حكامها يعينون من قبل السلطان العثمانى مباشرة وخاضعون له، والمشكلة الثالثة كانت ممثلة فى الزعامة الشعبية بقيادة عمر مكرم، وعمل على حلها باتباع سياسة فرق تسد بين العلماء وانتهى الأمر بنفى عمر مكرم وخلا الجو له، ثم كانت المشكلة

١- الكيس : وحدة عثمانية فى التعامل النقدى، استخدم خلال القرن السابع عشر الميلادى، وإن اختلفت قيمته النقدية حسب الزمان والمكان. ففى استانبول كان يتألف عادة من خمسمائة قرش، ودعى بالكيس الرومى. أما الكيس المصرى فكان يساوى ستمائة من القروش التركية وبقى الكيس يستخدم كوحدة نقدية حتى ألغى عام ١٨٦٣ . وقد ذكر محمد شفيق غربال (مصر عند مفرق الطرق، ١٧٩٨-١٨٠١م) ص١٢) أن الكيس المصرى يطلق على مبلغ ٢٥٠٠٠ نصف فضة [انظر ، عبد الكريم رافق، الفتح العثمانى للشام حتى حملة نابليون على مصر ١٥١٦-١٧٩٨ ، دمشق ١٩٦٨ ، ص٢٦١ هامش ٢) .

٣- جورج يانج ، مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم حكم اسماعيل تعريب على أحمد شكرى، القاهرة ١٩٣٤، ص٦٠ .

R.R. Madden, op. cit , p. 4 .

الأخرى جاءته من جانب عبد الرحمن الجبرتي وهي التي عرفت بالمعارضة الصامتة وتغلب عليها بإيعازه بقتل نجله عن طريق صهره محمد بك الدفتردار، أما المماليك فقد تغلب عليهم بارتكابه مذبحة القلعة سنة ١٨١١م.

أما الأهالي فلم يكن لديهم قوة علماء الأزهر أو المماليك ولكنهم يقومون بأعمال التمرد ضد الحاكم الجديد وشاركهم في ذلك الجنود الذين تعودوا على التمرد والمشاغبات ولكنه استطاع أن يتغلب عليهم وهذا ما سوف نلقي الضوء عليه في الصفحات القادمة .

١- الدولة العثمانية:

وبينما كانت هذه الأحداث تنكشف في مصر، كانت هناك أحداث مثيرة تأخذ مجراها في استانبول في مايو سنة ١٨٠٥م فقد أطيح بالسلطان سليم الثالث بواسطة انقلاب عسكري وحل محله ابن عمه «مصطفى» من خلال ثورة الانكشارية على «النظام الجديد» ولم يمكث «مصطفى» طويلاً كسلطان ، فلأنه تسبب في قتل «سليم» فقد اغتيل بدوره وخلفه السلطان «محمود» ، وعندما انتهى السلطان «محمود» من تأسيس قاعدة السلطنة، كان قد مر عقد كامل وكان محمد على قد حصل على فترة راحة من الضغط العثماني كان في حاجة إليها لكي يصبح سيد مصر ، وسيد إمبراطورية كذلك . فبسقوط «سليم» والاضطراب الذي أصاب الحكومة العثمانية ، تم إبطال مفعول أحد عناصر المعارضة لوجوده في مصر، وبدلاً من أن يحاول العثمانيون إقصاء محمد على من منصبه فقد قنعوا بمحاولة دفعه لإرسال جيشه إلى الحجاز لمحاربة «الوهابيين» وكان الوهابيون ، قد اجتاحوا المدن المقدسة في الحجاز، ومنعوا قافلة الحج وهددوا هيبة السلطان بوصفه وصياً على المدن المقدسة. وفي عام ١٨٠٧م أرسل رسالة برر فيها محمد على عجزه عن الاستجابة بالتذرع بأن مصر شهدت فيضاناً منخفضاً للنيل، وأن الأرض لم ترد بالمياه (شراقي) وأن المحصول كان ضعيفاً وكانت هناك ديون متخلفة من الوالي السابق، وديون جديدة تسببت فيها المغامرة البريطانية، وليس لديه أرصدة لتجهيز الحملة. وكان المماليك قد الحقوا الدمار بالوجه القبلي ولم يعد له حبوب لقراءته. لكل هذه الأسباب رأى نفسه مقبلاً على أزمة مالية حادة وغير قادر على إرسال جيش إلى الخارج . وفوق ذلك الحرص الكبير ، فقد كان العثمانيون في حروب مع الدول العظمى ، فإذا ما أرسل جيشه خارج مصر، فمن الممكن أن تحتل إحداها من جديد، وكانت ذكريات نزول القوات البريطانية قريبة العهد جداً بالنسبة له، كما كان يأمل أن يكون الاحتلال الفرنسي قريب العهد في ذاكرة العثمانيين ربما اكسبته هذه الرسالة بعض الوقت لذلك العام، لكن أمر الهجوم على

الحجاز كان يتكرر كل عام ، إلى أن ذهبت قواته بالفعل فى آخر الأمر، فى التوقيت الذى ناسبه هو لا الدولة العثمانية .

كان محمد على يعلم أنه، مع ضعف الحكومة العثمانية وانشغالها بوراثة العرش فإن محاولتها التخلص منه لم يحن وقتها بعد، وأنه ليس هناك ما يخشى منه فى هذا الاتجاه مؤقتًا . بل على العكس من ذلك، ، كان السلطان الجديد فى حاجة إلى تأييد محمد على إن لم يكن إلى حياده، وكان هو وأمه «أسما سلطان» أكثر ميلاً للمصالحة . وفى عام ١٨٠٧م أرسلت «أسما سلطان» رسالة إلى محمد على رداً على رسالة أرسلها هو إليها يرجو منها استخدام نفوذها لاستبقائه واليًا على مصر، وكانت الرسالة مصحوبة بهدية مالية كبيرة. وكتبت فى ردها أن ابنها السلطان ، سوف يستبقى محمد على لأنه كان رجله ، ونقلت عن ابنها قوله «إن محمد على عزيز لدىَّ بصورة خاصة »، وأضافت أنها سوف تستمر فى رعاية مصالح محمد على وفى الإبقاء عليه فى وظيفته واليًا على مصر، مدى الحياة بناء على رغبته. وقد بعث لها محمد على هدايا أخرى وأشرف على «الالتزام» الذى يخصها فى كريت، وبصفة عامة فقد كافأها على نواياها الطيبة تجاهه بميزات نقدية، مما أدى إلى عقد رابطة وثيقة بينها وبينه (١).

وعندما فتح الجيش المصرى الحجاز، أرسل الوالى ابنه إسماعيل بصحبته أمين خزائن الوالى لطيف» إلى الباب العالى ومعهما مفاتيح المدينة المنورة . وهناك من المحتمل تم إغراء لطيف بالقيام بانقلاب ضد سيده ، مع وعده أن يخلفه فى منصبه . وعندما عاد لطيف إلى مصر زعموا أنه حاول الإطاحة بالوالى ، كان محمد على حينذاك فى الحجاز، وأثناء غيابه – هكذا تقول القصة- حاول لطيف أن يشيع أنباء عن موت الوالى. وكشف الكخيا بك المؤامرة ، وأرسل قوات إلى منزل «لطيف» لكنه استطاع الفرار . وفى أثناء ذلك، يبدو أن عناصر أخرى منشقة من الأهالى قد انضمت إلى هذا التمرد ، كان من بينهم زعيم شعبى سابق هو حجاج الخضرى، وقبض على «لطيف» وقطعت رأسه كما شنق «حجاج» وليس من المعروف ما إذا كانت الحادثة ملفقة للتخلص من «لطيف» أو محاولة حقيقية للإطاحة بالباشا ، لكن العثمانيين كانوا المشتبه فيهم الظاهرين (٢).

١- عفاف لطفى السيد مارسو :مصر فى عهد محمد على، ترجمة عبد السميع عمر زين الدين، مراجعة السيد أمين شلبى، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة، ٢٠٠٤ م، ص١٠٧، ١٠٨ .

٢- نفسه ، ص١١٧، ١١٨ .

٢- الحملة الإنجليزية على مصر سنة ١٨٠٧م:

وفى بادئ الأمر لم يكن هناك ما يدعو إلى التفكير فى أن باشوية محمد على ستظل فترة طويلة من الزمن . ففى مصر كان محمد على تواجهه قوة المماليك الذين سيطروا على مصر العليا ، وكانت الدعامة العسكرية الرئيسية التى اعتمد عليها هى الحامية العثمانية عن رغبتها فى استعادة سيطرتها الكاملة على إدارة مصر/ ومن ناحية أخرى تجدد الصراع بين بريطانيا وفرنسا بعد معاهدة إميان سنة ١٨٠٢م قصيرة الأجل ومن الممكن أن تصبح مصر مرة أخرى ضرورة استراتيجية لكل من المتنافسين/، ولكن أمكن التغلب على هذه العقبات بالتدريج . فعزل السلطان المصلح سليم الثالث فى عام ١٨٠٧م وبسقوطه توقفت إعادة تنظيم الإمبراطورية فعلا لمدة عشرين سنة تقريبًا ، ماعدا محاولة فرض السيطرة المركزية فى الولايات فى معظم أجزاء روميليا والأناضول ، وعندما بدأ السلطان محمود الثانى (١٧٨٥-١٨٣٩م) فى عام ١٨٢٦م فترة جديدة من الإصلاح والسيطرة المركزية كان لدى محمد على الوقت الكافى لكى يدعم مركزه فى ولايته ويعيد تنظيم مصر حتى يزيد من قوته الشخصية . ولذلك كان التهديد الناشئ من التنافس الإنجليزى الفرنسى أكثر شدة وسرعة. ففى عام ١٨٠٦م نجح بونابرت - الذى بلغ أقصى مراحل نفوذه- فى القضاء على التحالف الإنجليزى العثمانى. وقد تطور الموقف السياسى والعسكرى فى أوربا فى غير صالح الإنجليز، بسبب التقارب والتفاهم الذى حدث بين نابليون الأول والسلطان سليم الثالث. ونجحت الدبلوماسية الفرنسية فى إقناع السلطان بإعلان الحرب على انجلترا وروسيا فى ديسمبر سنة ١٨٠٦م ، ولذلك ردت الحكومة البريطانية على ذلك الموقف المتأزم فى أوروبا بإرسال أسطول إلى الدردنيل والبسفور فى فبراير ١٨٠٧ م/[١]، وفى الثانى والعشرين من مارس سنة ١٨٠٧م ، نزل الإنجليز إلى شواطئ الإسكندرية واحتلوا المدينة وفى الحادى عشر من أبريل أرسل الكسندر فريزر ، القائد العام للجيش البريطانى، إلى «اللواء نائب حاكم القاهرة كتابًا بعث به أمير البحر، بخبره بأنه حضر لكى يعمل على استتباب الأمن ومساعدة أصدقاء الإنجليز ويأمره بالحضور إلى الإسكندرية وإنه فى انتظار وصول القوات الأخرى من صقلية ومالطة/ وفى الوقت نفسه أصدر الديوان فى استانبول إلى محمد على بوضع حد لعملياته

١- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص١٠٨-١٠٩ .

الحربية ضد المماليك ويرد أملاكهم إليهم ثم بالاتحاد معه فى سبيل دفع كل محاولة لنزول الإنجليز مصر [١].

واستولى الجيش الإنجليزى على مدينة الإسكندرية بفضل ما بذل من ألوان الخيانة والغدر والاتفاق مع الإنجليز. وخلال ذلك استمر محمد على فى حملته ضد المماليك، فى الوجه القبلى، وغداة انتصاره بجوار المنيا، بلغه خبر اجتياح البريطانيين الأراضى المصرية. فلم يجد الباشا أمامه متسعًا من الوقت للاستمرار فى القتال . وبعد الانتهاء من المعركة الأخيرة ضد المماليك فى أسيوط، تلك المعركة التى لم تسفر عن نتيجة حاسمة ، رأى محمد على أن من المناسب أن يشرع فى مفاوضات الصلح مع البكوات المماليك، حتى يتسنى له العودة إلى القاهرة[٢]. ويعدهم بأن يعيد إليهم مصر كلها بشرط أن يساعدوه فى تخليص مصر من القوات البريطانية. ووعدهم ، إذا ما حدث ذلك أن يجتمعوا جميعًا ويقرروا شكل الحكومة المقبلة فى البلاد. وقد رفضت جماعة الألفى العرض البريطانى للانضمام إليهم وقالوا إنهم لن يستخدموا المسيحيين لمحاربة المسلمين وانتظر باقى المماليك ليروا محصلة النزاع الجديد[٣].

وقد ارتكب فريزر عقب استيلائه على الاسكندرية خطأ جسيمًا سببه عدم التبصير، فقد تسلل فى أزقة رشيد الضيقة آملاً أن ذلك سيسهل انضمام جنود الألفى إلى جيشه لكن الأمر جاء على غير هواه ، وذهبت أمنيته أدراج الرياح [٤]، حتى أن محمد على باشا نفسه انحلت عزائمه[٥] ووضح ذلك فى صلحه مع المماليك عندما أدرك أن الإنجليز سيحتلون مصر، وعزم على العودة متلكئًا فى السير وهو يظن أن الإنجليز قد يدخلون القاهرة فيتابع طريقه إلى الشام فيكون ذلك عذراً لعدم اشتراكه فى التصدى للحملة[٦].

١- رينيه قطاوى، جورج قطاوى ، المرجع السابق، ص٥٨ .

٢- نفسه ، ص٥٨ .

٣- عفاف لطفى السيد، مصر فى عهد محمد على ، ص١٠٣ .

٤- عصام محمد شبارو ، المقاومة المصرية للاحتلال الفرنسى والغزو البريطانى ، بيروت ١٩٩٢، ص١١ .

٥- عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ج٤ ، ص٥٢ .

٦- عصام محمد شبارو، المرجع السابق ص ص١١٥-١١٦ .

وتجلى تحرك الحركة الوطنية المصرية فى القاهرة بزعامة عمر مكرم بالتنظيم وتعطيل الدراسة فى الأزهر كى يتفرغ مشايخه وطلابه للجهاد . وكانت دعوة عمر مكرم رجال الأزهر للمشاركة فى القتال دليلاً على أن الشعب لم يكن ينظر إليهم على أنهم علماء دين فحسب بل رجال سياسة أيضًا لهم دورهم المهم فى الدفاع عن البلاد . قام عمر مكرم بهذا الدور القيادى ومحمد على لايزال فى الصعيد، يتلكأ فى العودة إلى القاهرة دون أن يكون له أثر فى توجيه الشعب أو استنفاره للقتال، والتصق المصريون بزعيمهم عمر مكرم واستجابوا لندائه، ومنهم من تطوع لحفر الخنادق حول القاهرة ، ومنهم من تطوع بالسفر إلى رشيد، وعندما وقعت المعركة الفاصلة فى الحماد كانت القوى الوطنية المصرية فى كل مكان تشارك فى التصدى للإنجليز وهزيمتهم[1].

اعتقد الإنجليز بعد دخولهم الاسكندرية ، أنه فى مقدورهم امتلاك مصر كلها من هنا رأى ميسيت قنصل إنجلترا العام فى مصر أنه لابد من احتلال رشيد والرحمانية بهدف تدعيم سلامة مركز الحملة فى الإسكندرية ، وأكد أن الاستيلاء عليها سيكون بمثابة نزهة حربية للقوات الإنجليزية خاصة وأن محمد على مشغول فى صراعه مع المماليك.

وعلى هذا الأساس أرسل فريزر من الاسكندرية قوة تتألف من ١٤٠٠ جندى بقيادة الجنرال ويكوب Wacop للاستيلاء على رشيد فى ٢٩ مارس ١٨٠٧م ، رغم أن تعليمات الحكومة الإنجليزية لقائدها فى الإسكندرية كانت تقضى بألا يحاول التوغل فيما وراءها وبألا يتدخل فيما كان يجرى بين الأحزاب المختلفة فى مصر وتأهب الجيش الإنجليزى لدخول رشيد فى ٣١ مارس .

قرر محافظ رشيد على بك السلانكلى مقاومة الجيش الإنجليزى معتمداً على الشعب وحامية المدينة وعددها ٧٠٠ جنديًا ، وأمر على بك أن تتراجع الحامية داخل المدينة وأن تعتصم مع الأهالى فى المنازل ، وأصدر الأمر بألا يبادر الجنود إلى إطلاق النار إلا عند صدور الإشارة بالضرب ، كما أمر بإبعاد السفن التى يستخدمها الأهالى فى عبور النيل إلى الضفة الشرقية حتى لايفكر أحد منهم أو من الجنود فى الانسحاب من رشيد كما فعل جنود حامية الاسكندرية. وأدرك سكان رشيد أن نهر النيل من ورائهم والإنجليز من أمامهم مما شجعهم على الاستبسال فى القتال[2].

١- عصام محمد شبارو : المرجع السابق ، ص ص١١٥-١١٦ .

٢- عبد العزيز محمد الشناوى، عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، القاهرة، ١٩٦٧م، ص١٨٧ ؛ عصام محمد شبارو، المرجع السابق، ص١١٧ .

تقدم الإنجليز دون أن يجدوا أثراً للمقاومة خارج المدينة فاعتقدوا أن حاميتها قد اعتزمت إخلاءها وتسليمها كما فعل أمين أغا(١) حاكم الإسكندرية ، فدخلوا المدينة وفي اعتقادهم أنها سقطت نهائياً في أيديهم ، وانتشروا في طرقاتها وأسواقها يرتادون أماكن يلجأون إليها ويستريحون فيها ، ثم تجردوا من سلاحهم ، عندها أصدر على بك أوامره بالتصدى للإنجليز بعد أن تأكد له أنهم أصبحوا في المصيدة العسكرية التي نصبت لهم، وتحولت المدينة كلها إلى بركان قذف حممه ضد الإنجليز الذين امتلأت شوارع رشيد بقتلاهم، ومن بينهم قائد الحملة والكثير من أركان حربه، أما من بقي حياً فقد لاذ بالفرار. وقد حاول قائد الأسطول الإنجليزى الراسى في البحر عند مدخل فرع رشيد أن يقتحم النهر بزوارق صغيرة لإنقاذ القوة المهزومة، ولكن قلعة رشيد المشرفة على الموقع وثلاث سفن مزودة بالمدفعية كانت تحت تصرف حامية رشيد التحمت بالأسطول الإنجليزى وصدته بعنف (٢).

وبلغت خسائر الإنجليز في هذه المعركة الوطنية حوالي ١٧٠ قتيلاً و٢٥٠ جريحاً و١٢٠ أسيرا سيقوا إلى القاهرة، أما خسائر المصريين فكانت ٤٠ رجلا وحوالي ١٠٠ جريح ، وكان لهذه الهزيمة وقع كبير على نفوس أهالي القاهرة فخرجوا «للفرجة» على أسرى الإنجليز عند وصولهم القاهرة يوم ٥ أبريل ١٨٠٧م.

أراد الجنرال فريزر أن يمحو آثار هذه الهزيمة فأرسل حملة ثانية تتألف من ٢٥٠٠ جندى بقيادة الجنرال وليم ستيوارات William- Stewart، وكانت مجهزة بالمدافع الثقيلة فاحتلت قرية الحماد التي تقع جنوبي رشيد بين النيل وبحيرة إدكو، وكان الغرض من احتلالها تطويق رشيد ومنع وصول المدد إليها. كما احتلوا ربوة أبي مندور في ضواحي رشيد ونصبوا عليها المدافع لدك مدينة رشيد.

وكان الإنجليز يعتقدون أن ضرب رشيد بالمدافع سيلقي الرعب في نفوس الحامية والأهالي

١- أغا ، تركية من المصدر أغمق ومعناها الكبر وتقدم السن، وقيل أنها من الفارسية (آقا) وجرى العرب على إضافة تاء إليها إذا وقعت مضافا . تطلق في التركية على الرئيس والقائد وشيخ القبيلة وعلى الخادم الخصى الذي يؤذن له بدخول غرف النساء. (انظر أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق، ص١٧) .

٢- عصام محمد شبارو، المرجع السابق، ص١١٧ .

يضطرهم إلى التسليم ، وقد أنذروهم أكثر من مرة بأن يسلموا المدينة لكنهم رفضوا[١] وأرسل السيد حسن كريت نقيب الأشراف[٢] فى رشيد الرسائل إلى السيد عمر مكرم فى القاهرة يطلب منه إمداد المدينة بالرجال والعتاد ، فحض عمر مكرم الأهالى على التطوع فاستجابوا لندائه، وكذلك تطوع أهالى البحيرة والمناطق المجاورة لرشيد وأقبلوا عليها للدفاع عنها، ثم أرسل محمد على حملة تتألف من أربعة آلاف من المشاة وألف وخمسمائة من الفرسان تحت قيادة نائبة الكتخدا طبوز أوغلى[٣] ودارت بين المصريين والإنجليز معركة فى الحماد يوم ٢١ أبريل ١٨٠٧م استمرت ثلاث ساعات وانتهت بهزيمة الجيش الإنجليزى الذى حاول الإنسحاب ففشل وتعرض للإبادة ، فمن لم يدركه القتل لم يسلم من الأسر [٤].

وهذه الهزيمة دفعت بالجنرال ستيورات إلى رفع حصاره عن رشيد والانسحاب إلى أبى قير ، حيث انتقل منها منسحباً إلى الاسكندرية عن طريق البحر .

استقر فريزر فى الاسكندرية وأخذ يحصنها ، فى حين أخذ محمد على يستعد للزحف على الاسكندرية لإجلاء الإنجليز عنها. لكن الحكومة الإنجليزية أمرت فريزر بالانسحاب[٥] وبعد الهزائم المتكررة ، وبعد أن اتضح لها أن وجودها منعزلة فى الاسكندرية وفى حالة الضعف التى هى عليه لايفيد سوى فائدة ضئيلة فى المجهود الحربى فى البحر المتوسط[٦] ولم يكن

١- عبد الرحمن الرافعى، عصر محمد على، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٥١، ص٥٦ .

٢- نقيب الأشراف : كلمة أشراف تعنى أولئك الأفراد الذين هم من نسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، سواء أكان ذلك عن طريق الأب أو الأم ولم يكن هؤلاء بالضرورة رجال دين، وإنما كان منهم التاجر والصانع والفلاح وأن العلاقة القوية التى وجدت بين أرباب الحرف والأشراف نظراً لوجود كثير من الأشراف بين الحرفيين، قد أفادت الأشراف من ناحيتى التنظيم والقوة فقد دعمهم أرباب الحرف وهم عادة ذوى سلطة سياسية وقد تمتع الأشراف باحترام خاص من مجموع الشعب وشكلوا جماعة منفصلة ومتميزة وحتى تراقب الدولة هذه الجماعة وتمنع الناس من إدعاءات النسب الشريف أوجد العباسيين ثم المماليك رئيسا للأشراف أطلق عليه «نقيب الأشراف» سارت الدولة العثمانية على نفس المنهج وكان لنقيب الأشراف سلطة على نقباء الأشراف فى الولايات وهو الذى يعينهم وله سلطة قضائية عليهم (انظر ، عبد العزيز محمد الشناوى، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، ج١ ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص١٣١) .

٣- عصام محمد شبارو، المرجع السابق، ص١١٨-١١٩ .

٤- نفسه، ص١١٩ .

٥- محمد شفيق غربال، محمد على الكبير، القاهرة ص١١٠ .

٦- محمد أحمد أنيس، التطور السياسى للمجتمع المصرى الحديث، القاهرة ١٩٦٠، ص٩٤

ذلك عدلاً عن تحقيق أطماعها الاستعمارية في وادي النيل بل لأن الحالة السياسية في أوربا كانت لاتمكنها من متابعة حملتها على مصر، بعد أن أصبح نابليون سيد القارة الأوربية وأخذ يستعد لغزو انجلترا نفسها[١].

أطاحت معركة رشيد بهيبة الإنجليز التي اكتسبوها في أعين المصريين، بعد انتصارهم الساحق على الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية، وفي نجاحهم في إجلاء الفرنسيين عن مصر، وقد قرر فريزر في تقرير رفعه إلى وزارة الحرب أن الهزيمة كانت بلاشك ضربة قاسمة غير متوقعة أصابت الإنجليز. أما ميسيت قنصل انجلترا العام قد علق على انتصار المصريين في رشيد أن العالم بأسره ستعتريه دهشة بالغة حين يسمع أن مدينة رشيد إستعصت على جيش أوروبي حديث[٢].

كان محمد على على وعي تام بالخطر المقترن بالاقتتال مع البريطانيين، ولهذا جرب وسائل أخرى وسعى إلى التفاوض مع الجنرال فريزر للجلاء عن الاسكندرية ولما كانت البحرية البريطانية مسيطرة على البحر المتوسط فقد كانت الشجاعة الحقة في أن يعمل على تهدئتهم إلى أبعد مدى ممكن، وأن يسمح بدخول الطعام للمدينة بدلا من أن يحاول تجويع الحامية التي كان يمكن أن تموت عن طريق البحر. في ذلك الوقت كان البريطانيون يحاربون قوات «نابليون» في شبه جزيرة إيبيريا وكانوا في أمس الحاجة إلى الحبوب لإطعام جيشهم، كان أملهم أن يحصلوا على هذه الحبوب من المماليك في مصر، وهو ما يفسر تأييدهم الدائب للمماليك. وهكذا مرة أخرى كان مقدراً لمصر أن تصبح متأثرة بعوامل مؤثرة خارجية الحروب النابليونية، وقام محمد على الذي كان يعلم بحاجة البريطانيين إلى الحبوب في «مالطة» بعرض بيعها لهم، كذلك عرض عليهم تسهيلات تجارية وتأمينا لخطوط مواصلاتهم في الهند، وفي مقابل ذلك طلب تعهدات بمساعدات بريطانية واعترافا بمركزه المستقل في مصر، وبعث ميسيت إلى كانينج Caning وزير الخارجية في ١٣ يونيو عام ١٨٠٧م بتقرير تضمن تطورات الأحداث، وأكد له أنه نجح في أن يلقي في رأس محمد على بذور الشك تجاه الفرنسيين ونواياهم في مصر، وكان مقتنعا بأنه قد كسب الوالي إلى صفه إلى حد تأكيده

١- عصام محمد شبارو، المرجع السابق، ص١١٦ .

٢- نفسه، ص١١٨ .

«على أنه لن يجد أبداً بعد ذلك مبرراً للشكوى من هذا الانحياز للأمة الفرنسية ، كان ذلك تساهلاً من جانب ميسيت إلا أن الأحداث المتلاحقة قد أظهرت انحيازاً مستمراً للفرنسيين ومضى «ميسيت» قائلاً صحيح أنه (محمد على) طالما تطلع إلى أن يصبح مستقلاً عن الباب العالى؛ فإذا ما ساعدناه بقوة فى تحقيق هدف طموحه هذا فلعله قد يجد فى ذلك حافزاً على قطع كل صلاته بفرنسا، ولم يكن «ميسيت» على أية حال ، محبذاً لمثل هذا التأييد، لأنه كان مقتنعاً أن قوة محمد على الرئيسية مصدرها القوات الألبانية، وهم من المرتزقة القادرين على إثارة حركات التمرد، وجعل البلاد عرضة لعدم الاستقرار، كان يعتقد أنه من الضرورى أن يجبر كل من محمد على والألبان عن الجلاء عن البلاد وأن تعاد إقامة حكومة المماليك، وكان من المفهوم أن يقوم البكوات، عرفاناً منهم بالجميل ، بتقديم كل الامتيازات التى طلبتها الحكومة البريطانية، وختم «ميسيت» تقريره بقوله هل يُسمح للعالم أن يسلم بفكرة تفوق القوات العثمانية على القوات البريطانية، كانت مثل هذه الغطرسة فى أعقاب هزيمة عسكرية فى غير محلها .

وقد رفضت السلطات البريطانية شروط محمد على إلا أنه فى شهر سبتمبر جلت القوات البريطانية عن مدينة الاسكندرية، ولم تعقد أية ترتيبات مع الوالى، باستثناء عرض شراء الحبوب منه، وهو عرض قام بتنفيذه عام ١٨٠٨ [١].

وقد حددت هذه الحادثة الخطوط الأساسية لاتجاهات المستقبل ، ويأتى فى المقام الأول أنها أذكت لدى محمد على شكوكًا دائمة فى النوايا البريطانية تجاه مصر ، كما غرست فى داخله إدراكًا أن بريطانيا من خلال قوتها البحرية، يمكن أن تصبح حليفًا لايقدر بثمن، ذلك الحليف الذى ظل يتقرب إليه بغير نجاح طيلة ما تبقى من أيامه ، وبصورة متلازمة ، أدى الحادث إلى تدعيم إيمانه بأهمية هذه القوة البحرية عنده بما يكفى للدفاع عن المدن الساحلية ولتحدى أى حصار بحرى تفرضه قوات معادية، وهذا ما أدى به إلى إنشاء أسطول مصرى، وبحرية تجارية، منذ وقت مبكر. وقد توصل المماليك قبله كذلك إلى نفس الاستنتاجات وقاموا بتشغيل بناة سفن وسباكى مدافع من اليونانيين لهذا الغرض ، ويأتى فى النهاية أن الحادثة كشفت عن الوسائل التى يمكن عن طريقها إعداد مشروع مالى مربح، وبصفة خاصة بيع الحبوب إلى القوات البريطانية فى مالطة وشبه الجزيرة الايبيرية [٢].

١- عفاف لطفى السيد، المرجع السابق، ص١٠٣-١٠٥ .

٢- نفسه ، ص١٠٥ .

هذا الاحتلال البريطانى ، الذى لم يدم سوى ستة أشهر ، كشف للوالى مدى ضعف موقفه داخل مصر. فمع وجود المماليك من ورائه ، ثم الإيقاع به فى حركة كماشة أجبرته على أن يعد المماليك بأى شئ مع وجود نية مؤكدة لديه للتحلل من وعده فور زوال الخطر. وهكذا وضع عدم استقرار مركزه أكثر من أى وقت مضى، وبدت الحاجة إلى تخلصه من الخطر الداخلى كبيرة[1].

لقد كان انتصار المصريين فى رشيد وإخراج الإنجليز من مصر فى مقدمة العوامل التى وطدت من سلطة محمد على فى وقت باتت البلاد فى حالة من عدم الاستقرار حيث تفاقم نفوذ العسكر وكل طائفة متخوفة من الأخرى ، الأرناؤد فرقتان : فرقة تميل إلى الأتراك العثمانية وأخرى تميل إلى جنسها . والدلاه تميل إلى العثمانيين وتكره الأرناؤد والناس فى تخوف من الجميع ومنهم من يخشى قيام الرعية.

لقد أتاح إخراج الإنجليز من مصر فرصة امتداد نفوذ محمد على إلى الاسكندرية ، التى لم يكن قد وصلها بعد ونظراً لحالة الفوضى التى باتت تهدد سلطة الوالى الذى أقدم على إلغاء مسموح المشايخ والفقهاء وكافة الأراضى المعفاة من الضرائب[2].

وبعد هذا النصر فكر محمد على فى أن يستغل العلاقات بين انجلترا وفرنسا لصالحه ، ولم يعد يعتبر نفسه كدمية تحركها الأهواء والمصالح المتناقضة للإنجليز أو الفرنسيين ، بل على النقيض من ذلك، أخذ يلعب على هذا الوتر ويضربها ببعض من أجل ترجيح وجهة نظره ووضع مصالحه فى المقام الأول، وعلى ذلك فقد كان يتمتع بالصداقة التى تربطه بالفرنسيين ، فإنه لم يحاول قطع العلاقات مع بريطانيا ولذا فقد قرر أن يهتم بهم ويتملقهم ويؤدى لهم خدمات ، وعندما علم بوجود نقص شديد فى القمح اللازم لتغذية القوات البريطانية المشتبكة فى أسبانيا ضد نابليون ، عرض تزويدهم بما يحتاجون من قمح ولكن مقابل بسعر مرتفع كما عرض عليهم ضمان طريقهم المتجه إلى الهند، فعرف كيف يستغل نقطة الضعف لدى الإنجليز

١- عفاف لطفى السيد : المرجع السابق ص١٠٦ .

٢- محمد صابر عرب، تجربة محمد على فى كتابات الجبرتى، ضمن كتاب إصلاح أم تحديث، مصر فى عصر محمد على، ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بمناسبة مرور ١٥٠ عاما على رحيل محمد على باشا الكبير، تحرير رؤوف عباس ، القاهرة ، ٢٠٠٠م، ص٨٥ .

هى التأكد من سلامة اتصالاتهم مع مستعمراتهم فتقدم لهم بمهارة هذا الضمان ولكن فى مقابل اعتراف لندن بوضع خاص لمصر فى إطار الإمبراطورية العثمانية، وفى هذا الصدد ذهب بعيداً جداً فى مهمته هذه وبدأ وكأنه يسلك سلوك الوصولى «فقد كان يفكر حينئذ فى الحصول على نوع من الحكم الذاتى لمصر واستقلالها عن الإمبراطورية العثمانية، ولكنه نسى أن خيوط اللعبة ليست فى يده وأنه سيد الموقف وأنه لايشكل جزءاً من الاستقرار» .

صدمت الحكومة البريطانية من هذا الاقتراح ، وليس فى نيتها التدخل فى الشئون الداخلية للإمبراطورية العثمانية وتوجيه ضربة قاصمة للباب العالى تولد عداءً جديداً فى العلاقات بينهما، رفضت الحكومة البريطانية بكل استعلاء هذا العرض غير اللائق على أن يتم إصلاح وضع المماليك المتعاونين معهم، ولكن فى المقابل وبنظرة عملية من جانب البريطانيين قبلوا تزويدهم بالحبوب المصرية[1].

وانحدر دور محمد على إلى مجرد تاجر حبوب، واحتفظ بهذا التقرب السياسى مع البريطانيين الذى اتسم بالريبة وعدم الثقة نحوهم وظلت تلك الريبة تلازمه طوال حياته . فكر محمد على ملياً فى موقف الحكومة البريطانية المتشدد تجاهه واستنتج أنه يرجع إلى أن لديها أسطولاً قوياً يستطيع فى أية لحظة إصدار قرار بإغلاق ميناء الاسكندرية ، لذا فإن مصر محمد على ينبغى عليها إنشاء أسطول قوى بأسرع ما يمكن وأعطى لهذا المشروع الأولوية المطلقة.

ومع ذلك فقد عرف عن والى مصر الجديد أنه لم يذق طعم الراحة لحظة واحدة. فبمجرد نجاحه فى إضعاف شوكة المماليك وهزيمة الإنجليز حتى وجد نفسه أمام ثورة الألبان للمطالبة برواتبهم ، وكانت الثورة موجهة ضده شخصياً وحاصر الثوار منزله، لكن لحسن الحظ هربوا ونهبوا كل شئ وقلبوه رأساً على عقب ، ورغم تأثر محمد على بخيانة وغدر المخلصين له فقد استطاع أن يغير الموقف بمهارة لصالحه باتهامه الضباط بالاحتفاظ برواتب الجنود لأنفسهم، واستغل هذا الموقف للتخلص من بعضهم وأوجد نظاماً عنيفاً داخل قواته[2].

١- جى فارجت، محمد على مؤسس مصر الحديثة، ترجمة محمد رفعت عواد، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٣م، ص٤١ .

٢- جى فارجت، المرجع السابق، ص٤١ ، ٤٢ .

أما بالنسبة لموقف الدولة العثمانية منه بعد فشل الحملة الإنجليزية على مصر فقد صدر فرمان في ١٨٠٧م، خطاباً إلى محمد على باشا والى مصر بالإحسان عليه وعلى حسن باشا ومحمد طاهر باشا وأحمد طوسون بك ومحمد أغا محافظ الاسكندرية ، وضباط العسكرية بالخلع والوظائف العسكرية وعلى الأمراء المصريين ونقيب الأشراف وشيخ البلد بالخلع الفاخرة أيضاً مكافأة لهم وممنونية منهم على ما بذلوه في استرداد قلعة الاسكندرية من عساكر الإنجليز وجاء فرمان آخر بتاريخ ٢٣ شوال من نفس العام بالدفتردارية لإبراهيم ، والعفو عن جميع العساكر مقابل إخراجهم الإنجليز من الاسكندرية (١).

٣- الزعامة الشعبية :

كان مخطط محمد على السياسي يرمى إلى إنشاء حكم وراثي في مصر داخل نطاق الدولة العثمانية أي أن يستقل في شئون الحكم الداخلي(٢) ويتطلب هذا المخطط القضاء على القوى الثلاث التي تهدد أو تمنع تنفيذه وهي القوة السياسية المتمثلة في الحركة الوطنية بزعامة عمر مكرم، والقوة الفكرية المثقفة بزعامة الشيخ الجبرتي ، والقوة العسكرية بزعامة المماليك. كما تطلب إيهام الدول الكبرى بمحاولة إقامة الدولة العربية الكبرى حتى يحقق محمد على غايته داخل مصر.

بالرغم من أن محمد على كان مديناً إلى الزعامة الشعبية بوصوله إلى حكم مصر، فقد عمل على التخلص من هذه الزعامة التي تمثل قوة الحركة الوطنية المصرية، وهذا يعني الصدام المباشر مع عمر مكرم، وكان ذلك طبيعياً بسبب التناقض والاختلاف بين طبيعة كل من القوتين، محمد على كان يمثل قوة الدولة أي سلطة القمع والإرهاب الوحيدة في المجتمع ، وقوة عمر مكرم كانت ترتكز إلى قوة الشعب المصري الذي كان يرى ضرورة الحد من سلطة العثمانيين والمماليك عليه .

من هنا كان التصادم بين القوتين ، فمحمد على يريد بناء الدولة الحديثة التي لاتعترف

١- أمين سامي باشا، تقويم النيل، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ٢٠٠٣، ص٢٠٩ .

٢- عصام محمد شبارو، المرجع السابق، ص١٢٣ .

بالقوى المحلية، وعمر مكرم كان يريد بقاء المراقبة الشعبية على محمد على الذى يريد أن يكون هو وحدة الحكم والحكم فى الدولة الجديدة .

أدت تحركات «عمر مكرم» الأخيرة ضد الإنجليز والألبان إلى إلقاء الأضواء على إمكانيات الرجل. لقد أنقذ الوالى فى مناسبات عدة، إلا أن بإمكانه بالتالى، أن يكون عنصراً خطراً فى المجتمع نتيجة لدهائه ونفوذه ونتيجة لعلاقاته الشعبية، إذا ما اختار أن ينازع الوالى [١].

لم تكن عائدات الأرض مرضية بوجه عام ، إذ كانت الدولة تفقد أجزاء كبيرة من العائدات من خلال حيلة أو أخرى ، فقد أدى التوسع فى أراضى الأوقاف إلى استبعاد خمس الأراضى القابلة للزراعة من مجال عمل جامع الضرائب ، بينما ساعد نظام الالتزام بصفة عامة على تحويل فائض الأرض إلى جيوب الوسطاء المختلفين بدلاً من جيب الدولة أو حتى جيب «الملتزم» وباختصار كان نظام ملكية الأرض فى حاجة إلى إصلاح شامل، الإصلاح الذى يتيح «للملتزم» إمكانية الحصول على المزيد من الفائض من الفلاح- وهو ما كان يأمل فيه الملتزمون ويتوقعون الحصول عليه من زعيمهم الجديد أو الذى يتيح للسلطة المركزية تحويل المزيد من الفائض إلى خزائنها هى، مع إحلال وكالة أكثر كفاءة لجمع الضرائب محل «الملتزمين» وكذلك بالتوسع فى مساحة الأرض الزراعية بواسطة سلسلة من الأشغال العامة، ولم تكن أى من هذه الخطوات جديدة على مصر فقد كانت هى نفسها الوسائل التقليدية والمعتادة لزيادة عائدات أية حكومة مركزية قوية. وقبل أن يكتمل تنفيذ هذه الخطوات، كان من المحتوم أن يدخل محمد على فى نزاع مع مؤيديه الأوائل العلماء والملتزمين الذين رأوا فى خطواته خطراً على مصالحهم المكتسبة ، والذين حاولوا دون أى نجاح ، إعاقة تحركاته فى ذلك الوقت ، كان تحالف النخب الاجتماعية يميل بثقله ناحية حلف يضم التجار والصفوة ، بينما كان الملتزمون ومعهم العلماء ينبذون خارج الحلف تدريجيًا ، ما لم يقبلوا بإعادة توزيع الثروة الزراعية ، وقد قبل بعض العلماء دورهم الثانوى بينما سعى آخرون مثل «عمر مكرم» إلى الوقوف فى وجهه، وكان ما فقدوه نتيجة اقدامهم على هذا أكثر من مجرد أرضهم الزراعية [٢].

١- عفاف لطفي السيد، المرجع السابق، ص١٠٧ .

٢- نفسه ، ص١٠٩، ١١٠ .

وفى عام ١٨٠٩م، بدأت مبيعات المواد الخام بغرض التصدير تأخذ مكانها من جديد، ولم يكن فى وسع رجل مثل «بوغوص» الذى أصبح فيما بعد ناظراً للخارجية ، والذى كان فى سابق أيامه موظفًا بالجمارك كما كان تاجراً للغلال، إن لم تكن ذا فائدة بصفته كبيراً للمترجمين ، إن لم يوضح لمحمد على مزايا تصدير المواد الخام والتوسع فى هذه التجارة ، لم تكن إنجلترا وحدها هى التى تحتاج إلى الغلال فى مالطة «وإنما كان جنوب البحر المتوسط عامة سوقًا للمواد الخام المصرية ، وكانت صفقة الغلال الأولى عام ١٨٠٨م مجرد تأكيد لأهمية مثل هذا البند من بنود الصادرات، وكانت السيطرة على تجارة المواد الخام والتوسع فيها يستلزم تعديل نظام ملكية الأرض الزراعية ؛ تعديلاً يسمح بسيطرة أكبر على إنتاج الأرض الزراعية من جانب الحكومة المركزية ، وقد بدأ كما لو أن التحالف السابق من النخب الوطنية - العلماء والتجار والملتزمين» وموظفى الإدارة الحكومية تبدو عليه إمارات الإجهاد مع وجود مصالح متباينة متجاذبة فى اتجاهات مختلفة ، وكان لمحمد على الكلمة الأخيرة عن الاتجاه الذى يجب أن يتخذه، إذ أنه كان يتحدث والجيش تحت إمرته ، وقد توافقت مصالحه - بتوجيهاته التجارية- مع مصالح التجار الأمر الذى يعنى تدهور قوة تحالف الملتزمين / العلماء. ففى المقام الأول أظهر العلماء ضعفهم الأساسى فى وقت مبكر، وأدرك هو أنه يمكن إخافتهم بسهولة . كما أدرك فى الوقت نفسه إمكانيات التجارة على امتداد حوض البحر المتوسط بدأ الخلاف بين الزعماء ومحمد على فى شهر أغسطس ١٨٠٨، حين فرض ضريبة قدرها ٤٪ على كافة أنواع الحبوب والمأكولات التى تباع فى الأسواق والميادين والشوارع ، ثم أرهق الشعب المصرى بسيل متدفق من الضرائب والإتاوات والقروض الإجبارية، عدا المصادرات والاستيلاء على قوافل التجارة وإجبار أصحابها على افتدائها بالمال . فارتفعت الأسعار ارتفاعًا فاحشًا ، وحدث من قبيل المصادفة أن ألقى رجال الشرطة القبض على أحد طلبة الأزهر وهو من أقارب العلماء واقتيد إلى القلعة حيث اعتقل بها فازداد سخط الناس وتوجهوا نحو الجامع الأزهر ٣٠ يونيو ١٨٠٩ للاحتجاج (١).

كما أرسلوا فى طلب عمر مكرم الذى جاء معتقداً أن فى استطاعته إلزام محمد على برفع المظالم عن الشعب وحمله على التشاور معه ومع الزعماء الآخرين لما فيه مصلحة الشعب المصرى. ومن هنا رأى زعماء الشعب المصرى أن الوقوف فى وجه محمد على يحتم عليهم

١- عبد العزيز محمد الشناوى، عمر مكرم، ص٢٢٢ .

تجميد خلافاتهم الشخصية[1] وهذا ما تم فعلاً . ثم انطلقوا في مجابهتهم لمحمد علي فأرسلوا له مذكرة في أول يوليو سنة ١٨٠٩م يطلبون فيها إلغاء الضرائب المستحدثة وإطلاق سراح الطالب الأزهري المعتقل إلا أن محمد علي تجاهل المذكرة رغم أنه أطلق سراح الطالب الأزهري، وأخذ يرسم الخطط لبذر التفرقة بهدف خلخلة الصف الوطني المتحد لتحرير ما يريده هو لأهم من مشاريع مستقبلية لبناء الدولة الجديدة في مصر، إنها السياسة القديمة «فرق تسد»[2].

ولاحت لمحمد علي هذه الفرصة حينما تنافس الزعماء على منصب ناظر الجامع الأزهر الذي جرت العادة منذ الحكم العثماني أن يتقلده أحد الأمراء المماليك بسبب إيراده المالي، واستمر هذا الإجراء حتى ألغاه الفرنسيون ، وألحقوه بمشيخة الأزهر. لذلك عندما أراد الشيخ محمد الأمير فصله مجدداً عن مشيخة الأزهر انقسم العلماء إلى فريقين أحدهما يناصر محمد الأمير، والآخر إلى جانب شيخ الأزهر عبدالله الشرقاوي[3] وازداد الانقسام حينما نصب العلماء أنفسهم واسطة بين جماهير الشعب والسلطة الحاكمة مقابل الثمن المادي الذي كانوا يتقاضونه من أفراد الشعب، وبذلك فقد عظم هؤلاء أهم صفات العلماء من التقوى والورع وضاعوا في الملذات الدنيوية. بالإضافة إلى أن هؤلاء العلماء كانوا ينظرون إلى عمر مكرم نظرة الحقد لأن الالتفاف الشعبي حوله ألغى الكثير من امتيازاتهم السابقة[4].

استغل محمد علي هذا التنافس بين العلماء فيما بينهم من جهة ، وبينهم جميعًا وعمر مكرم من جهة ثانية لصالح سياسته «فرق تسد» فشمل العلماء بالاعفاءات الضريبية على أملاكهم بهدف كسبهم إلى جانبه، وتم له ما أراد ثم استدار نحو عمر مكرم . وبذلك قضى هؤلاء العلماء على أنفسهم بأنفسهم لأنهم ضاعوا في الملذات التي قدمها لهم محمد علي كطعم سياسي، واتخذ منهم وسيلته نحو غايته الرئيسية وهي القضاء على عمر مكرم الزعيم الشعبي الحقيقي . لذلك فإن محمد علي سيعمل بعد القضاء على قوة العلماء إلى اتباع

١- عصام محمد شبارو، المرجع السابق، ص١٢٤ .

٢- نفسه ، ص١٢٤ .

٣- عبد العزيز الشناوي، عمر مكرم، ص٢١٥ .

٤- عصام محمد شبارو، المرجع السابق، ص١٢٥ .

أسلوب الحوار السياسي مع عمر مكرم، فحاول استمالته، إلا أن عمر مكرم رفض التعامل معه، واتهم العلماء بتراجعهم عن القسم الذي تعاهدوا عليه بألا يتعاملوا مع محمد علي.

ورد عمر مكرم على محاولة محمد علي بأن اجتماعه مرهون بالغائه للضرائب المستحدثة وإن كان عدم هذا الإلغاء تعني الوقوف بوجه الشعب وتفجير ثورة شعبية تخلعه من الولاية وتحيل الأمر كله إلى الباب العالي.

إلا أن حسابات عمر مكرم اعتماداً على تجربة ١٨٠٥م، لم تكن مطابقة على الظروف الجديدة، لأن الموقف سنة ١٨٠٩م كان يختلف عما كان عليه سنة ١٨٠٥م حينما حرك عمر مكرم والزعماء الشعب بالثورة ضد خورشيد باشا. ذلك أن حرارة تأييد عامة الشعب لعمر مكرم وللعلماء في سنة ١٨٠٩م كانت قد تلاشت إلى حد ما، فهم رأوا أن لمصر سيداً واحداً كان بحكم الواقع هو محمد علي بعد أن تلاشت هيبة هؤلاء العلماء بتقربهم إليه. لذلك سيجد عمر مكرم نفسه وحيداً في المعركة ضد السلطة بعد أن سحب محمد علي كل الأوراق من يده[1].

ثم إنفجر الخلاف بين القوتين بعد ذلك وبصورة نهائية على أثر مطالبة الحكومة العثمانية محمد علي بدفع المبالغ المتبقة لها على مصر. وقد استطاع محمد علي التهرب من دفع هذه المبالغ بحجة إفلاس الخزينة المصرية نتيجة إنفاق الاعتمادات المالية الضخمة على مشاريع تعمير مصر، وتمويل الحملات العسكرية ضد المماليك. ووضع محمد علي مذكرة بذلك، فوقع عليها المشايخ[2] ثم أرسلت إلى عمر مكرم بصفته نقيبا للأشراف للتوقيع عليها ووضع ختمه فامتنع، ولم يكتف بذلك بل راح يطعن في صحة البيانات التي تضمنتها [3]. بأكمله وكذلك على امتداد طرق التجارة التقليدية، وبهذا فقد دعم تحالفه مع التجار على حساب حلفائه الآخرين، كان الصدام وشيكاً وتحددت خطوط المصالح المتضاربة وأظهر هذا الصدام للعلماء

١- عصام محمد شبارو، المقاومة الشعبية المصرية، ص١٢٥، ١٢٦.

٢- علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة، طبعة بولاق، ١٣٠٥-١٣٠٦هـ/ ١٨٨٧-١٨٨٨م، ج٣، ص٦٨.

٣- عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٤، ص٩٨؛ عصام محمد شبارو، المرجع السابق، ص١٣٦.

مدى ضعفهم فى مواجهة السلطة المركزية، خاصة إذا ما كانت هذه السلطة المركزية متحدة ومتماسكة[١].

وفى يونيو ١٨٠٩م أصدر محمد على أمراً بأن تخضع أراضى الوقف للضرائب ، وكانت معفاة من قبل ، ومعها كذلك أراضى الوسايا ، وتسبب هذا الأمر فى إحداث نزاع بين الوالى وبين «عمر مكرم» الذى كان يمثل جناح العلماء / الملتزمين وهو نزاع خرج منه الوالى منتصراً . كان من المفهوم أن يضطرب العلماء لهذا الأمر، وقد كان تحت أيدى الكثير منهم أراضى وقف، وقاموا بقيادة عمر مكرم بعقد اجتماع لاتخاذ إجراء إزائه ، أوفد الباشا سكرتيرة -ديوان أفندى- للتشاور معهم؛ واقترح أن يذهب العلماء للحديث مع الباشا ، لكنه أضاف تهديداً مستتراً . كان الأول من نوعه . قال إنه يجب أن يكونوا حذرين فى حديثهم مع الباشا، لأنه شاب مغرور جاهل وظالم وغشوم... ربما حمله غروره على حصول ضرر لكم، وفهم العلماء التهديد الضمنى ، وأجابوا : لانذهب إليه أبداً ما دام يفعل هذه الفعال ، فإن رجع عنها وامتنع عن إحداث البدع والمظالم عن خلق الله رجعنا إليه وترددنا عليه كما كنا فى السابق، فإننا بايعناه على العدل لا على الظلم والجور[٢].

فعاهد العلماء على البقاء فى منازلهم ، والإمتناع عن القاء الدروس إلى أن يصلهم من الباشا ما يرضيهم ، وقد سبق أن نجحت هذه الأساليب مع المماليك ، ولكن يبدو أنها لن تكون مجدية مع الباشا الذى أدرك أن الوقت قد حان ليتخلص من الصفوة المحلية، التى وقفت حائلاً بينه وبين مصادر دخله وكان بإمكانها تهديد أمنه ولهذا فقد لجأ إلى التآمر مع اثنين من المشايخ هما «الشيخ المهدى والشيخ الدواخلى اللذان اجتذبهما إلى صفة بوعدهما بالهبات كما كانا منافسين «لعمر مكرم» فبعد انتظار دام خمسة أيام دون جدوى، اجتمع عمر مكرم والعلماء مع الشيخين المذكورين وأبلغهما بأن اتهامات عمر مكرم بغير أساس وأن الباشا أنكر اعتزامه فرض أية ضرائب ، وقد ذكر عمر مكرم بحنق أن بحوزته الخطابات التى تضمن الأمر بفرض الضرائب .

تمكن كبيرا المتآمرين من أن يجتذبا إلى صفهما شيخاً آخر واسع النفوذ هو الشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، وكان الشيخ الشرقاوى يحمل ضغينة لعمر مكرم الذى سبق أن

١- عفاف لطفى السيد، المرجع السابق، ص١١١ .

٢- الجبرتى، المرجع السابق، ج٤ ، ص٩٥ ، عفاف لطفى السيد، المرجع السابق ، ص١١١ .

تآمر ضده، وتضامن مع العالمين اللذين تمكنا كذلك من ضم الشيخ السادات إلى صفهما . قام هؤلاء بتلفيق تهم ضد عمر مكرم ، الذى نسب إليه أنه تآمر ضد «الشيخ السادات والشيخ المهدى» ، وأنه أدرج زوراً أسماء أشخاص من القبط فى سجل الأشراف ذلك السجل الذى يحمل أسماء أولئك المنحدرين من سلالة النبى عليه الصلاة والسلام. وأدرك عمر مكرم ، الذى اكتسب أعداء كثيرين من بين العلماء نتيجة لنشاطه السياسى وصداقته الوثيقة بمحمد على، أنه لن يقف إلى جانبه أحد من العلماء[1].

كان عمر مكرم أشبه بالحصان الأسود ، فعلى الرغم من ادعائه بأنه من الأشراف ، فإن تسلسل نسبه المعروف يرجع إلى جيلين فحسب ، ولايمكن تتبعه لأبعد من ذلك. فضلاً عن أن يكون متصلاً بالنبى صلى الله عليه وسلم. ولم يكن فى يوم من الأيام عضو حقيقى فى جماعة العلماء وإنما عُين نقيباً للأشراف كمكافأة سياسية له من جانب المماليك، لكنه كان على أية حال زعيماً شعبياً ، كما أنه كان مؤمناً بطاقات الشعب على الرغم من ثرائه الكبير . لقد وجه الجماهير وأثارهم وسيطر عليهم فى عدد من المناسبات ، واعتمد على قوة الجموع بدلا من خشيتها ، فدعمت سلطته فى مواجهة مراكز السلطة الأخرى فى البلاد . ووجدت الجماهير فيه عنصراً استجابوا له، لعلهم أدركوا بشكل غريزى أنه سوف يدعم مصالحهم ، على خلاف العلماء الآخرين الذين كانوا أكثر قابلية للانحناء أمام الضغوط هذه السمة الشعبية عند عمر مكرم من بين سماته الشخصية الأخرى – هى الوحيدة – التى كان كبار العلماء يخشونها وفى نفس الوقت لايثقون بها. كان عمر مكرم رجلاً تسطع مواهبه وقت الأزمة ، حين تتجلى قدرته على استثارة الجماهير ، وكان مرهوباً فى الأوقات الأخرى بسبب هذه القدرة نفسها ، التى كانت تشكل تهديداً للأوضاع القائمة وما يصاحبها من مصالح مكتسبة . فهو مع كونه عضواً فى مجموعة الأثرياء وواحداً من الملتزمين ، وتاجراً بحكم حقوقه الخاصة، لم يكن بوضوح عضواً فى مجموعة التجار العاملين فى التجارة بعيدة المدى، لكنه كان يمثل جماعات الملكية الزراعية والصناعات المحلية. وفى الوقت نفسه كان محمد على يرى فى عمر مكرم منافساً محتملاً على السلطة فى البلاد ، فهو الرجل الوحيد الذى يملك الشجاعة على تحديه ، كما يتمتع بتأييد الجماهير [2].

١- عفاف لطفى السيد، المرجع السابق، ص١١٢ .

٢- نفسه ، ص١١٣ .

بعد أن تم القضاء على تأثير عمر مكرم أصبح باقى العلماء طيعيين خانعين ، وكانت غالبيتهم شديدى الخوف من الوقوف في وجه الوالي، أما أولئك الذين لم يكونوا خائفين فقد تم استقطابهم من خلال مداهنات عصبة الشيخ المهدى وطرد عمر مكرم من موقعه كنقيب للأشراف، ونفى إلى دمياط بينما عُين الشيخ السادات نقيباً للأشراف بدلاً منه. وعلق الجبرتى الذى سرد هذه الأحداث ، بأن السيد عمر مكرم لم ينل إلا ما يستحقه ، فإن الذى وقع له بعض ما يستحقه ، ومن أعان ظالماً سُلط عليه، ولايظلم ربك أحداً عكست هذه الملاحظة المريرة عداوة الجبرتى للوالى الجديد، لأن الجبرتى نفسه كان أحد ملاك الأرض الأثرياء، غير أنها عكست كذلك وعيه بالموقف السياسى، وبأن سقوط عمر مكرم قد أذن بسقوط العلماء عامة، وبنهاية تأثيرهم على محمد على، كذلك أدرك الجبرتى أن العلماء قد تآمروا على عمر مكرم ليتخلصوا منه، والحامل لهم على ذلك كله الحظوظ النفسانية والحسد، مع أن السيد عمر مكرم كان ظلاً ظليلاً عليهم، وعلى أهل البلدة ويترافع عنهم وعن غيرهم، ولم يزالوا بعده فى انحطاط وانخفاض [١].

خلّف الصراع على السلطة جماعة ضعيفة من العلماء الذين فقدوا زعيمهم الحقيقى الوحيد، والذين أصبحوا تحت رحمة الوالي وقد استمر أفراد الشعب ، ولفترة طويلة تالية فى الاعتقاد بأن العلماء أقوياء ، ولجأوا إليهم من أجل إزالة المظالم، لكن كما لاحظ الجبرتى فى آسف أنهم (لأهالى) لم يدركوا أن هؤلاء (العلماء) قد استسلموا للسيد الذى سيطر عليهم[٢].

وهكذا تخلص محمد على من قوة العلماء المناوئة له بسياسته فرق تسد، وتمزيقه لوحدتهم والسياسيين بعد أن استخدم هؤلاء العلماء ضد بعضهم البعض [٣]، ومن ثم ضربهم بالزعيم السياسى عمر مكرم . وبذلك تقلص نفوذ المشايخ واختفى دورها السياسى فى الدولة المصرية الحديثة[٤].

١- عبد الرحمن الجبرتى، المرجع السابق، ج٤ ، ص٢٩٥ ؛ عفاف لطفى السيد، المرجع السابق، ص١١٣ ، أمين سامى باشا، المرجع السابق، ص٤٣٠ .

٢- الجبرتى، المرجع السابق، ج٤ ، ص٢٠٤ .

٣- محمد شفيق غربال، محمد على الكبير، ص٥٧ .

٤- عبد العزيز نوار، تاريخ العرب المعاصر، مصر والعراق، بيروت ١٩٧٠، ص٨٤ .

وحينما تخلص محمد علي من عمر مكرم انفتحت أمامه أبواب مصر كلها ، رغم بقاء قوة المماليك، بالإضافة إلى المعارضة الفكرية المصرية التى واجهته والتى تزعمها الشيخ عبدالرحمن الجبرتى . إلا أن كل هذه العقبات لم تكن حواجز حقيقية فى وجه تأسيس دولته ، فالشيخ الجبرتى كانت معارضته صامته ولم يعرف عنه تلك المعارضة العلنية[1] القوية التى كانت لعمر مكرم . ورأى الجبرتى أن عهد محمد على لن ينه المظالم أو الاتاوات كما أنه لم يحقق التوازن المطلوب فى المجتمع المصرى وكان من الدوافع التى حملت الجبرتى على النفور من حكومة محمد على والطعن بها ما كسبه من تجارب عهد استئثار البكوات المماليك بالسلطة والحكم فى مصر وأثناء احتلال الفرنسيين لها، ثم طوال المدة التى شهدها من حكم محمد على نفسه .

الزعامة الفكرية :

انقلب الجبرتى على حكومة محمد على التى خالفت ، فيما اتبعه من طرق لسد حاجته الملحة إلى المال. كل ما كان يدين به الجبرتى من مبادئ عن سياسة الحكم والدولة. كما أن محمد على من وجهة نظر الجبرتى خالف تعاليم الدين حينما قام بتجريد الشيوخ من امتيازاتهم والاستيلاء على إيرادات الأوقاف وانفراده بالسلطة ؛ لايسمع نصيحة ولايشاور هؤلاء العلماء بالأمر، فتمنى الشيخ الجبرتى زوال هذا الملك الجديد الظالم المستبد [2]. لذلك فقد رأى محمد على بعد القضاء على مناوئيه أنه من الأصلح لحكمه الحجر على آراء الشيخ وإسكاته حتى فى معارضته الصامتة التى كانت على صمته معارضة خطيرة وأوعز إلى صهره محمد بك الدفتردار[3] ليفتك بخليل بن الشيخ الجبرتى، فقصم هذا البلاء ظهر الجبرتى ،

١- عصام محمد شبارو ، المرجع السابق، ص١٢٦ .

٢- محمد فؤاد شكرى، مصر فى مطلع القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٥٨، ج٣، ص١٩٥ .

٣- الدفتردار : الدفتر من الكلمة اليونانية Diphthere بمعنى جلد الحيوان، لأنه كان يستعمل للكتابة، ودخلت العربية قديمًا ، وفيها ثلاث لغات الدفتر بفتح الدال كجعفر من العرب من يقول تفتر بالتاء على البدل والدفتر بكسر الدال وازن الدرهم والدفتر جماعة الصحف أو الكراسى، وقد دخلت كلمة دفتر فى الفارسية بلفظها بمعنى جماعة الصحف أما دار الفارسية فمعناها الصاحب من داشتن، دار أن يملك فالدفتردار لغويا هو صاحب الدفتر أو حافظ السجلات، وتعنى أيضًا كبير المحاسبين ووردت الكلمة فى القلقشندى،=

عن التسجيل والكتابة ، وبهذا الأمر توقف الجبرتى عن تسجيل الوقائع فى كتابة «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» فى ٢٧ سبتمبر ١٨٢١م . ثم اعتكف فى داره حتى توفى فى عام ١٨٢٥ و ١٨٢٦م.

٥- الأهالى والتمردات الداخلية :

أما الأهالى، فقد كانوا يختلفون عن العلماء . فلم يحدث أن استشارهم العلماء ، وهم الذين اتخذوا قراراتهم بأنفسهم . بينما لم يوافقوا على تصرف العلماء . لقد شاركوا فيما آمنوا بأنه ثورة شعبية ضد قهر العسكريين . وقد حاربوا الجنود وضربوهم، ورفعوا إلى السلطة قائداً ، حتى لم يكن قائداً شعبيًا ، فقد كان على الأقل رجلاً وافقوا عليه . وقد أكدت تقارير القناصل الفرنسيين عندما كتبوا أنهم يقولون إن محمد على يجمع إلىَ جانب مبايعته قواته تأييد سكان القاهرة له، وكذلك هو الأمر الغريب حقًا ، تقدير وثقة الفلاحين . أما وقد أظهر الأهالى قوتهم ضد العثمانيين المكروهين ، فهم لم يكونوا سعداء بفكرة التخلى عن القتال عند ذلك المنعطف . حينئذ يغير طعمه للعسكر بالنهار والخفراء بالليل، والله لانترك حمل أسلحتنا ولانمتثل لهذا الكلام، هكذا قالوا ، لم يكن هؤلاء الناس يحاربون من أجل مُثل أو من أجل مبادئ ، لقد نظموا ثورة شعبية لمقاومة الاستغلال والدمار، وشجعهم على الثورة قوادهم الطبيعيون ، العلماء أولئك الرجال الذين حفروهم فى الماضى على أن يثوروا ضد المماليك، وهو ما قاموا به بصورة دورية ، وعندما كان العلماء يطلبون منهم فى الماضى أن يلقوا أسلحتهم ، كانوا يمتثلون لأنه لم يكن هناك بديل آخر، ولم يكن هناك خوف من الانتقام . أما الآن فها هم العلماء يطلبون منهم أن يلقوا بأسلحتهم بينما لايزال الموقف السياسى على حالته من السيولة ، وفى حين يتربص الانتقام بهم عند منعطف الطريق، إذ كان الجنود العثمانيون والألبان لايزالون يجوبون الطرقات كما يشاءون، ولم يكونوا يرغبون فى المخاطرة بخوض معركة ثم يخسرون التى تليها . وقد احتج زعماء الشعب على أوامر العلماء لدى

يأتى = بمعنى مسحة القلم. ووردت فى قانون محمد الفاتح بمعنى وكيل مالى إذ نص على أما القيم على أملاكى فهو الدفتردار. وكان المسؤول عن الأمور المالية لمدينة القاهرة عقب الفتح العثمانى، يدعى أمين الشهر أى أمين المدينة ويعمل تحت ناظر الأموال الذى اختير من المماليك (انظر، مصطفى بركات، المرجع السابق، ص-١٢٠، ١٢١) .

«عمر مكرم» وهو من كانوا يعتبرونه زعيمًا له، وقد تبرأ من القرار الذى توصل إليه العلماء، واعترف بأنه جرى على خلاف مشاعره . ولم يلتفت لكل من الجماهير «عمر مكرم» ورفض العلماء الذين تحدثوا بما أملاه عليهم ترفهم أن يستمعوا لهم وربما كان محمد على قد أصر هو الآخر على أن يتخلى الشعب عن أسلحته ، ولم يكن أمام الأهالى الذين أحبطتهم هذه المعارضة إلا أن يضعوا أسلحتهم ويطيعوا العلماء، حتى وهم يسبونهم ويحقرونهم علنًا(١).

وكان لمخاوف الناس ما يبررها تمامًا ، فما إن رآهم الجنود مجردين من السلاح حتى أساءوا إليهم من جديد ، لكن لم يلق جميع الزعماء الشعبيين سلاحهم . فقد تفجر القتال فى بولاق(٢) بين الأهالى وبين قوات «الدلاة» ...(٣). الذين حاولوا إجلاء الناس عن مساكنهم

١- عفاف لطفى السيد مارسو، المرجع السابق ص٩٠، ٩١ .

٢- بولاق التكرور ، إن بولاق قرية مصرية قديمة اسمها بيلاق ، وهى كلمة مصرية قديمة معناها المرساة والموردة، وأطلق هذا الاسم على بيلاق هذه ، لأنها كانت الموردة قبل إنشاء مدينة الجيزة ، ثم حرف اسمها إلى بولاق . ولما أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٣هـ مدينة جديدة على النيل تجاه القاهرة سماها بولاق، لأنها موردة ترسوا فيها السفن القادمة إلى القاهرة والمسافرة منها، وذكر المقريزى أنه بعد سنة ٧٩٠هـ / طغى ماء النيل على بولاق الدكرور فأخذ منها قطعة عظيمة كانت كلها مساكن. فخاف أهل البلد أن يأخذ النيل ضريح الشيخ التكرورى والجامع لقربها من النيل. فنقلوا الضريح والجامع إلى داخل البلد، ولايزال ضريح الشيخ التكرورى فى مكانه الذى نقل إليه بالبلد القديمة. وليس فى بولاق الدكرورى كما يظن البعض. (انظر، سعاد ماهر، محافظات الجمهورية العربية المتحدة، وآثارها الباقية فى العصر الإسلامى ، القاهرة ١٩٦٢م، ص٨٠) .

٣- الدلاة : هم جنود الكشافة وكلمة دلى اختصار لكلمة دليل العربية وكان جنود الدلاة والكشافة والبشليات (خفيفة) يجندون محليًا، وتدفع رواتبهم من الإيرادات المحلية التى كانت تخصص دائما لحاجات قلاع الحدود المعروفة باسم «سر حدقو للرى» وسر بمعنى الحدود. وسر بالفارسية بمعنى رأس، وحد كلمة عربية . وكانت قلاع الحدود تسمى «يورتلق» أو «أوجاقلق» وكانت هذه القوات تكلف بالمحافظة على الطرق والتحصينات . ويمكننا أن نستنتج أن العزب باعتبارهم الصفوة كانو مشاة بمعنى الكلمة ويقال إنه كان لدى كل باشا فى العادة ١٠٠ إلى ١٥ دلى باشى، كما كان لديه نفس العدد من التوفنجكية يقودهم توفنكجى باش. ولكن كان باستطاعة حكام بعض الايالات الشرقية أن يعينوا من ثلاثة أضعاف إلى خمسة أضعاف هذا العدد من كلا الفريقين وفى هذه الحالة كان لهيئة الخيالة أو المشاة بأسرها طبقا للأحوال، ضابط أعلى يسمى «سرجمة، وقد بدأ التجاء بعض باشوات الولايات لهذا النوع من الجند منذ حوالى بداية القرن الثامن عشر (انظر أحمد جلبى عبد الغنى، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة .الوزراء والباشوات ، القاهرة ٩٧٨ ، ٨٧٠- ٧٧١) .

وحوانيتهم ليحولوها إلى حظائر لخيولهم ، وهزم الجنود على أيدى الجماهير ولم ينقطع القتال فى اجزاء أخرى من المدينة ، كما استمرت بعض جيوب المقاومة لعمليات السلب، على الرغم من تنبهات العلماء ، وبنى حجاج الخضرى فى الرميلة[1] حائطًا وبوابة لكى يمنع دخول الجنود ، لكن تم فى النهاية إسكات كل جيوب المقاومة بواسطة محمد على، الذى قام فيما بعد بشنق اثنين من الزعامات الشعبية «حجاج الخضرى» وابن شمعة وكانا هما نفس الرجلين اللذين حاصرا القلعة والذين وقفا إلى جانب قضيته عندما بدت معرضة للأخطار ، لكن الزعيمين كانا رجلين خطرين على الوالى الجديد لأنهما كانا قادرين على تحفيز الجماهير وإثارة المقاومة وقت كان إقرار القانون والنظام ذا أهمية عظمى [2].

ولم يكن المماليك هم التهديد الأوحد الذى واجهه فى مصر ، منذ شكل رجاله طرفًا على نفس القدر من الخطورة، ففى منتصف أكتوبر سنة ١٨٠٧م، فور جلاء البريطانيين عن الإسكندرية، أطلقت مجموعة من الجنود العثمانيين والألبان قذائف عشوائية على الوالى. وبعد أيام قلائل حاصروا منزله صارخين مطالبين بمرتباتهم المتأخرة . ونجح محمد على فى الهروب من منزله فى آخر ساعات الليل والتجأ إلى القلعة . وأقدم الجنود، الذين أحبطهم غيابه بنهب منزله وزعم درفيتى الذى روى الحادثة أنه لولا حقيقة أن «عمر مكرم» قد قام بتسليح الأهالى، وأن قلة من ضباط محمد على وقفوا على الحياد ، لكانت العمليةقد واجهت نهاية مؤسفة.

وكالعادة ، تمكن محمد على من أن يقلب المنضدة على المتمردين ، فقد اجتمعوا برمتهم فى ديوان عام وتمكن بمهارته من إلغاء اللوم بشأن ضياع الأموال على الضباط، وزعم أنه أعطى الضباط مبالغ كبيرة من المال لتوزيعها على رجالهم ، وطلب حسابًا دقيقًا قبل أن يدفع المزيد من الأموال وأضاف أنه سمح للجيش فى الماضى أن يسلب الأهالى لإرضاء جشع قلة من

١- الرميلة : هو المكان المعروف الآن بالمنشية (تابع لقسم الخليفة بالقاهرة) ومكانه الحالى ميدان محمد على وصلاح الدين بالقلعة ، والرميلة مكان قريب من القلعة الحالية، وفيه مسجد السلطان حسن ، الذى لايزال قائما إلى اليوم ، وجامع المحمودية ، وكان هذا الميدان يجاور ميدان قره ميدان فى جنوب القلعة . (انظر عبد الرحمن زكى، خطط القاهرة فى أيام الجبرتى ، ضمن كتاب الجبرتى، اشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة ١٩٧٦ ، ص٥٨٠ .

٢- عفاف لطفى السيد، المرجع السابق، ص٩١ ، ٩٢ .

الأشخاص ، لكن هذا سوف يتوقف منذ تلك اللحظة فصاعدا وهددهم بأنه ستفرض إصلاحات عسكرية، وإلا فعليهم أن يبحثوا لأنفسهم عن قائد عسكرى آخر. وانتهى بأن طلب إبعاد قادة التمرد، وقال إنه سوف يدفع مرتب ثلاثة أشهر للسنه بأكملها ، لكنه غلّف قرص الدواء بالسكر بأن وعدهم بمكافأة حالما يصبح مسيطراً على الوجه القبلى (١).

انتزعت هذه الكلمات المبادرة من أيدى كل من الضباط والجنود، وأجبرتهم على أن يوافقوا على شروط الوالى، ووافقوا حتى على إعادة ما نهب من منزله ، وقد دفعت هذه الحادثة إلى البحث عن قوة محاربة بديلة للألبان، قوة تكون أكثر انضباطا وأكثر انقيادا للسلطة(٢).

وقامت بعض حركات تمرد لمجموعة من الأسباب لاعلاقة لها «بالباب العالى» ، لكن كانت داخلية تمامًا . وفى عام ١٨١٥ ترددت شائعات حول إرسال جيش لمحاربة الباشا لأنه رفض منصب الصدر الأعظم، لكن كانت هذه محض شائعات وفى ذلك العام أدخل الوالى النظام الأوروبى فى التدريب على قواته، الأمر الذى بعث على عدم الرضا ، وقامت بعض الفصائل بمهاجمة منزله فى الأزبكية ، لكن الوالى كان قد استشعر هذا التحرك وقام بذكاء وسريه بالانتقال إلى القلعة . وانطلقت القوات فى هياج لمدة يومين حتى تم كبح جماحها . وكان عدم اتصاف القوات الألبانية بالانضباط والانقياد للسلطة ، سببًا إضافيا فى تغير تشكيلات الجيش وتحويله إلى كيان مقاتل أكثر انضباطًا - وهو إجراء كان مقدراً أن يترك آثاراً عميقة على الشعب المصرى (٣).

٦- المماليك :

أما المماليك ، الذين كانوا يعسكرون خارج أسوار المدينة ، فقد تحفزوا للحرب، وحاولوا أن يستولوا على المدينة لكى يصلوا إلى خورشيد باشا فى القلعة، وتبادلوا معه الرسائل، وفى يوم الأحد ٨ يوليو أطلقت ثلاث دفعات من طلقات المدفعية من القلعة كاشارة فهاجم البكوات المدينة ، ولسوء حظهم تم اعتراض رسالتهم إلى الوالى المعزول ، وكانت القوات الألبانية متربصة بهم وطردتهم، وعند ذلك فقط وافق الوالى السابق على أن يترك البلاد بعد أسبوع،

١- عبد الرحمن الجبرتى، المرجع السابق، ج٤ ص٦٩ ، عفاف لطفى السيد، المرجع السابق، ص١٠٦ .

٢- عفاف لطفى السيد، المرجع السابق، ص١٠٦ ، ١٠٧ .

٣- نفسه، ص١١٨ ، ١١٩ .

على أن تدفع متأخراته هو ورجاله ، وقد تعهد «عمر مكرم» بأن يجمع المبالغ اللازمة ، وقام محمد علي سعيا وراء أول قرض له من الأقباط والتجار بفرض ضريبة على سكان البلاد والبنادر [١].

وقد قوبل رحيل الوالي المعزول بالارتياح من جانب السكان على الرغم من اضطرارهم إلى دفع الضريبة للتخلص منه، واستمرت المناوشات بين الأهالي والجنود غير المنضبطين على الرغم من الأوامر التي أصدرها الوالي الجديد التي تنص على أنه إذا قام جندي بازعاج المواطنين فسوف يعدم على الفور، وكان الموقف أكثر سوءً خارج القاهرة، حيث كانت قوات المماليك والدلاة المغتصبين تبتز ضرائب معظمها وهمي من الأهالي. أما الدلاة الذين جلبوا إلى مصر لمساعدة الوالي على اقرار النظام ، وقاموا بدلاً من ذلك بسلب البلاد ونهبها ، فقد كانوا لايطيعون إلا قادتهم وأحدثوا بالبلاد خرابًا أكثر من أية عصابة من العصابات المسلحة الأخرى التي كانت تجوب أنحاء الريف . فقد سلب الدلاة ونهبوا مدينة سمنود في الدلتا تحت ذريعة مطاردة المماليك، ثم قاموا بالهجوم على «المحلة الكبرى» فنهبوها وأشعلوا فيها النيران ، ثم كرروا أفعالهم الدموية في دمنهور، واكتسحوا أقاليم الغربية والمنوفية والشرقية والدقهلية فنشروا فيها الخراب والدمار ، ولم يدخل الدلاة مدينة أو قرية إلا وتركوها خرابا ، وبعد أن يرحلوا يأتي البدو في أعقابهم فيلتقطون ما غفل عنه الدلاة، ثم يأتي الجنود النظاميون في النهاية والمفترض أنهم يطاردون الدلاة «فيجردون» القرية ويفوقون سابقيهم في الوحشية . وقد وصلوا إلى حد تجريد النساء من ملابسهن . وفي الوقت الذي عاد فيه «الدلاة» إلى سوريا ومعهم منهوباتهم التي تضمنت النساء بالغنائم، كانت الدلتا مخربة تمامًا [٢].

أوحى رحيل «خورشيد باشا» من القاهرة إلى البكوات المماليك الاعتقاد بأنهم يمكنون أن يكسبوا العلماء إلى جانبهم ويستعيدوا السيطرة على مصر، وفي يوم الأحد ١٨ أغسطس ١٨٠٥ تسلل ستة من البكوات ومعهم أربعمائة مملوك إلى القاهرة من ناحية الشمال ثم انقسموا إلى مجموعتين ، ذهبت واحدة إلى منزل «عمر مكرم» حيث رفض أن يستقبلهم ثم ذهبوا إلى منزل «الشيخ الشرقاوي» حيث قابلهم هناك «عمر مكرم» وطلب البكوات تأييد

١- عفاف لطفي السيد مارسو، المرجع السابق، ص٩٢ .

٢- نفسه، ص٩٢ ، ٩٣ .

العلماء لهم ، ورفض العلماء وأمروهم أن يغادروا المدينة على الفور، وهو ما نفذوه بالفعل بفطنة ، ووصلت المجموعة الثانية من البكوات إلى باب زويلة جنوبًا حيث قوبلوا بإطلاق الرصاص عليهم من قوات المغاربة ، ونتيجة للبلبلة التى سادتهم بعد ذلك اللقاء غير الودى، فقد لجأوا إلى أحد المساجد القريبة حيث تم القبض عليهم وقتلهم . ويعتقد «الجبرتى» أن الحادث قد تم تدبيره بواسطة محمد على ليكون مصيدة للبكوات ، لكنه لم يقدم أدلة على هذا الظن ، وقد دفعتهم هذه الغارة إلى التوجه إلى الوجه القبلى، باستثناء الألفى بك الذى كان دائمًا متفردًا ، حيث توجه إلى اقليم الفيوم .

كان قدامى البكوات يموتون فى ذلك الوقت ، بينما كانت مراكزهم تشغل عن طريق الصناجق [1]، الذين كانوا غير معروفين وبلا خبرة ، وبدون سلطة تزكى دعاواهم فى السيادة على البلاد. كان البكوات ، وإن تناقص عددهم، يملكون بمن معهم من اليونانيين وال والأتراك المرتزقة قوة محاربة تسمح لهم باحتلال الوجه القبلى، ومضايقة الوالى الجديد لعدة سنوات أخرى، خاصة أنهم كانوا يسيطرون على كل شحنات القمح من الوجه القبلى[2].

اتسم عامى ١٨٠٨-١٨٠٩م بإرسال حملات عارضة ضد المماليك فى الوجه القبلى. فى ذلك الوقت كان العديد من المماليك قد انضموا إلى محمد على وانتظم وصول الغلال من المديريات الجنوبية ، وقد ساعد ذلك على أن يتخذ الباشا المزيد من الخطوات لتحقيق سيطرته المطلقة على مصادر الثروات المالية للبلاد كانت المصاعب المالية مستمرة فى إرهاق إدارته ،

١- السناجق : صنجق من التركية سنجاق ، وهى العلم والقسم من ولاية كبيرة والحاكم على قسم من ولاية، وقد تكون الصنجقية : أيضًا مجرد رتبة وسنجق دليل خانة يجمع بين مصطلحين ، مصطلح عثمانى ومصطلح مملوكى ، فبعض الأمراء فى دولة المماليك كانوا أمراء طلبخانة أى يكسبهم مقامهم أن تدق لهم الطبول وغيرها من الآلات الموسيقية التى تتكون منها طلبخانة السلطان، ولم يكن عدد الصناجق دائمًا أربعة وعشرين، وقد احتفظت حكومة الدولة لنفسها بتعيين الثغور الثلاثة المهمة، الاسكندرية ودمياط والسويس، وكذلك كتخدا الوزير أو الباشا. أما التعيين للصنجقيات الباقية، فكان يحدث فى مصر نفسها لقوة المتنافسين عليها . فكان الرجل ذو النفوذ يسعى لأن يجعل الصناجق من تابعيه أ مماليكه وهكذا . محمد غربال ، المرجع السابق ، ص١٤ .

٢- عفاف لطفى السيد، المرجع السابق، ص٩٢، ٩٣ .

وكان فى حاجة إلى السيطرة على هذه الأرصدة من أجل تسيير إدارته بسلاسة ، وهكذا كانت الضرورة الملحة واحتياجات إدارة حكومته تقود خطواته ، كان عليه أن يجد الأرصدة اللازمة ليدفع لجيشه، وكان مضطراً أن يحصل عليها من المنبع ، ليتخلص من موقف التبعية للصفوة الوطنية الذى يجد نفسه، فيها دائماً [١].

كان كل من محمد على وخلفائه من العلماء والتجار يتكبدون خسائر مالية نتيجة الأمن فى طرق التجارة ، فقد أصبحت تجارة البحر الأحمر الواقعة تحت أيدى الوهابيين مغلقة أمامهم بتجريد حملة إلى الحجاز، وكان الوجه القبلى حركة الوصل مع سوق السودان والطريق البرى إلى البحر الأحمر، لايزال فى أيدى المماليك ، الأمر الذى حتم تجريد حملة لقمع المماليك واستعادة المنطقة، ومن ثم إعادة تشغيل طريق التجارة . وكان التجار متحمسين لهذه الحملة، ليس بسبب طريق التجارة وحدها ، وإنما لأنهم كانوا فى حاجة إلى سوق الوجه القبلى لتصريف سلعهم . وبخلاف الدافع السياسى الظاهر، الذى كان يحفز محمد على، وهو إحكام السيطرة على البلاد بأكملها ، فقد كان هناك الدافع الإضافى المتمثل فى عائدات الأرض الزراعية ، لقد كانت الإدارة المركزية فيما مضى تستجد معظم أموالها من عائدات الأرض ، وقد فقدت هذه العائدات فيما يتعلق بالصعيد ، نظراً لسيطرة المماليك على المنطقة من ناحية وكذلك لعجز «الملتزمين»[٢] من ناحية أخرى عن انتزاع أى فائض من الفلاحين ، الذين كانوا يرفضون متعللين بالظروف غير المستقرة آنئذ دفع أى من الرسوم أو الضرائب لأطول مدة ممكنة ، ومتذرعين بأنهم كانوا موضع استغلال من جانب البكوات المماليك وكان الملتزمون ، سواء من العلماء أو التجار متحمسين للتحرك نحو الصعيد ، وهو ما يمكنهم من استعادة سلطتهم على أراضيهم وتوافقت مصالح الحاكم الجديد ومصالح مؤيديه من الوطنيين على قمع المماليك فى الوجه القبلى، وإعادة المنطقة مرة أخرى تحت سيطرة السلطة المركزية [٣].

١- عفاف لطفى السيد، المرجع السابق، ص١٠٨ ، ١٠٩ .

٢- الملتزم : كان الالتزام من قديم الزمان قاصرا على الأوجاقات والمماليك والجلبية وبعض من التجار والأفندية، والحريمات والهوارة وأرباب السجاجيد ، وبعض من العلماء، والمشايخ وبعض عربان الولايات. (انظر، محمد شفيق غربال، المرجع السابق، ص٣٦) .

٣- عفاف لطفى السيد، المرجع السابق، ص١٠٩ .

وبنفي عمر مكرم زالت آخر عقبات المعارضة الداخلية لمحمد علي باستثناء المماليك، وصار العلماء أكثر خنوعاً من أن يقدموا على أي عمل جديد ولايعني هذا أن نفوذهم قد اندثر تماماً لكنه يعني أن قوتهم كمصدر رئيسي للمعارضة في البلاد قد تضاءلت لبعض الوقت لقد نعموا بعصر ذهبي قصير ، كان يمكن أن يؤذن ببداية حقبة جديدة من الحكم . بمشورة العلماء لكنهم فشلوا أن يرتفعوا إلى مستوى الأحداث ، لقد فاقهم محمد علي في الدهاء والمناورة منذ البداية الأولى بل لقد استغلهم ، وعندما انعدمت فائدتهم وأصبحوا مصدر تهديد محتمل له سارع إلى إبطال تأثيرهم ، وأصبح هو وجنوده الألبان ، بالتحالف مع كبار تجار البلد في مقاعد السلطة. ومع تخلصه من العلماء باعتبارهم عقبة أمام رفع الضرائب والسيطرة على ثروات البلد، أصبح الطريق إلى إحداث تغييرات داخلية جذرية في مجال ملكية الأرض الزراعية وفي الإدارة مفتوحًا على مصراعيه .

أما بالنسبة للخارج فقد خطط لتغييرات جذرية مماثلة، إذ أنه طبقًا لما أورده الوكيل البريطاني في الاسكندرية عزم على أن يهاجم المماليك في الوجه القبلي وأمعن الوكيل في خلوته فذكر أن الوالي قد أوهم نفسه أن صاحب الجلالة البريطانية سوف يمده بالوسائل التي تمكنه من تنفيذ مشروعاته ، لقد كان محمد علي يغازل فكرة عقد حلف مع بريطانيا لكي يؤمن لسفنه مروراً بغير عوائق في البحار، وكذلك تحرير موانيه من الحصار[١].

أسفرت المباحثات حول إقرار السلام بين محمد علي والمماليك إلى اتخاذ المماليك قراراً بلقائه في القاهرة عام ١٨١٠، عندما عسكروا في الجيزة وتقابلوا مع رسوله ، في ذلك الوقت كان كثير من المماليك قد أخذوا جانب الوالي، بعد أن تم اجتذابهم بوعود الثروة والإعالة. كانت قيادات المماليك قد اضمحلت وضعفت ، كما أجهدتهم الحروب المتصلة ، كذلك تم شراء الكثير من حلفائهم من البدو بالوعود بأراض زراعية وبحكم ذاتي. وكان شاهين بك خليفة الألفي، قد انضم من زمن إلى جانب الوالي، رغم أن المماليك حاولوا إغراءه بالعودة ، ولما كان كل من المماليك والوالي لايثق أحدهما بالآخر ، فلم تصل المحادثات بينهما إلى شئ ، ورفض إبراهيم بك أن يصدق شيئًا مما قاله الوالي وأكد لرجاله أن الباشا سوف يظل مخادعًا وغادراً كما كان في الماضي وسرد عليهم روايته هو لصعود الباشا إلى السلطة[٢].

١- عفاف لطفي السيد، المرجع السابق، ص١٠٩ .

٢- نفسه ، ص١١٤، ١١٥ .

كان أول من خانهم مخدومه «محمد باشا خسرو» الذى تآمر معه وملك مع أخيه طاهر باشا فى القلعة ثم سلط الأتراك على طاهر باشا حتى قتلوه فى داره وبعد ذلك أظهرو موالاتنا ومساعدتنا واتحد بعثمان بك البرديسى وأظهر له إخلاص الصداقة والأخوة. وعاهده بالإيمان حتى أغراه على «على باشا الطرابلسى» وجرى ما جرى عليه من القتل، وتسب ذلك إلينا ، ثم اشتغل معه على خيانته لأخيه الألفى وأتباعه ثم سلط علينا العساكر بطلب العلوفة ، وأشار على عثمان بك المال من الرعية حتى وقع لنا ما وقع ، وخرجنا من مصر على الصورة التى خرجنا عليها ، ثم أحضر أحمد باشا خورشيد وولاه وزيراً ، وخرج هو لمحاربتنا . ثم اتضح أمره لأحمد باشا وأراد الإيقاع به، فعجل العودة إلى مصر، وأوقع بينه وبين جنده حتى يفروا منه ونابذوه ، وألقى إلى السيد عمر والقاضى والمشايخ وأحمد باشا يريد الفتك بهم ، فيهيجون العامة والخاصة وجرى ما جرى من الحروب . وبذل السيد عمر جهده فى النصح معه حتى تمكن أمره وبلغ مراده، وأوقع به ما أوقع وأخرجه من مصر وغربّه عن وطنه ... كما فعل بعثمان بك وغيره ... فمن يأمن لهذا ويعقد معه صلحًا ؟ كنا بمصر نحو عشرة آلاف بملوك أو أقل أو أكثر فكانت ضرائب مصر تكفى لإعالتنا) واليوم صار إيراد كل قلم من أقلام المكوس بإيراد إقليم من الأقاليم ويبخل علينا بما نتعيش به نحن وعيالنا ومن بقى معنا من أتباعنا ومماليكنا بك قصده صيدنا وهلاكنا عن آخرنا[1] » .

وترى عفاف لطفى السيد بهذا التحليل المقبض والمتحيز لسيرة محمد على قصر عن إدراك القوة المحركة الأساسية وراء مخططات الوالى ، وهى الحاجة إلى سلطة مركزية ، ولم يكن الأمر أنه ضنّ على المبالغ بمبالغ يتعيشون بها، لكن كأنّ الأمر أنه ضن عليهم بنفوذهم المحتمل فى البلاد، وما لم يقبلوا بسلطته العليا، فإنه سوف يسعى للقضاء عليهم ، فالمماليك على الرغم من ضعفهم ، كان لايزال فى وسعهم إحداث الأذى ، ويكفى أن يلحقوا الدمار بمحصولات الصعيد . وكان الوالى يريد تحييدهم إن لم يكن إزالتهم ، ونشبت المعارك بين الجانبين فى الفيوم وفى الصعيد . وفى يوليو ١٨١٠ استطاع دروقتى أن يكتب لوزيره ، لقد جعل من نفسه سيداً على كل الأراضى حتى بنى سويف ، بما فى ذلك «إسنا» وأعلن الباشا انتصاره على المماليك فى الصعيد بزعمه أنه قتل سبعمائة منهم[2] .

١- الجبرتى، المرجع السابق ، ج٤ ، ص١١٢ ، عفاف لطفى السيد، المرجع السابق، ص١١٦ .

٢- عفاف لطفى السيد، المرجع السابق، ص١١٧ .

كانت آثار هذه المعارك المتصلة مدمرة بالنسبة للأهالي. هذه الحروب الداخلية تدمر الزراعة والتجارة. لقد خربت القرى والفلاحون يفرون من جميع المناطق ولاشئ يشترى أو يباع فى القاهرة ، الأموال شحيحة والمدينون يتجنبون السداد كلية ، وأصبح ثلث الأراضى الزراعية مهجوراً وأن جميع الصناعات قد اختفت . وربما كان هناك عنصر مبالغة فى هذه التقارير ، طالما أن مؤلفيها لم يذهبوا بالمرة إلى الريف ليشهدوا الخراب ، وكانوا يرددون فحسب روايات يتناقلها الناس سماعًا ، ومن المعروف بأنه لم تترك أى أرض دون أن تمس بعد أن يجتاحها جيش ، وبعد أن تدور معركة بعد معركة عليها ، ورغم أن هذه المعارك قد تكون صغيرة من ناحية أعداد المتحاربين ، إلا أن قوتها التدميرية كانت كبيرة . وقد كان أحد الجوانب الإيجابية لانتصارات محمد على على المماليك هو أنه وجد كميات ضخمة من الحبوب المخزونة فى الصعيد ، قام باستغلالها على أفضل وجه بأن جعل منها سلعة للتصدير درّت عليه أول ربح كبير فى مجال التجارة.

وقد كانت هذه المعارك حاسمة بالنسبة لمحمد على، ومنذ ذلك الوقت أصبح المماليك مطاردين ، لقد حاولوا أن يحملوه على أن يمنحهم أقاليم أو مصادر دخل خاصة بهم فى حين يقيمون فى الصعيد، إلا أنه أصر على إجبارهم على الإقامة فى القاهرة بحيث يمكنه أن يبقيهم تحت رقابته . وقد عاد بعض المماليك بالفعل إلى القاهرة ، وانتظموا فى العمل معه ، وقام آخرون، مثل إبراهيم بك بنفى أنفسهم إلى النوبة والسودان ، ولم يعودوا يشكلون تهديداً لأحد، اللهم إلا أولئك المذكورين قاطنى هذه الأماكن . وجاءت الضربة القاضية النهائية فى مارس ١٨١١م، عندما تم ذبح المماليك فى القلعة(١).

كانت هذه الحادثة غير متوافقة مع شخصية محمد على فعلى الرغم مما قد يتصف به من خداع وغدر، فإنه لم يلجأ إلى المذابح ، إلا على أرض المعركة . لقد سرت شائعات بأن البكوات الذين انضموا إلى صفوفه كانوا يتآمرون سراً مع أولئك المقيمين فى الصعيد، وأنه تم اعتراض خطابات مشبوهة ظهر منها وجود مؤامرات مع سليمان باشا والى سوريا .

وسواء أكان هذا صحيحًا أم غير صحيح ، فقد كان هدف الباشا أن يتخلص من أى مصدر محتمل لمعارضته ، وكان المماليك الموجودون بالقاهرة الذين لم يتم اجتذابهم تمامًا إلى صفة

١- عفاف لطفى السيد مارس، المرجع السابق، ص١١٦ ، ١١٧ .

يمثلون دائمًا هذا المصدر وكانت المناسبة التى استغلت لاصطياد المماليك هى الاحتفال بتقليد ابنه طوسون باشا خلعة السفر، الذى كان عليه أن يقود الجيش الموجه لمحاربة السلفيين «الوهابيين» فى الحجاز، وأقيم الاحتفال فى القلعة ، ودعى جميع الأعيان لحضوره . من بين هؤلاء أربعة وعشرون مملوكا وأربعون من الكشاف ، وعندما انتهى الحفل حوصروا فى ممر يؤدى بهم إلى خارج القلعة حيث أبيدوا عن آخرهم . هذه الحادثة لم تكن أكثر من إجراء لإنجاز مهمة ، كانت موضع مبالغة تتجاوز كل تصديق فى روايات أولئك الذين ادعوا أنهم شهود عيان، وهم لم يكونوا فى أى مكان بالقرب من مسرح الجريمة. وزعم دروفيتى أن خمسمائة مملوك قد قتلوا من بينهم خمسة وعشرون من البكوات وستون من الكشاف ، وأضاف أن منزل الألفى قد دمر عن آخره . أما البيان الذى بعث به محمد على للسلطان فقد تضمن أربعة وعشرين من البكوات وأربعين رجلا، وأرسلت آذان ورؤس هؤلاء إلى السلطان ، وتخلص من عوائلهم ومصاريفهم[1].

فى حين صدمت هذه الحادثة «دروفيتى» وكذلك آخرين بغير شك ، فإن الوالى قد استحق من أجلها خطاب تهنئة من سيده الأكبر فى استانبول الذى امتدحه على فعلته ، وبدا له أن يقتبس صفحة من كتاب تابعه فيقضى على الانكشارية بعد ذلك بما يقرب من خمسة عشر عامًا . ومنذ ذلك الوقت فصاعداً أصبح محمد على الحاكم الأوحد فى مصر، وكان لابد لأية معارضة لمخططاته من أن تصدر من داخل حاشيته أو من الباب العالى الذى حاول محاولة علنية أخيرة لإقصائه عن منصبه[2].

وكان تنصيب طوسون مقدمة لإرسال حملة ضد الوهابيين الذين استولوا على مكة والمدينة . ند امتداد السيادة العثمانية على الأراضى العربية ، وعهد إلى حاكم مصر بالإشراف على شئون الحجاز نائبًا للعثمانيين. وقد كان تكليف محمد على بتنظيم حملة ضد الوهابيين يسير طبقا لسابقة ثابتة . ويرى عمر عبد العزيز بالنسبة للاعتقاد بأن الحملة الوهابية كانت محاولة من جانب الباب العالى لإنهاك موارده وقواته فهو اعتقاد خيالى ومن المحتمل أن الباشا وجد فى الحملة وسيلة لشغل جنوده الذين قد يثيرون الشغب والاضطراب[3].

١- عفاف لطفى السيد، المرجع السابق، ص١١٧ ، ١١٨ .

٢- أمين سامى باشا، تقويم النيل ، الجزء الثانى ، ص٢٣٠ .

٣- عمر عبد العزيز عمر، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، ص١١٠ .

وتنقسم الحرب العربية إلى مرحلتين رئيسيتين ، ففي المرحلة الأولى إستولت القوات المصرية بقيادة طوسون على ميناء ينبع ١٨١١م، كما استولت على المدينة في عام ١٨١٢م ومكة في العام التالي . وأعيد تأسيس الأسرة الهاشمية وقيام محمد على بالحج وفي عام ١٨١٥م عقد طوسون هدنة مع الأمير الجديد ضمنت الوضع الراهن واحتفظ الوهابيون بنجد وبعض أجزاء من الحجاز ، وسيطر رجال الباشا على الأماكن المقدسة ، وأكدوا سلامة الحج. وبعد موت طوسون استؤنفت الحرب في عام ١٨١٦م، وتمكنت قوات محمد على - بقيادة إبراهيم- من التقدم صوب نجد. وحاصرت هذه القوات قلاع الوهابيين السلفيين حتى سقطت في أيديهما واحدة تلو الأخرى وفي النهاية تم الاستيلاء على الدرعية- العاصمة السعودية في عام ١٨١٨م وأرسل الأمير عبدالله إلى استانبول حيث أعدم وعلى الرغم من أن الحرب العربية كانت من أجل القضاء على قوة الوهابيين وإعادة نفوذ السلطان ، فإنها تمخضت عن تكوين قوة لمحمد على قد يستولى على أجزاء أكثر من الجزيرة العربية فاحتل الاحساء على الخليج العربي. ولكن الدفاع عن هذه الفتوحات البعيدة لم يكن ممكنًا . ففي عام ١٨٢٤م أخليت نجد عندما استعاد تركي بن عبدالله ابن سعود سلطته واستمر الوالي في فرض حمايته على الحجاز وأراضي اليمن الساحلية حتى انهارت قوة محمد على عام ١٨٤٠م[١].

كان للنصر الذى أحرزه محمد على على السلفيين ردود فعل دينية وسياسية ملموسة في الشرق ، فقد هزم محمد على السلفيين وظهر كحامى حمى الإسلام إرضاءً للسلطان الذى ظل خامدًا أمام التهديد الذى يرعاه بصفته خليفة المسلمين، وتوالت في كل أنحاء العالم الإسلامي مظاهر الفرح والعرفان بالجميل ، وأرسلت الهند هدايا قيمة لمحمد على، كما أرسل إليه شاه بلاد فارس عدة سيوف مطعمة بالأحجار الكريمة، ومنح ألقاب شرفية ، من عدة جهات ، وقام أحد أمراء الهند المسلمين بترك وصية له يكل ثرواته لأنه الرجل الوحيد القادر على حماية الإسلام»[٢].

عيَّن السلطان إبراهيم واليًا على مكة ومنحه لقب باشا واعتبره ممثل الباب العالي في الجزيرة العربية ، فهل كان السلطان يقصد من وراء ذلك خلق نوع من المنافسة بين إبراهيم

١- عمر عبد العزيز ، المرجع السابق، ص١١١ .

٢- جى ثارجت، محمد على مؤسس مصر الحديثة ، ترجمة محمد رفعت عواد ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ص٧ .

وأبيه ويسير على مبدأ «فرّق تسد» ؟ من المحتمل أن يكون كذلك ولكن هل نسي السلطان أن إبراهيم أعرب عن عدم حبه للأتراك أثناء إقامته في استانبول من ناحية أخرى، فإن إخلاص إبراهيم لاحدود له، فهو يكن له كل إعجاب ومودة ، فهو كقائد حربي ليست له مطامع سياسية أمام أبيه ولايسعى للتآمر ضده، وهما متفاهمان تمامًا في كل الأمور خاصة فيما يتعلق بسير الأمور في الجزيرة العربية للعمل على إعادة استقرار الأمن والرخاء لتلك البلاد وتأمين حركة المرور والترانزيت وأحياء النشاط التجاري لميناء جده ، وهكذا وجد محمد على نفسه يجني المكافأة سواء مباشرة أو عن طريق ابنه إبراهيم بل أكثر مما كان يتوقع عندما بدأ حملته ضد السلفيين ومع ذلك فإن الحرب دائمًا لها جوانب سلبية ولاحظ محمد على أنها حملت الخزانة المصرية تكاليف رهيبة رغم وعود استانبول بالمساعدات المالية وتكبد الجيش خسائر فادحة وخرجت مصر من تلك الحرب منهكة ، فالحرب دائمًا ليس فيها غالب ولا مغلوب. وأخيراً فإن القوات المصرية في الجزيرة العربية بدأت تتعرض لسلسلة متوالية من العصيان وحرب العصابات كنتيجة حتمية للاحتلال العسكري، وبدأ محمد على يتصرف بحكمة وألا يترك العنان لأطماعه فبدأ يقلل من مساحة المنطقة المحتلة [١].

ورغم تلك الصعوبات ، فقد بدأ يعلن بمزيد من الفخر عن تحقيق هدفه وهو تكوين دولة عربية ابتداء من مصر وهذا أمر يتسم بالتناقض الواضح لأنه هو أصلاً ليس عربيًا ، لكنه نجح في أن يضفي على العملية الطابع الديني على الرغم من أنه لم يكن في نيته توجيه أي لوم ضد السلفيين لأن اهتمامه كان منحصراً فقط في الإصلاحات داخل مصر، لكنه أدرك المزايا التي تعود عليه من حملته ضد مثل تلك الدعوات الانفصالية وأوجد لصالحه أول انشقاق بين الإمبراطورية العثمانية والإسلام والذي جسّد مقدمًا الانفصال التام الذي قرره مصطفى كمال أتاتورك في وقت لم تعد فيه تركيا تقوم بأي دور عالمي ، لقد تردد محمد على طويلاً قبل إقدامه على قبول تلك المهمة ، فلقد كانت مغامرة ضخمة بالنسبة له، لكنه استعاد ما غامر به وبصورة أكبر مما كان يرجوه ، وبالنسبة للجزيرة العربية فقد استعادت هي الأخرى ، فقد منحت الحملة المصرية المجال أمامها للتأثر بالنفوذ الغربي ، وبدأ الرحالة الغربيون يكتشفون تلك البلاد، وقد ذكر الشاعر الفرنسي «لامارتين» أن ابراهيم باشا كان المبشر بالحضارة الغربية في الجزيرة العربية.

١- جي فارجيت ، المرجع السابق، ص٧٠ ، ٧١ .

وعلى الصعيد الدولي ، فإن انجلترا وإن ظلت لاتبالى بالنفوذ الكبير لمحمد على فى العالم الإسلامى، فإنها تساءلت عن الاهتمام الشديد والزائد عن الحد لمحمد على بمنطقة البحر الأحمر الحيوية لمصالحها الاستراتيجية ، كما أن الحكومة البريطانية تنظر دائمًا بعين الريبة تجاه محمد على لمحافظته على علاقات جيدة ومتميزة مع فرنسا دون مقابل ، فالإنجليز لايودون رؤية الفرنسيين فى الخليج يقتفون أثر محمد على[1].

٧- خلفاء محمد على :

أما إبراهيم باشا فكان من أكبر ولدين لمحمد على فقد وصل إلى القاهرة يوم ٢٨ أغسطس ١٨٠٥م، عندما كان إبراهيم (١٧٨٩-١٨٤٨م) قد بلغ السادسة عشرة، وكان طوسون أصغر منه بأربع سنوات ، ولم يكن أبوهما قد أصبح واليًا إلا منذ ما يقرب من شهر، وكان مركزه لم يزل مزعزعًا ، وكان قد انفصل عن أولاده لسنوات أربع، وفى اليوم التالى لوصولهما عين أكبر الولدين حاكمًا على القلعة حيث معسكرات الحامية العثمانية والمركز الرسمى لإدارة الولاية . وبعد سنة من ذلك كان إبراهيم فى استانبول كرهينة ولابد أن تكون هذه السنة التى قضاها إبراهيم فى استانبول سببًا فى تبديد أوهامه عن العثمانيين وهو الشعور الذى تحول فيما بعد ليصبح عداء واحتقارًا صريحين لهم ولحكومتهم ولشخصيتهم العسكرية وقد تعلّم اللغة العربية وتحدث بها مع رجاله [2].

ويفسّر تلك العبارة التى نسبت إليه، والتى قال فيها «جئت إلى مصر صغيرًا ، فأحببت شمسها ونيلها ، وأصبح دمى عربيًا . ويقول رءوف عباس أنه يعنى بذلك بأنه قد تمصّر لأن كلمة العرب تطلق على المصريين تمييزًا لهم عن الترك»، كما يفسّر حرصه على أنّ يضم إلى حاشيته الأدباء والشعراء مما يكشف عن تذوقه العربى وميله إليه.

ومما يرى من النوادر فى هذا الصدد مداعبته لأحد الشعراء الذى كان يكره تناول القلقاس ، فدعاه ابراهيم إلى مجلسه وتسامر الجميع حتى حل موعد الغذاء، وانتقلوا إلى تناول الطعام، ووجدوا أن الأصناف على المائدة صنعت من القلقاس ، فأمسك عن تناول الطعام وعندما سأله عن سر ذلك قال:

١- چى فارجيت، المرجع السابق، ص٧١ .

٢- رءوف عباس، ابراهيم باشا الكبير، أوراق مصرية، الهلال عام ٢٠٠٤، ص٦٠ .

سـألوك عن قلبى وكم قـاس

فـقل قـاس وقل قـاس وقل قـاس

فضحك إبراهيم وأمر بجلب ما يشتهيه الشاعر من أطباق إلى المائدة ، مما يعكس رقة حاشيته وتذوقه للأدب (١).

هذا العشق للأدب العربى، والحرص على التحدث بالعربية والحرص على مقاومة التمييز بين الترك والمصريين (أولاد العرب) والحديث إلى الجنود بالعامية المصرية ، كل ذلك جعل البعض ينسب إلى إبراهيم ميولاً عربية « قومية » فى وقت لم تكن قد ظهرت فيه الفكرة العربية ، بل بشطط البعض فيزعم أن إبراهيم كان يسعى لإقناع والده بإقامة دولة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية. وكان إبراهيم يشارك والده نظرته الإسلامية العثمانية التى جعلت الوالد يضع فى أولوياته السيطرة على مقاليد الأمور فى الدولة العثمانية والعمل على إحياء قوتها بتعميم ما أدخله من إصلاح فى مصر والشام على قاعدة الدولة ذاتها . وبناء قوة عسكرية كبرى تحت قيادته لفرض هيبة الدولة على الساحة الدولية. فإذا تعذر تحقيق ذلك فى إطار الأوضاع الدولية، كان البديل السعى للاستقلال عن الدولة أو الحصول على الاستقلال الذاتى الكامل الذى لايترك للسلطان إلا سلطة اسمية أو رمزية وكان معتاداً على أن يصف نفسه بأنه مصرى وليس تركيًا وهو ما كان يثير الغم لدى أبيه(٢).

وعندما عاد إبراهيم إلى مصر فى خريف ١٨٠٧ ، عينه السلطان فى منصب الدفتردار وظل يشغله حتى عام ١٨١٣م وكانت الشئون المالية ونقص الأموال مصدر عذاب للوالى ؛ لذا كان فى حاجة إلى الاعتماد على إبراهيم لتلبية أوامره، كى يستطيع أن يجمع الأموال دون أن يخادعه فى جزء منها وكانت وظيفة إبراهيم كمفتش عام على الحسابات جمع أكثر ما يمكنه من أموال من الشعب وهو ما جلب عليه كراهية الملتزمين الذين كان يجردهم من أموالهم(٣).

١- رءوف عباس، المرجع السابق، ص٦٦ .

٢- نفسه ، ص٦٦ .

٣- نفسه، ص٦٣ .

وقد اكتسب إبراهيم من عمله الأول فى الإدارة المالية خبرة بشئون الفلاحة المصرية وتكاد تبلغ خبرة أبيه بها ، وعمل فى خدمة الزراعة المصرية فى ممتلكاته الخاصة وفى مداولات مجلس الشورة ، التى تولى رياستها فى فترات الجهاد أعمالاً . بل وكون لنفسه فى السياسة المالية - وخاصة فيما يتعلق منها بالأموال على الأراضى الزراعية فقد أراد مخالفة ما كان عليه العمل جارياً ، فقال فى رسالة لوالده تاريخها ٩ سبتمبر عام ١٨٣٩ حين فكر محمد على فى تخفيض عام فى المصروفات لإيجاد الموازنة بين الإيراد والمصروف .

وتستدعى الحالة أن يعاد النظر فى شئون مصر كلها لتنظيمها من جديد وإن كنت واقفًا على أحوال المديريات من قبل إلا أننى اكتسبت معرفة تامة بشئون الفلاح منذ أن التزمت القرى لكى اختار الوسائل المؤدية إلى عمار مصر بنفسى ... وقد دفعت لتكاليف هذه القرى التى التزمتها ما كسبته منذ خمس وثلاثين سنة، وما زال على كثير منها أى أننى دفعت لأجل أموال الأطيان الكائنة فى مديرية الغربية وبقاياها لسنة ١٨٣٨م، مبلغ ثلاثين مليون قرشًا(١).

١- قرش والقرش فى تعريب Grosehn الألمانية ، وهى تعنى البياستر Piastre أى النقد الأسبانى الفضة، الذى بدأ ضربه وتداوله فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى ثم استقر فى التعامل التجارى مع بلدان الشرق العربى، فأطلق على «البياستر» الفضة التركى اسم «غرش» و«قرش» لأول مرة فى عهد السلطان سليمان الثانى (١٦٨٧هـ / ١٦٩٠م) . وفى مصر ضربت القروش فى عهد على بك الكبير لأول مرة سنة ١١٨٣هـ / ١٧٦٩م ، وقد أشار إليها الجبرتى فى أحداث سنة ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م ، وذكر أن مصر عرفت على يد على بك أجزاء القروش: المجوز والتى قيمة القطعة منها عشرة أنصاف، والقرش المفرد وقيمته خمسة أنصاف، وذكر أن محمد بك أبو الذهب أبطل سنة ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م ، كل هذه القروش التى كانت تحمل علامة (اسم) على بك، ولكن الفرنسيين أثناء احتلالهم لمصر أعادوا ضرب القرش فى عام ١٢١٦هـ / ١٨٠١م. واستمر القرش يضرب فى مصر بقيمة تقدر بأربعين نصف فضة أو أربعين بارة، وأطلق عليه أحيانًا اسم القرش الرومى أو القرش التركى، وأكثر ما وردت هذه التسمية فى حجج الوقف فى العصر العثمانى، وكانت لهذا القرش أجزاء منها : نصف القرش، وهى قطعة قيمتها عشرين فضة أو (عشرين بارة) وظل لفظ «العشرين» فى ريف بلادنا إلى الآن، رغم انتهاء التعامل بالنصف فضة أو البارة التركية منذ إصلاح النقد المصرى بمقتضى القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩١٦م، الذى حدد قيمة القرش المصرى بعشرة مليمات، وأضحى «المليم» هو أصغر وحدات النقود فى مصر، وتتدرج هذه الوحدة إلى أجزاء القروش ومضاعفاتها ، مقدرة على أساس «المليم» وليس «الفضة» (انظر عبد الرحمن فهمى، النقود المتداولة أيام الجبرتى، ضمن، كتاب عبد الرحمن الجبرتى، دراسات وبحوث ، إشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة ١٩٧٦م، ص٥٧٤ ، ٥٧٥) .

ونصف المليون من أموال هذه السنة، وبقاياها وكيف إذن يطيق الفلاح هذه التكاليف الباهظة؟ وكيف يقوم بتسديدها ... ويظهر جليًا مما ذكرت ما هو عليه الفلاح من سوء الحال ، وهذا ما يجعلنى أظن أن الأولى تأجيل موضوع تخفيض المصروفات إلى حين انتهاء مسألتنا (مسألة العلاقة بالدولة العثمانية ثم نطلب الدفاتر من الدواوين كلها ديوانًا ديوانًا ، ومن المديريات مديرية مديرية فيبحث فيها بحثًا شاملاً وتنتظم شئون مصر كلها على ضوء ما يؤخذ منها من المعلومات ومع هذا كله فالرأى الأعلى لمولانا فإنه أدرى منى فى الشئون كلها »[1].

أما المهمة الثانية التى أسندت إلى إبراهيم فكانت تأمين الصعيد ومطاردة المماليك جنوبًا حتى بلاد النوبة ، وفرض الأمن فى ربوعه وخاصة تأمين الملاحة فى النيل، وهذه أيضًا مهمة بالغة الأهمية لتوطيد دعائم الحكم، وضمان وصول الغلال وغيرها من المحاصيل إلى القاهرة بانتظام فى مرحلة دقيقة كان هم الباشا فيها جمع أكبر قدر ممكن من الموارد المالية التى استعان بها على تنفيذ مشروعه السياسى[2].

وكان سلوكه فى ميدان القتال مشابهًا لسلوك سائر الجنود، إذ كان من الممكن أن ينام على أديم الأرض أو حتى على الثلج مباشرة كما حدث فى الأناضول وهو ما أدى إلى ابتلائه بمرض الروماتيزم وإصابته بداء السل الذى قضى عليه فيما بعد وكان يشير إلى جنوده بأنهم أولاده، وكانت صيحته التى يمازحهم بها قبل أى مهمة «ياللا يا أولاد» وكان فى أغلب أحواله حاد الطبع سريع الغضب ، لكنه تعلم أن يكبح حدة طبعه فى سنى عمره المتأخرة . وفى الوقت الذى يكون فيه الخطر داتيًا كان دائمًا مالكا لنفسه، صافى الفكر، وكان يظهر شجاعة فائقة فى كل الأوقات[3].

أما نوبار الذى أصبح سكرتير إبراهيم الخاص بعد حملة الشام، والذى كان ابن شقيق بوغوص، فيعطى رؤية مختلفة للرجل، فهو يصف إبراهيم وأباه بأنهما شكاكان للغاية،

١- محمد شفيق غربال ، إبراهيم باشا وبناء النهضة المصرية، مقدمة الكتاب «ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا (١٨٤٨-١٩٤٨م) ، مجموعة أبحاث ودراسات لتاريخه تنشرها الجمعية الملكية للدراسات التاريخية القاهرة، ١٩٤٨م، ص س، ع.

٢- رءوف عباس ، المرجع السابق، ص٦٤ .

٣- عفاف لطفى السيد، المرجع السابق، ص١٣٣ ؛ رؤوف عباس، المرجع السابق، ص٦٨، ٦٩ .

ويوضح ذلك بأن إبراهيم اختاره - أي نوبار سكرتيراً لأنه كان يحاول أن يهدئ من شكوك أبيها اتجاهه، ولهذا اختار ابن شقيق «بوغوص» وهو يفترض أنه سوف يتجسس لحساب عمه والوالى . وقد وصف إبراهيم بأنه «فاتح قاس» ومحب للعدل لايعرف الشفقة لكنه أضاف أن الرجل وأباه كليهما كانا حكمين صادقين على الرجال. وأضاف نوبار أن إبراهيم اشتهر بالقسوة وكانوا مرهوبًا حتى من عباس الذى كان متوحشًا قاس القلب ، قادراً على الإتيان بأقصى ما تتضمنه قوائم التلذذ بالقسوة من أعمال، والتى كثيراً ما عنفه جده بسببها ، وقد كان إبراهيم العضو الوحيد فى الأسرة الذى لم يُعنَّفْ أبداً بسبب القسوة على العكس من عباس وإسماعيل اللذين كانا يحتاجان إلى أن يكبح جماحهما. غير أن نوبار يذكر أنه عندما مات إبراهيم عمت الفرحة جميع أفراد أسرته كما لو كانوا فى عرس، وكان الشخص الوحيد الذى احمرت عيناه من الانفعال هو «نوبار نفسه» ، وقد استنتج أعضاء الأسرة مخطئين أن العيون الحمراء ناتجة عن البكاء على السيد الراحل، وقيل له أنت الوحيد الذى يبكى على إبراهيم[1].

وتقول عفاف لطفى السيد، وربما تكمن الحقيقة حول إبراهيم فى مكان ما بين النقيضين لقد كان عادلاً منصفًا وحازمًا مع جنوده ، وكانت سمعته فى أحسن صورها وهو يعمل مع الجيوش. ويعنف إياه عندما يجد أن رفاهية رجاله معرضة للخطر . وقد كانت جهوده من أجل جنوده موضع تقديرهم ، وكانوا منضبطين جداً وكوّنوا قوة موضع تقديرهم، وكانوا منضبطين جداً وكوّنوا قوة مقاتلة قادرة ، ورغم ذلك ، فقد ثاروا عليه عندما نفذت نقودهم ، لأنهم ، بدلاً من أن يعيشوا عالة على البلاد التى ينزلون بها، كان «إبراهيم » يصر على أن يدفعوا مقابل كل ما يأخذونه من الناس .

وكان إبراهيم قديراً وقادراً كرجل إدارة، لكن أفعاله فى ذلك العصر، عندما كان الحاكم مطلق السلطة وكانت الحياة رخيصة الثمن، ربما تبدو ظالمة فى العالم الحديث، على الرغم من أنه على ضوء عصره كان يعد رجلاً عادلاً [2].

١- يونان لبيب رزق ، أيام إبراهيم باشا الأخيرة، ص٥٩ ، عفاف لطفى السيد، المرجع السابق، ص١٣٤ .

٢- عفاف لطفى السيد، المرجع السابق، ص١٣٤ .

كان إبراهيم على العكس من والده، رجلاً متعلمًا ويملك أكبر مكتبة في البلاد، تضم حوالي تسعة آلاف مجلد بالتركية والعربية والفارسية والأرمينية ، وكانت هذه الكتب تتناول الفلك والتنجيم والطب والتاريخ والرحلات بالإضافة إلى الشعر والأدب، وكان شغوفًا بالآلات ، وكانت مزرعته هي الأولى التي تستخدم طاقة البخار في ري الأرض(١) .

واشتدت وطأة الدوسنتاريا فجأة على إبراهيم ونصحه الأطباء بضرورة السفر إلى أوروبا للعلاج، واختار إيطاليا وذهب متخفيًا كأحد المرضى الشرقيين، ولكن ما اكتشفت شخصيته حتى انتفضت إيطاليا شعبًا وحكومات للحفاوة بنابليون الشرق حفاوة لم تسبق لزائر من الشرق والغرب وتعددت حفلات التكريم، والاستقبال الرسمية والشعبية وتبارى المهندسون والفنيون والعمال الذين شاركوا في النهضة المصرية في الحفاوة البالغة بالضيف العظيم وتحولت زيارة العلاج إلى مهرجان حفاوة وتقدير.

وفوجئ إبراهيم بدعوة من جلالة الملك لويس الثامن عشر ملك فرنسا لزيارتها زيارة رسمية مع رئيس أركان حربه سليمان باشا الفرنساوي ، الكولونيل سيف.

وحرجت باريس كلها للاحتفال بالبطل المصري. وكما لم تعرف باريس منذ عصر نابليون وتبارت الصحف الكبرى في التمجيد وقارنته بالاسكندر الأكبر يوليوس قيصر ونابليون وتسابق العسكريون والمهندسون والعمال المهرة ممن شاركوا بأعداد غير قليلة في المشاريع الكبرى بالحفاوة الحارة ببطل الشرق (٢).

وأبدى إبراهيم اهتمامًا استرعى مضيفه بزيارة المدن الصناعية والمنشآت الصناعية المدنية وأحواض بناء السفن وكتبت «الفيجارو» يبدو إبراهيم متفائلا وشديد العزم على تجديد ما فقده ومحو آثار الهزيمة.

وفوجئ إبراهيم مفاجأة لم يتوقعها؛ وهو يختتم زيارته لفرنسا، عندما بعثت الملكة فيكتوريا، ملكة بريطانيا وإمبراطورية الهند، وما وراء البحار ، تدعوه لزيارة بريطانيا والنزول ضيفًا مكرمًا عليها .

١- عفاف لطفي السيد، المرجع السابق، ص١٣٤ .

٢- محمد عودة، كيف استقبل إبراهيم باشا في قصر باكينجهام أوراق مصرية ، إبراهيم باشا، الهلال، ابراهيم باشا، جزء خاص، العدد: ديسمبر ٢٠٠٤، ص٥٨، ٥٩ .

وتقبل إبراهيم الدعوة التى لم ينتظرها والتى تصورها مجرد مجاملة للتصالح من أجل المصالح على الطريقة البريطانية ، ولكنه فوجئ بفيض من الحماس والحرارة والإعجاب وقد استقبله ورافقه زوج الملكة وعقد مجلس العموم واللوردات جلسة خاصة لاستقباله وتحيته وتسابق الجميع فى الحفاوة والتكريم ، وحرص كل القادة العسكريين وأمراء البحر الذين حاربوه على المشاركة فى حفلات ومآدب تكريمه والتعبير عن احترامهم وإعجابهم بقدرته وشجاعته.

وحينما سئل إبراهيم إذا ما كان هناك ما يريد رؤيته وزيارته خارج البرنامج أجاب يوركشاير ولنكشاير ثم أحواض بناء السفن، وحينما تباطئوا فى الاستجابة ذكرهم بها وكتبت الصحف هناك «لم يسبق أن لقى زائر شرقى الحفاوة والحرارة والحماس الذى قوبل به إبراهيم باشا أينما ذهب فى المدينتين وخاصة من المهندسين والفنيين والعمال المهرة الذين سبقوا وعملوا فى مصر .

وكان يرفقه إبراهيم ضابط بريطانى يجيد اللغة العربية قال له «اسف يا سيدى أن لغتى العربية لا تسعفنى بترجمة كل ما يعبر عنه أهل المدينة من سعادة واحترام لكم».

وكانت آخر حفلة وداع كبرى أقيمت لإبراهيم باشا هى حفلة رئيس الوزراء اللورد بالمرستون Palemerston خصمه اللدود والذى عبأ أوروبا بأجمعها لكى تقضى عليه وقال فى خطاب الترحيب : «إن العلاقة والصداقة بين مصر وبريطانيا قدر محتوم للبلدين وعلينا أن نعمل بإخلاص لتحقيق هذا الهدف النبيل» وابتسم إبراهيم ولكن لم يقف ليرد كالعادة . وعاد إبراهيم من الرحلة الأوروبية يفيض نشاطًا وحيوية وانكب على إحياء شعاره ، التعليم ، التصنيع ، والتسليح ، وأنه قدر مصر وطوق النجاة ....[٢].

عباس الأول (١٨٤٩- ١٨٥٤م)(*) كان فى استطاعته إبراهيم باشا القيام بحكم مصر واشتهر بأنه كان له خلق أبيه وإن الموازنة مقدرته، لأن حكمه فى سوريا (١٨٣٣-١٨٤١م)

١- محمد عودة ، كيف استقبل ابراهيم باشا فى مصر باكنجهام ص٥٩ .

٢- محمد عوده، المرجع السابق، ص٥٩ .

(*) ولد فى مصر ١٨١٣ أثناء غيبة أبيه طوسون باشا فى الحجاز حيث كان يقاتل فى الحجاز . ولما توفى طوسون بعد ولادة ابنه بقليل فقد حباه جده محمد على بعنايته وبذل جهد الجبابرة فى تربيته بمدرسة الخانكة وإعداده لمنصب ولاية مصر فى المستقبل باعتباره أكبر أفراد الأسرة سنا وأحقهم بولاية الحكم بعد=

وإدارته الصناعية تشهد بكفاءته، ولكنه مر به وهو يشغل منصب قائمقام أبيه في ١٠ نوفمبر ١٨٤٨م وقد جاءت تولية عباس الأول على مصر (١٨٤٩-١٨٥٤) .

لقد هدم محمد على صرح استبداد المماليك والأتراك العثمانيين ، ولكن لاينبغي أن ننسى أنه هدم إلى جانب ذلك تلك السيادة العثمانية التي كانت درعا تتقي به جماعة إسلامية ، ما تزال في سذاجة القرون الوسطى، شر الجاليات الأجنبية والطوائف المسيحية وأرباب الامتيازات ممن يعتبرون العالم بأسره وطنًا لهم . أما ثورة عباس ضد ما كان يقوم به جده من أعمال الترقي الجديدة فإنها وإن كانت أضر بمصر إلا أنها في الوقت نفسه كشفت عن سخط حقيقي من جانب المصريين حيال الاستغلال الأجنبي كائنًا ما كانت مظاهره سواء أكان من ناحية المماليك أم من ناحية المرابين .

وكان متكاسلاً في دراسته ، وفرض عليه جده محمد على نظامًا صارمًا لتعليمه ، ويثور عليه ، ويعلن أنه لم يعد يرغب في الدراسة مع المدرسين ، وكان محمد على يطلق عليه طيلة حياته «بالبليد»[1] وأنه أبى في صباه أن يتعلم اللغات الأجنبية كما رفض تلقن التربية الأوربية [2]. وعندما بدأت حملة الشام عام ١٨٣١ كان قد بلغ الثامنة عشر من عمره، ويعتبر مهيأ للحياة العسكرية وبُعث ليتعلم كيف يصبح ضابطًا تحت ولاية عمه إبراهيم. ولم يكن لائقًا للحياة العسكرية بمثل ما كان بالنسبة للحياة الدراسية، وتوالت شكاوى عمه إبراهيم بانتظامه في سلوكه العسكري أو من انعدامه كلية . وكان قليل الاهتمام، ويرفض إطاعة الأوامر، وتصرف بغير مبالاة في أوقات الأزمات ، كما كان مهملاً وأسوأ من ذلك كان يخاف من البندقية ، وجبانًا . وكتب إبراهيم إلى أبيه في غيظ شديد عنه - عباس- أنه خالٍ من الشجاعة ، مهملاً في أداء واجباته ، ويأمر الآخرين، بأداء واجبهم، وأدت تصرفاته إلى أن نفض إبراهيم يده منه ، وطلب استدعاءه إلى مصر، ليتفرغ لأمر الحملة[3].

= إبراهيم باشا (انظر جورج يانج، تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم اسماعيل، ص١٧٩ هامش ، ص.١٨٠-١٨٣).

١- عفاف لطفي السيد، المرجع السابق، ص١٣٩ .

٢- جورج يانج، المرجع السابق، ص١٨٠-١٨٣ .

٣- عفاف لطفي السيد، المرجع السابق، ص١٤٠ .

وعاد عباس إلى القاهرة وحمل ضغينة لعمه دامت حتى آخر أيامه ، وقد برز حنقه على جده وعمه فيما بعد عندما تزعم جبهة معارضة لإبراهيم . وعند عودته عُين مديراً للغربية على وهم خاطئ أنه قد يجمع شتات نفسه، ويظهر بعض المواهب في الحكم إذا ما أسند إليه على درجة من المسئولية . وبعد سنة أحاطت به مشاكل خطيرة ، لقد حذره الوالي مراراً من أن يكون شديد القسوة على الشعب، وهو ما كان ميالاً إليه بالفعل ، كما أنه أظهر ميلاً واضحًا لشذوذه التلذذ بالقسوة ، لكنه ذهب هذه المرة إلى مدى بعيد ، حتى تغاضى عن مقتل خبازه وأشيع أنه أمر بخياطة فم إحدى جواريه عندما ضبطها وهي تدخن ، وماتت المرأة جوعًا [١]، وأمر بجلد نسائه وإغراقهن في اليم، وأنه قضى معظم أيامه بين كلابه وجياده وأنه أنفق أموالا طائلة في زخرفة قصوره ، وأن شأنه كان كشأن غيره من المماليك في سلب أموال فلاحيه ، يضاف إلى ذلك أنه سمح لمموليه العديدين- وبينهم نوبار باشا الأرمني- بأن يجمعوا له الأموال بأحداث الطرق للمضاربات حتى إذا تكدست لديه بعثرها بأقدم الطرق في تشييد ثكنة في الصحراء[٢].

كان محمد على وإبراهيم بوضوح المثلين السيئين، اللذين يمكن تقديمها لعباس، وكانا ببساطة يؤججان- سخطه على كبار السن. وفي رسالة أخرى وجه اللوم لعباس بسبب قسوته ، ونصحه أن يسعى حوله، ويقدم الترضيات لكل الذين أساء لهم، وأضاف أن هذا هو السلوك المناسب، لأن التصرف كما تفعل الأسود يليق بالمتوحشين ولايليق بمن هم في مثل مركزك[٣].

وبمرور الوقت يئس الوالي من عباس ، وتضاءلت رسائل العتاب ، وقد أعطى عباس مواقع ذات مسئولية في الإدارة، لكن جده وعمه كانا يحتقرانه . وقد أدرك عباس شعورهما ، وكان رده على ذلك بأن كرههما، معًا ، على الرغم من أنه كان حريصًا على الاحتفاظ بمشاعره نحو جده لنفسه، حتى سقط الوالي مريضًا ومات إبراهيم ، وعندما أصبح هو الوالي، تجلت عداءته لجده في الجنازة الوضيعة التي رتبها له [٤].

١- عفاف لطفي السيد، المرجع السابق، ص١٤٠ .

٢- جورج يانج، المرجع السابق، ص١٨٣ .

٣- عفاف لطفي السيد مارسو، المرجع السابق، ص١٤٠ .

٤- نفسه، ص١٤١ .

وكانت باكورة أعماله عند ارتقائه حكم مصر استبعد مستشارى أبيه وجده جنيعًا وطنيين وأجانب على السواء . ولم يك من حرج حتى هذا الحين من اختلاط أموال الوالى الخصوصية بأموال الخزانة العمومية ولكن عباس أخذ ما فى هذه النقود وجعل مكانها أوراق بنكوت باسمه فما أن تداولتها الأيدى حتى عادت عليه بشكل ايراد الضرائب ثم أنه عطل المدارس .أغلق كل معهد عام عليه مسحة أوروبية وقد أحاط نفسه بحراسة الألبانيين والمماليك فقضى على ما كان للجيش من صبغة وطنية، وخفضه إلى بضعة الآف من الجنود . ولم يكتف بأنه زعزع دعائم الدولة من الوجهة الوطنية والقومية إلى الخطر بل ذهب إلى أبعد من ذلك فهدد استقلالها باستحذائه الشديد للسلطان. ويؤثر عنه أنه قال بهذه المناسبة «إذا كان لابد من أن يحكمنى اثنين فأولى أن يكون الخليفة لا القناصل » ولكن الواقع أن الخليفة والقناصل حصلوا جميعا على كل ما أرادوه منه . فقد طبّق عليه الباب العالى «التنظيمات» التى كانت بريطانيا قد فرضتها عليه نفسه من قبل. وقد اشتملت هذه التنظيمات فى الظاهر فقط على الغاء الكرباج والسخرة، ولكنها كانت تتضمن فى الواقع اعترافا بحق الأتراك العثمانيين والانجليز جميعًا التدخل فى شؤون ادارة مصر. وبمقتضى معاهدة بلطة ليمان ١٨٣٨ أصبح يحق للتجار الأجانب أن يبتاعوا المحاصيل رأسا من الفلاحين على نظام الاحتكار الذى سنه محمد على، وإن كان قد ظل معمولاً به فترة أخرى من الزمن . يضاف إلى ذلك أن الإنجليز صارت لهم يد فى الاشراف على الطريق البرى وهو ما كان يستحيل أن يسمح به محمد على . وقد نالوا هذا بفضل حصولهم على امتياز بانشاء سكة حديد بين الاسكندرية والقاهرة. ثم أن عباس برغم من حرمان نفسه من الاختلاط بالأجانب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً كان يعمل بمشورة الإنجليز أكثر مما كان يعمل بمشورة الفرنسيين حتى كان الحزب الموالى لبريطانيا فى مصر وقتئذ هو حزب «طبقة الحكام وهو مركب من الأتراك العثمانيين وأعيان البكوات ، وقد انتهزوا فرصة هذا الإنقلاب فعملوا على إحياء ظلم الفلاح وإرهاقه من جديد[1] . وقد انتشرت الجاسوسية فى عهد عباس الأول انتشاراً مخيفًا ، وكذلك كثر النفى، ومصادرة الأملاك، وكان يقول أن الشعب الجاهل أسهل قيادة من الشعب المتعلم؛ ولذا أغلق المدارس [2]. كما قلل من

١- جورج يانج ، المرجع السابق، ص١٨٤-١٨٦ .

٢- لويس عوض ، تاريخ الفكر المصرى الحديث، من عصر اسماعيل، إلى ثورة ١٩١٩، المبحث الأول ، الخلفية التاريخية، جـ١، القاهرة ، ١٩٨٠، ص٣٨ .

عدد أفراد الجيش حتى وصل إلى ثلاثة آلاف بينما فرمان إبريل ٨٤ نص على ألا يزيد عدد أفراد الجيش عن ثمانية عشر ألفًا .

لم يدم حكم عباس الذى اتسم بالضعف فترة طويلة . فقد اغتيل فى ١٣ يوليو ١٨٥٤ فى قصره ببنها ، وتنفس الشعب الصعداء عندما تلقى خبر موته حتى أقرب المقربين منه الذين كانوا يتظاهرون بالإخلاص له .

وجاء سعيد (١٨٥٤-١٨٦٣م) أصغر أولاد محمد على سنًا وعم عباس ولد فى الاسكندرية عام ١٨٢٢، فأهتم والده من البداية بتربيته وتثقيفه حيث كانت له منزلة كبيرة فى قلبه. واختار له السلك البحرى حيث نشأ نشأة ديمقراطية . فقد أمر محمد على بأن يعامل فى السلك المذكور لامعاملة أحد الأمراء بل كأحد الملاحين. ولذلك كان سعيد ينظر إلى الملاحين كأقرانه سواء بسواء لايميز عنهم إلا ما قد يظهره من التفوق عليهم بالجد والعمل الصالح. وقد ظل يطيع رؤساءه كأحد الضباط العاديين ويتدرج رويداً رويداً فى سلم الترقى فى المراتب البحرية ويجوب البحار إلى أن أصبح «سر عسكر الدونمامة» أى القائد العام للأسطول فى أواخر أيام أبيه [١]. وقد استمر محمد سعيد حاملاً لرتبة أمير البحار ، حتى استقال من منصبه هذا عام ١٨٥٢م أثر خلافه مع عباس باشا [٢]، وكان سعيد فى الثانية والثلاثين حين تولى حكم مصر ، وكان قد تلقى العلم على يد مؤدب فرنسى هو كوينج بك Koening وأتم تعليمه فى فرنسا. وقد اقترن هذا التقارب المصرى الفرنسى فى عهد سعيد واسماعيل من بعده باحياء سياسة محمد على فى العمل نحو انهاء تبعية مصر بالباب العالى والتمهيد لاستقلالها ، ببعث روح القومية المصرية بالتعاون مع ظهر أوربى يمكن به محاربة محور الدولة العثمانية - انجلترا. وكان أول تعبير عن هذا التقارب المصرى الفرنسى هو منح سعيد لديلسبس امتياز مشروع قناة السويس فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ بعد شهور قليلة من توليه العرش[٣] وقد كان الشعب يحبه باعتباره أفكوهة عظيمة ولذا قدر له بعض اصلاحاته باعتبارها مجرد مداعبات كالغاء النخاسة (١٨٥٦) والغاء عقوبة الجلد (١٨٦٣) والخدمة العسكرية الإجبارية[٤].

١- جورج يانج، المرجع السابق، ص١٨٨ .

٢- خلف عبد العظيم سيد الميرى، تاريخ البحرية التجارية المصرية ١٨٥٤-١٨٧٩، القاهرة ١٩٩٢، ص٤٦ .

٣- لويس عوض، تاريخ الفكر المصرى الحديث، من عصر اسماعيل إلى ثورة ١٩١٩، ج١، ص٣٩ .

٤- جورج يانج ، المرجع السابق، ص١٩٠-١٩١ .

وفي عهد سعيد باشا تمت عمليتان إصلاحيتان على جانب كبير من الأهمية ، فقد سمح للضباط المصريين بالترقي إلى أعلى الرتب ، وقد أدى ذلك إلى تكوين مجموعة الضباط الوطنيين، وازدادت قوتها في القرن العشرين وناضلت من أجل استقلالها عن الإمبراطورية العثمانية أولاً ثم من انجلترا . وشهد عام ١٩٥٢ قمة مرحلة الصراع بثورة ٢٣ يوليو تلك الثورة بزعامة اللواء محمد نجيب والبكباشي جمال عبد الناصر ، وأطاحت بالملك فاروق آخر ملوك الأسرة العلوية . تمثل الإصلاح الثاني في عام ١٩٥٨ والخاص بتحرير نظام ملكية الأراضي بحيث أصبح التمتع بالملكية وراثيًا وليس مدة حياة الفرد المالك للأرض فقط وبذلك ظهرت طبقة جديدة من كبار ملاك الأراضي كما حرر الإصلاح عملية بيع ونقل المحاصيل الزراعية وذلك كنتيجة لإلغاء نظام الاحتكارات الزراعية التي كان يعتز بها محمد على ولاقت نقداً مريراً (١).

وتولى الحكم بعد ذلك إسماعيل(*) (١٨٦٣-١٨٧٩م) وزار استانبول وطلب من السلطان عبد العزيز زيارة مصر فلبى دعوته ، وتعتبر زيارته أنها لثاني لسلطان عثماني زار مصر منذ عام ١٥١٧م أي منذ أن خضعت للسيطرة العثمانية . وإذا كان محمد على قد تمكن من تحقيق استقلال مصر في شئونها الداخلية فإن حفيده اسماعيل باشا قد صار على سنته وزاد على ذلك أنه رفع مصر إلى مصاف الدول المتمدينة بما اتاه من الأعمال العمرانية التي جعلت

١- جي فارجت ، محمد على ، مؤسس مصر الحديثة، ص١٠.

* هو ثاني أنجال إبراهيم باشا. ولد في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠م، في قصر المسافرخانة، وتعلم في المدرسة الخصوصية التي أنشأها محمد على في القصر العيني على يد نخبة من مهرة الأساتذة مبادئ العلوم (انظر ، جورج يانج، المرجع السابق، ص٢٢٦) . واللغات العربية والتركية والفارسية ، ونزراً يسيراً من الرياضيات والطبيعيات ، وأرسل إلى فينا ثم انتقل إلى المدرسة المصرية في باريس . وتعلم هناك الهندسة وفن التخطيط والرسم والطبيعات والرياضيات ، وأتقن اللغة الفرنساوية. وتولى بعض المناصب مثل رئاسة مجلس الأحكام المصري الأعلى. وأوفده سعيد باشا في عام ١٨٥٥ إلى أوروبا بمهمات سرية. وأوفده عرش مصر ويبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاما (انظر الياس الأيوبي- تاريخ مصر في عهد الخديو اسماعيل باشا من ١٨٦٣-١٨٧٩، المجلد الأول، القاهرة، ١٩٩٠، ص٨-١٧) .

مصر تبهج الناظرين. وكان إسماعيل أكثر من سلفه أملاً فى تغيير وراثة العرش لكى يؤول إلى أكبر أبنائه ، ونجح إسماعيل فى مسعاه بفضل العطايا والهدايا التى لاتقل قيمتها عن ثلاثة ملايين من الجنيهات وسافر إلى استانبول فى مايو ١٨٦٦م حيث بدأت المفاوضات بشأن هذا الموضوع ، وانتهت بصدور فرمان ٢٧ مايو ١٨٦٦م الذى قرر بأن تنقل ولاية مصر مع ما هو تابع إليها من الأراضى وكامل محلقاتها وقائم مقامتى سواكن ومصوع إلى أكبر أولاده الذكور بطريق الإرث وبالصورة نفسها إلى أكبر أولاد ذريته . فإذا خلا منصب الولاية ولم يترك الوالى المتوفى ولداً ذكراً يتنقل الارث حينئذ إلى أكبر إخوته وإن لم يكن له أخوة فإلى أكبر أخوته المتوفين الذكور» ومقابل ذلك وافق اسماعيل على رفع مقدار الجزية السنوية من ثمانين ألف كيس إلى ١٥٠ ألف كيس، وأن يقدم للسلطان ١٢ ألف جندى برفع عددهم إلى ١٥ ألفا مقابل حق الوالى فى زيادة عدد جيشه إلى ٣٠ ألف . وأبلغ الباب العالى هذا الفرمان إلى الدول التى أقرت تسوية ١٨٤٠ / ١٨٤١م وأوضح أسباب هذا التعديل وعلى أية حال لم تعترض الدول الأوربية على التعديل الجديد، وهنأته بريطانيا أول المهنئين (١).

ولم تقف أطماع اسماعيل عند هذا الحد ، بل سعى جاهداً للحصول على لقب يميز ولاة مصر عن بقية وزراء الدولة العثمانية والحكام العثمانيين والآخرين الذين كانوا يلقبونه مثله بلقب وال. ولقد استخدم اسلافه لقب خديو (٢)، بصفة غير رسمية . كما كان الديوان المصرى الأعلى يسمى بالديوان الخديو من أيام محمد على. وعلى ذلك حصل اسماعيل فى ٨ يونيو ١٨٦٧ على فرمان جديد يعطيه وخلفاؤه لقب خديو بعد أن كان (واليا) ، وارتقى اسماعيل بذلك إلى مصاف الملوك وبالإضافة إلى ذلك حصل اسماعيل بمقتضى هذا الفرمان على حق عقد المعاهدات الإدارية والتجارية ، وحق وضع القوانين والأنظمة الداخلية فى مصر بغير قيد (٣). واستطاع اسماعيل بواسطة المال والهدايا السخية التى أغدقها على السلطان وحاشيته وارسال المساعدات العسكرية للسلطان لأخماد ثورة كريت (يوليو ١٨٦١م) ونوفمبر ١٨٦٧م،

١- عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق، ١٧٩٨-١٩١٤، ص١٩٥ .

٢- كلمة خديو نعت فارسى مشتق من كلمة خيفا وهو اسم فارسى من اسماء الله، فهى لذلك تعنى ربانى أو إلهى أو ملك. (انظر ، عمر عبد العزيز عمر، الرجع السابق، ص١٩٦) .

٣- نفسه، ص١٩٧ .

وأحياناً بتهديد السلطان بسحب القوات المصرية من جزيرة كريت استطاع أن يحصل على الإمتيازات التى طلبها(١).

ولكن بعد صدور هذا الفرمان اعترى العلاقات المصرية العثمانية الفتور والخلاف، وأصبحت الدولة العثمانية حساسة لسيادتها على مصر ولتطلعات اسماعيل فى أن يلعب دوراً يتجاوز فيه الحدود التى نصت عليها الفرمانات . فعندما أوشك الخديو العمل فى قناة السويس على الانتهاء ، قام الخديو إسماعيل فى صيف ١٨٦٩ بجولة فى أوروبا لدعوة ملوكها ورؤساء حكوماتها إلى حضور حفل افتتاح قناة السويس فى نفس العام وحاول اسماعيل بذلك أن يضع الباب العالى أمام أمر واقع باحاطة نفسه ببعض صفات السيادة التى لم يعترف له بها صراحة ، وزيادة على ذلك انزعج الباب العالى من زيادة الجيش المصرى وتسليحه بنادق من الطراز الحديث وأضافة ثلاثة فرقاطات مدرعة إلى أسطوله الحربى(٢) ولكن عالى باشا الصدر الأعظم الذى خلف فؤاداً بعد وفاته لم يقتنع بذلك- فأرسل منشوراً إلى جميع السفراء العثمانيين لدى الدول الأوروبية بأمرهم فيه على الاحتجاج على عمل الخديو واعتباره خارجًا على حدود اللياقة، جارحًا لحقوق السيادة التى للدولة العثمانية عليه، ومزريا بالواجب المطلوب من التابع لمتبوعه- إذ أن الدعوة إلى حضور حفلات افتتاح القناة يجب أن تكون باسم السلطان العثمانى سيد البلاد الحقيقى وحده دون غيره لا باسم الخديو الذى ما هو إلا نائبه، وان الدعوة بشكلها الذى تشكلت به باطلة وملغاة(٣).

ولم يكتف الباب العالى- عالى باشا- بذلك بل أوعز إلى جرائده التى تعبر عن رأيه كجريدة تركيا La Tuirque وجريدة «الليفنت هرلد» The Levant Herld بشن الهجوم على

١- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص١٩٨ .

٢- فرقاطة : وفرقطون، أو فركطون: والجمع فراقط وفراقيط ، وفرقاطات ، ويطلق عليها بالإيطالية والأسبانية لفظ Fregata وبالفرنسية Frégate والفرقاطة نوع من السفن الحربية الخفيفة المتوسطة الحجم استعملها الأوروبيون والعثمانيون فى حوض البحر المتوسط وفى البحر الأسود منذ أوائل القرن السابع عشر وعرفت مصر هذا النوع من السفن الحربية منذ أوائل القرن التاسع عشر، وأدخلته ضمن قطع أسطولها . (انظر درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، الاسكندرية ١٩٧٤م) .

٣- الياس الأيوبى، المرجع السابق، ص٤١٠، أحمد عبد الرحيم مصطفى، علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩، القاهرة ١٩٦٧، ص١١٩ .

ما منح لمصر من امتيازات ، وحمل الحملات العنيفة على اسماعيل ، وطالبوا بالحاح أن يكون عقابه عليها العزل من منصبه وأرجاع مصر ولاية عثمانية كباقى الولايات طبقًا للفرمانات عملاً بالشرط الثانى من شروط فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١م(١).

وإذا كان اسماعيل قد استاء من هذا الفرمان فقد أخذ يسعى لتحسين علاقاته بالدولة العثمانية بعد أن اشتدت الأزمة المالية. فسافر إلى استانبول فى شهر يونيو عام ١٨٧٢، وزار السلطان العثمانى ووزراء الباب العالى والسلطانة الوالدة أيضًا. واغتنم اسماعيل فرصة احتفال السلطنة العثمانية بتبوؤ عبد العزيز عرش الخلافة وأقام فى قصره بأزمير كون معالم ابتهاج فأخذ ختمها بوليمة خاصة بالسلطان. وتوج ذلك بهدية قيمة له(٢) فصدر له فرمانات فى شهر سبتمبر من السنة نفسها، ثبت أولها وتاريخه ١٠ سبتمبر ١٨٧٢م جميع الامتيازات السابق منحها له ، وألغى الثانى. وكان مصحوبًا «بخط شريف»(*) ليوضح منطوقاته- منطوق فرمان سنة ١٨٦٩م المحظر عليه أى اقتراض أى قرض جديد فى المستقبل بدون تصريح خاص من الباب العالى ، وخوّل له حق الاستقراض أنى شاء ومتى شاء وكيفما شاء وتاريخ الفرمان الثانى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٧٢م(٣) وفى العام التالى ١٨٧٣م زار اسماعيل العاصمة العثمانية ونجح فى الحصول على الفرمان الشامل فى ٨ يونيو ١٨٧٣م. وحصل على مزايا نالتها مصر منذ تولية محمد على الحكم. ولقد شرح هذا الفرمان الوراثة وشكل الوصاية إذ كان الخديو قاصراً، ومنح اسماعيل بموجبه من جديد : أولا: حق سن القوانين واللوائح الداخلية على أنواعها، وأية كانت مراميها؛ ثانيا : حق عقد اتفاقيات

١- الياس الأيوبى، المرجع السابق، جـ١ ، ص٤١٠-٤١١ ، أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص١١٩ .

٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص١٧٣ .

* خط شريف ، تطلق عبارة (خط شريف) على الأمر الصادر من السلطان إذا كتبه بخط يده أو إذا حرره الكتّاب ، وأمضاه السلطان بيده لا بخاتمه . ويقال أيضًا خط شريف لكل وثيقة تصدر من الديوان الهمايونى من معاهدة أو براءة إذا لقب السلطان فى أعلاها أسطراً أو كلمات ، ويسمى هذا النوع من الوثائق أيضًا (خط همايون) (انظر ، أحمد السعيد سليمان، المرجع السابق، ص٩٠) .

٣- الياس الأيوبى المرجع السابق، جـ١ ، ص٤٥٣-٤٥٥ .

جمركية ومعاهدات تجارية. ثالثا: حق اقتراض أي قروض شاء في مصلحة البلاد؛ رابعًا : حق زيادة جيشه أو تنقيضه كما يشاء؛ خامسًا: حق بناء سفن حربية ، ماعدا المدرع منها ؛ وبالاختصار حق تنظيم الادارة المدنية والعسكرية في البلاد طبقا لما ترجبه مقتضيات الأهالي الملقاة رعايتهم إلى عهدته (١). وهكذا أرسى هذا الفرمان ومعاهدة لندن ١٨٤٠ الأساس الذي استند إليه استقلال مصر قبل الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢ (٢).

وبدأت مصر تمارس دوراً على المستوى الدولي، حيث أرسلت كتيبة إلى المكسيك لتحارب مع قوات الإمبراطور ماكسمليان لارضاء نابليون الثالث . وبالرغم من ذلك قامت حركات وطنية أضعفت موقف إسماعيل، وفي عام ١٨٧٩ ، رفض الرضوخ لأوامر انجلترا وفرنسا نتيجة الأزمة المالية وعندئذ عزله الباب العالي بقسوة عن الحكم (٣).

أما توفيق (١٨٧٩- ١٨٩٢م) فقد خلف أباه اسماعيل بعد إقالته على يد السلطان العثماني تحت ضغط الدائنين الأوروبيين لمصر ، واضطر توفيق للتعامل مع الحركة الوطنية المتزايدة النفوذ بقيادة أحمد عرابي باشا، التي انتهت باحتلال الإنجليز لمصر عام ١٨٨٢م، وخدم توفيق كرئيس للوزراء لمدة شهر واحد وقبل إقالة أبيه لحكومته الأوربية في أبريل ١٨٧٩م (٤) .

وبعد تقلد توفيق للسلطة أعاد الإنجليز والفرنسيون تأسيس هيمنتهم المزدوجة بحزم أشد على الاقتصاد المصري والتي توقفت لفترة قصيرة في الشهور الأخيرة لعهد إسماعيل وقد أثارت عودة بروز الوجود البريطاني والفرنسي في اقتصاديات مصر وإدارتها غضب كثير من المصريين في جميع المستويات الاجتماعية، وبالتضافر مع استياء صغار الضباط والضباط غير الأتراك بسبب العوائق التي تحول دون ترقيتهم بالجيش والسخط العام للسكان من السيطرة على مصر من عناصر أجنبية، كانت تلوح في الأفق بوادر انفجار أعمال عنيفة ، وحاول توفيق أن يفرض سيطرته على الوضع من خلال نفي المصلح السياسي الإسلامي جمال الدين الأفغاني

١- الياس الأيوبي، المرجع السابق، ج١، ص٤٥٧ .

٢- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق ، ص١٩٩ .

٣- چي فارجت ، المرجع السابق، ص٢١١ .

٤- عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق، ص١٩٩ .

وإقالة شريف باشا المعتدل من الحكومة ، ووضع بدلاً منه رياض باشا فى رئاسة النظارة فى رد فعل سعى من خلاله إلى خنق المعارضة الداخلية للنظام والأوروبيين، إلا أنه ثبت أن ناظر الحربية رفقى باشا فى نظارة رياض لم يكن محبوبًا على نحو استثنائى داخل الجيش، كما أن سياسته الداخلية نجحت فى توحيد المصريين ضده، وبعد شبه انقلاب فى سبتمبر ١٨٨١م اضطر توفيق لإعادة شريف باشا ، على أن النمو المتزايد لشعبية أحمد عرابى أثارت نوازع القلق لدى توفيق الذى أمر بإبعاد وحدته العسكرية (الآلاى) عن القاهرة وبنهاية ١٨٨١م ، كانت الحركة الوطنية قد تعاظمت لحد بالغ خاصة بعد انتخابات نوفمبر ، وبإخفاقه فى السيطرة على الحركة الوطنية أصبح وضع توفيق محفوفًا بالخطر من أن يتمكنوا من إزاحته نهائيًا (١).

على أن مصداقية توفيق المفقودة التى ظهرت من خلال عجزه عن الوفاء بأى مطلب من مطالب الوطنيين عززت مواقف الوطنيين لدى كثير من المصريين ، وتصاعدت هذه المواقف بعد تسليم المذكرة المشتركة إلى البرلمان المصرى من الفرنسيين والإنجليز فى يناير ١٨٨٢م، وعبرت المذكرة عن مساندتها للخديو وهددت بالفعل ضد المجلس التشريعى إذا ما اتخذوا أية خطوات من شأنها تقويض موقف توفيق ، وجاءت النتائج فى إطار المتوقع . تعبيراً عن الغضب من جانب البرلمان وتصاعد المشاعر الشعبية ضد الأوروبيين وازدياد قوة موقف الوطنيين ، وطلب توفيق من محمود سامى البارودى باشا وهو رجل عسكرى بارز- تشكيل النظارة التالية، وكان محمود سامى البارودى أقل ظهوراً لدى الجماهير من ناظر رتبته الأميرلاى أحمد عرابى، الذى كان يسانده ، وتلتف حوله القوى الوطنية(٢).

ودب النزاع بن عرابى والقصر فى مايو ١٨٨٢م، بأن رفض الخديو أن يصدق على أمر من عرابى بنفى نحو أربعين متآمراً عليه داخل الجيش ، وجاءت المواجهة بين توفيق وعرابى لتكشف ضعف توفيق المتأصل، وخوفًا من الهزيمة ناشد القناصل الأوروبيين تقديم يد العون له، ولحسن حظه كان الإنجليز على حذر بالغ من قوة عرابى والحركة الوطنية حتى أنهم قرروا

١- جوان فوتشر كنج، معجم تاريخ مصر، ترجمة عنان على الشهاوى، مراجعة عاصم الدسوقى، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ص٢٨٩-٢٩٠ .

٢- جوان فوتشركنج، المرجع السابق، ص٢٩٠ .

ضرورة التدخل العسكرى ، وهرب توفيق إلى الاسكندرية ، ومكث هناك حتى تمكن الإنجليز من إحكام سيطرتهم على البلاد وتخليصها من عرابى وأنصاره فى سبتمبر ١٨٨٢م، وأعيد شريف ليرأس الحكومة ، وتم إبعاد القيادات الوطنية ، وقام توفيق بحل الجيش ، وتم نفى الوطنيين الذين شاركوا فى ثورة عرابى أو العمل على مضايقتهم ، وأمضى توفيق بقية عهده معتمداً على الإنجليز ليقرر مصير السلطة المتبقية له، وفوق سلطته، كان الإنجليز والعثمانيون والأوربيون والسياسيون المصريون المتعاونون يصيغون ما سيكون عليه دورهم المستقبلى فى مصر، وبعد وفاة توفيق خلفه ابنه عباس الثاني[1].

١- جوان فوتشركتج، المرجع السابق، ص ص.٢٩٠، ٢٩١ .

المصادر والمرجع

أولا : وثائق غير منشورة :

أرشيف الوثائق القومية بالقاهرة :

١- سجلات محكمة الاسكندرية .

٢- سجلات محكمة المنصورة .

٣- سجلات محكمة رشيد .

٤- سجلات محكمة إسنا .

٥- سجلات محكمة قنا .

٦- سجلات محكمة القسمة العربية .

٧- سجلات محكمة القسمة العسكرية.

٨- سجلات محكمة الباب العالى .

٩- سجلات الديوان العالى .

١٠- سجلات اسقاطات القرى .

١١- دفاتر الرزق .

١٢- سجلات الروزنامة .

١٣- محافظ الدشت .

١٤- سجلات الالتزام .

ثانيًا : المخطوطات :

١- محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى: اللطائف الربانية على المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ورقمه ٨٠ تاريخ- دار الكتب المصرية.

٢- تحفة الظرفاء فى ذكر دولة الملوك والخلفاء ، ويليه الفتوحات العثمانية للديار المصرية ورقمه ٦٨٩ / ٢٣٥ج . مكتبة البلدية بالاسكندرية .

٣- الكواكب السائرة فى أخبار مصر القاهرة، معهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم ٤١٩ .

٤- النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، رقم ٢٢٦٦ - مكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج.

٥- المنح الرحمانية فى تاريخ الدولة العثمانية ، رقم ٥٤٢٤ تاريخ ، دار الكتب بالقاهرة .

٦- الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة .

٧- مرعى بن يوسف الحنبلى : نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين .

٨- مصطفى الشافعى القلعاوى : صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان. ورقمه ٤٥٦ تاريخ- مكتبة رفاعة الطهطاوى ، سوهاج.

٩- مؤلف مجهول : أخبار أهل القرن الثانى عشر الهجرى «تاريخ المماليك فى القاهرة» ورقمه ١٣٤١، معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

ثالثًا : المراجع العربية :

١٠- إبراهيم حسن سعيد (دكتور) : البحرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك، الاسكندرية ١٩٨٣ .

١١- إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية، المعروف بكتاب التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية، القاهرة ١٩٨٨ .

١٢- إبراهيم زكى: الحالة المالية والتطور الحكومى والاجتماعى فى عهد الحملة الفرنساوية وفى عهد محمد على، القاهرة، بدون تاريخ.

١٣- إبراهيم الصوالحى العوفى: تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق ، تحقيق الدكتور عبدالرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٨٧ .

١٤- إبراهيم طرخان (دكتور) : النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٨ .

١٥- إبراهيم طرخان (دكتور) : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ١٣٨٢ / ١٥١٧، القاهرة ١٩٥٩ .

١٦- إبراهيم عامر : الأرض والفلاح فى المسألة الزراعية فى مصر، القاهرة ١٩٥٨ .

١٧- إبراهيم بن محمد بن ايدمر العلائى «الشهير بابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار، بيروت، بدون تاريخ.

١٨- إبراهيم المويلحى: الأرض والفلاح فى العصر العثمانى، ضمن كتاب الأرض والفلاح فى مصر، القاهرة ١٩٧٤م.

١٩- أبى الضياء عبد الرحمن بن على الديبع الشيبانى .

٢٠- أبو الحسن على بن حبيب البصرى البغدادى الماوردى الأحكام السلطانية، القاهرة.

٢١- أحمد أحمد بدوى (دكتور) : رفاعة رافع الطهطاوى ، القاهرة ١٩٧٥م.

٢٢- أحمد بدوى : تاريخ مصر الاجتماعى ، الاسكندرية ، بدون تاريخ.

٢٣- أحمد أحمد الحتة (دكتور) : تاريخ الزراعة فى عهد محمد على الكبير، القاهرة ١٩٥٠ .

٢٤- أحمد تقى الدين المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة ١٣٢٦هـ .

٢٥- أحمد جلبى عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، تحقيق الدكتور محمد فؤاد الماوى، القاهرة ١٩٧٧ .

٢٦- أحمد بن زنبل الرمال: آخرة المماليك ، واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦٢ .

٢٧- أحمد السعيد سليمان (دكتور) تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، القاهرة ١٩٧٨م.

٢٨- أحمد شلبى عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة ، من الوزراء والباشات ، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٧٨ .

٢٩- أحمد شلبى (دكتور) تاريخ التربية الإسلامية .

٣٠- أحمد شلبى (دكتور) مصر مركز للدراسات الإسلامية فى عصر الجبرتى، ضمن أبحاث ندوة عبد الرحمن الجبرتى، إشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة ١٩٧٦ .

٣١- أحمد فؤاد متولى (دكتور) الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع المصادر التركية والعربية المعاصرة ، القاهرة ١٩٧٦ .

٣٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) فى أصول التاريخ العثمانى، بيروت ١٩٨٢ م.

٣٣- أحمد كتخدا عزبان الدمرداشي : كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، فى أخبار ما وقع فى عصر دولة المماليك والسناجق والكشاف والسبعة أوجاقات والدولة وعوايدهم والباشا إلى آخر سنة ثمان وستين ومائة وألف، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٨٩ .

٣٤- أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) دراسات فى تاريخ العرب الحديث، بيروت ١٩٧٣ .

٣٥- أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) تاريخ التعليم فى عهد محمد على، القاهرة ١٩٣٨ .

٣٦- آدم ميتز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، أو عصر النهضة فى الاسلام، الجزء الأول، نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبوريدة ، الطبعة الثالثة ، القاهرة .

٣٧- الحسن محمد الوزان الفاسى، المعروف بليون الأفريقى وصف أفريقيا ، ترجمة محمد حجى، محمد الأخضر، بيروت، بدون تاريخ.

٣٨- إدوارد وليم لين : المصريون المحدثون عاداتهم وشمائلهم ، ترجمة عدلى طاهر نور ، القاهرة ١٩٧٦ .

٣٩- استيف: النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية، ترجمة زهير الشايب، القاهرة ١٩٧٩ .

٤٠- الهام محمد على ذهنى (دكتور) مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر، القاهرة .

٤١- الزبيدى: الفضل المزيد على بقية المستفيد فى أخبار يزيد، دراسة وتحقيق الدكتور محمد عيسى صالحية، الكويت ١٩٨١ م.

٤٢- أمين سامى باشا : تقويم النيل وعصر محمد على ، القاهرة ١٩١٧ .

٤٣- أمين مصطفى عفيفى عبداللاه (دكتور) تاريخ مصر الاقتصادى فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٥٣ .

٤٤- اندريه ريمون : الولايات العربية (القرن السادس عشر - القرن الثامن عشر) ، ضمن كتاب الدولة العثمانية ، اشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعى، القاهرة ١٩٩٣ .

٤٥- اندريه ريمون : فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب، القاهرة ١٩٧٤ .

٤٦- انطونيو دومينقر هورنز برنارت بلشت : تاريخ مسلمي الأندلس «الموريسيكيون» حياة ومأساة أقلية ، ترجمة الدكتور عبد العال صالح، تقديم وتنقيح الدكتور محمد حجي الدين الأصفر، الدوحة قطر، ١٩٨٨ .

٤٧- إلياس الأيوبي : تاريخ مصر في عهد الخديوي اسماعيل، جزآن ، القاهرة ١٩٤٢ .

٤٨- أوليا چلبي : سياحتنامه مصر ترجمة دكتور محمد علي عوني، تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام ، الدكتور أحمد السعيد سليمان، القاهرة ٢٠٠٣ .

٤٩- توفيق الطويل (دكتور): التصوف في مصر إبان العصر العثماني، القاهرة ١٩٤٦ .

٥٠- جابريل بيير: دراسات في التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة ، ترجمة الدكتور عبدالخالق لاشين ، عبد الحميد فهمي الجمال، القاهرة ١٩٧٦ .

٥١- جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبي في مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، القاهرة ١٩٦٣ .

٥٢- ج. دي . شابرول : دراسات في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، ترجمة زهير الشايب، القاهرة ١٩٧٦ .

٥٣- ج. كريستوفر هيرولد : بونابرت في مصر ، ترجمة فؤاد اندراوس ، مراجعة الدكتور محمد أحمد أنيس، القاهرة ١٩٦٢ .

٥٤- جلال يحيى (دكتور) مصر الحديثة «١٥١٧-١٨٠٥» الاسكندرية ، بدون تاريخ.

٥٥- چورچ يانج : تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم اسماعيل تعريب على شكري، القاهرة ١٩٣٤ .

٥٦- جمال الدين الشيال (دكتور) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في مصر في عهد محمد علي، القاهرة ١٩٤٢ .

٥٧- جمال الدين الشيال (دكتور) اعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف الاسكندرية ١٩٦٥ .

٥٨- ــــــ : تاريخ الترجمة في عهد الحملة الفرنسية ، القاهرة ١٩٤٢ .

٥٩- ــــــ : تاريخ مصر الإسلامية ، العصران الأيوبى والمملوكى، القاهرة ١٩٦٥ .

٦٠- ــــــ : مجمل تاريخ دمياط ، دمياط ١٩٤٧ .

٦١- ــــــ : تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الإسلامى، الاسكندرية ١٩٦٧ .

٦٢- جومار : وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة الدكتور أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٨٩ .

٦٣- جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، الجزء الرابع، بيروت، بدون تاريخ .

٦٤- حسن الباشا (دكتور) الفنون الاسلامية ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٦١-١٩٦٣ .

٦٥- حسن عثمان (دكتور) محمد توفيق : تاريخ مصر فى العهد العثمانى ١٥١٧-١٧٩٨، نشر فى كتاب المجمل فى التاريخ المصرى، ضمن أعضاء هيئة التدريس وإشراف الدكتور حسن إبراهيم، القاهرة ١٩٤٢، ومنهج البحث التاريخى القاهرة، ١٩٧١م.

٦٦- حسين مؤنس (دكتور) : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث، القاهرة ١٩٣٨ .

٦٧- ــــــ : المساجد، الكويت ١٩٨١ .

٦٨- خوليان ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ، أصولها المشرقية وتأثيرها الغربية ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى، القاهرة ١٩٨٠ .

٦٩- زريجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية فى أوروبا ، بيروت ١٩٨٦ .

٧٠- زين الدين شمس الدين نجم (دكتور) إدارة الأقاليم «١٨٨٢-١٩٠٥م». القاهرة ١٩٨٥ .

٧١- س.ب. جيرار : الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٩ .

٧٢- سعاد ماهر محمد (دكتورة) : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، الجزء الخامس القاهرة ١٩٨٣ .

٧٣- سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) الأثر المغربى والأندلسى فى المجتمع السكندرى فى العصور الإسلامية الوسطى، ضمن كتاب مجتمع الاسكندرية عبر العصور المختلفة ، جامعة الاسكندرية، ١٩٧٣ .

٧٤- سعيد أحمد برجاوى : الامبراطورية العثمانية تاريخها السياسى والعسكرى، بيروت، ١٩٩٣ .

٧٥- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥ .

٧٦- ـــــــ : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة ١٩٥٩ .

٧٧- ـــــــ : التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك، فى ضوء كتابات ابن إياس القاهرة ١٩٧٣ .

٧٨- ـــــــ : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٦٣ .

٧٩- سيد إبراهيم الجيار (دكتور) : تاريخ التعليم الحديث فى مصر، وأبعاده الثقافية القاهرة، ١٩٧٧ .

٨٠- سيد محمد السيد (دكتور) تاريخ مصر فى العصر العثمانى فى القرن ١٦ ، دراسة وثائقية فى النظم الادارية والقضائية والمالية والعسكرية، القاهرة ١٩٩٧

٨١- سيد مصطفى سالم (دكتور) الفتح العثمانى الأول لليمن (١٥٣٨-١٦٣٥م) الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٨ .

٨٢- عباس العقاد : الإمام محمد عبده عبقرى الإصلاح والتعليم، القاهرة ١٩٨١م.

٨٣- عبد الرازق الطنطاوى القرموط (دكتور) : العلاقات المصرية العثمانية ، القاهرة ١٩٨٤م.

٨٤- عبد الرازق ابراهيم عيسى: تاريخ القضاء فى مصر العثمانية «١٥١٩»، القاهر ١٩٩٨م.

٨٥- عبدالله الشرقاوى: تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين ، تحقيق وتعليق، رحاب عبد الحميد، الاقهرة ١٩٩٦ .

٨٦- عبد الجليل التميمى (دكتور) : الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين والأندلس، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية، والتوثيق والمعلومات ، زغوان ، تونس ١٩٨٩ .

٨٧- عبد الحميد البطريق (دكتور) من تاريخ اليمن الحديث (١٥١٧-١٨٤٠م) القاهرة ١٩٦٩ .

٨٨- عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، الجزء الثاني، القاهرة١٩٢٩ .

٨٩- عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٠ .

٩٠- عبد الحليم منتصر (دكتور) دور العرب فى تقدم العلوم، الاقهرة ١٩٨٣ .

٩١- عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ٤ أجزاء، القاهرة ١٢٩٧هـ / ١٨٧٩-١٨٨٠ .

٩٢- عبد الرحمن زكي (دكتور) : التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير، القاهرة، ١٩٥٠ .

٩٣- ـــــــ : خطط القاهرة أيام الجبرتى : ضمن ندوة بحوث فى تاريخ الجبرتى، إشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة ١٩٧٦ .

٩٤- ـــــــ : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة ، القاهرة ١٩٦٠ .

٩٥- عبد الرحمن فهمي: (دكتور) النقود العربية ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٥٠ .

٩٦- ـــــــ : النقود المتداولة أيام الجبرتي ، ضمن ندوة بحوث فى تاريخ الجبرتى ، إشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة ١٩٧٦ .

٩٧- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، القاهرة ١٩٧٤ .

٩٨- ـــــــ : المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى «٩٢٣-١٢١٣هـ / ١٥١٧-١٧٩٨»، تونس ١٩٨٢ .

٩٩- ـــــــ : القضاء فى مصر فى العصر العثمانى ، ضمن بحوث ندوة القضاء فى مصر، بجامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٥ .

١٠٠- عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الأزهر جامعًا وجامعة ، الجزء الأول، القاهرة ١٩٨٣ .

١٠١- ـــــــ : الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها، أربعة أجزاء، ١٩٧٨-١٩٨٣ .

١٠٢- عبد الغنى محمود عبد العاطى (دكتور) التعليم فى مصر فى زمن الأيوبيين والمماليك، القاهرة ١٩٨٤ .

١٠٣- عبد الكريم رافق (دكتور): بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني حتى حملة نابليون بونابرت على مصر، دمشق ١٩٦٨ .

١٠٤- عبدالله عزباوى (دكتور) الشوام فى مصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، القاهرة ١٩٨٦ .

١٠٥- عبدالله محمود شحاته (دكتور) منهج الإمام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم، القاهرة ١٩٥٨ .

١٠٦- عبد المنعم ماجد (دكتور) طومان باى آخر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٨٧ .

١٠٧- ــــــــــ : التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر، دراسة تحليلية للازدهار والانهيار، القاهرة ١٩٨٨ .

١٠٨- عبد الوهاب بكر (دكتور) : ميناء دمياط ودوره فى العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الليفانت خلال القرن الثامن عشر، بحث مقدم لندوة مصر وعالم البحر المتوسط، بجامعة القاهرة ١٩٨٥ .

١٠٩- ــــــــــ : الدولة العثمانية ومصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، القاهرة ١٩٨٢ .

١١٠- عراقى يوسف محمد (دكتور) الوجود العثمانى المملوكى فى مصر فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٨٥ .

١١١- علماء الحملة الفرنسية : الموازين والنقود لصامويل برنارد ، الجزء الثالث، ترجمة زهير الشايب، القاهرة ١٩٨٠ .

١١٢- على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ٢٠ جزء، بولاق ١٣٠٥ .

١١٣- عمر عبد العزيز عمر (دكتور) : دراسات فى تاريخ العرب الحديث، الفتح العثمانى حتى القرن الثامن عشر الميلادى، بيروت ١٩٧٥ .

١١٤- ــــــــــ : دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر، بيروت ١٩٨٠ .

١١٥- ــــــــــ : دراسات فى تاريخ مصر الحديث «١٧٩٨-١٩١٤» الإسكندرية ١٩٧٣ .

١١٦- ـــــــــ : عبد الرحمن الجبرتي ونقولا ترك، دراسة مقارنة ، بيروت ١٩٧٦ .

١١٧- ـــــــــ : مجتمع الإسكندرية فى العصر العثمانى ، ضمن بحوث مجمتع الإسكندرية عبر العصور المختلفة، الاسكندرية ١٩٧٣ .

١١٨- ـــــــــ : مصادر تاريخ مصر العثمانية ، بيروت ١٩٧٢ .

١١٩- عمر ممدوح مصطفى (دكتور) : أصول تاريخ القانون، الإسكندرية ١٩٥٤ .

١٢٠- درويش النخيلى (دكتور) السفن الإسلامية على حروف المعجم، الاسكندرية ١٩٧٤ .

١٢١- دى بوا ايميه : القبائل العربية فى صحروات مصر ، ترجمة زهير الشايب القاهرة ١٩٨٠ .

١٢٢-فائق بكر الصواف (دكتور) العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز فى الفترة ما بين ١٢٩٣-١٣٣٤هـ / ١٨٧٦-١٩١٦، القاهرة ١٩٨٠ .

١٢٣- فالتر هنتس : المكاييل والأوزان الاسلامية وما يعادلها فى النظام المترى، ترجمة الدكتور كامل العسلى، عمان، الأردن، ١٩٧٠ .

١٢٤- فوزى جرجس سلامة : دراسات فى تاريخ مصر السياسى منذ العصر المملوكى، القاهرة ١٩٥٨ .

١٢٥- قاسم عبده قاسم (دكتور) : أهل الذمة فى مصر فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٧ .

١٢٦- ـــــــــ : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٩ .

١٢٧- ـــــــــ: النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٩ .

١٢٨- قانون نامه مصر : ترجمه وعلق عليه الدكتور أحمد فؤاد متولى، القاهرة ١٩٨٦ .

١٢٩- قطب الدين محمد بن أحمد النهروانى المكى: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى فى القرن العاشر الهجرى، مع توسع فى أخبار غزوات الجراكسة والعثمانيين لذلك القطر، اشرف على طبعه، حمد الجاسر ، الرياض ، ١٩٦٧ .

١٣٠- صوفيا لين بول : حريم محمد على باشا ، ترجمة الدكتورة عزة كرارة، القاهرة ١٩٩٩ .

١٣١- كارستن نيبور : رحلة إلى مصر (١٧٦١-١٧٦٢)، ترجمة الدكتور مصطفى ماهر، القاهرة ١٩٧٠ .

١٣٢- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، منير ، البعلبكي، الطبعة العاشرة، بيروت ١٩٨٤ .

١٣٣- كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر، تعريب محمد مسعود بك، جزءان القاهرة ١٩٥٠ .

١٣٤- ليلى الصباغ (دكتورة) معالم الحياة الفكرية في الولايات العربية في العصر العثماني ، ضمن كتاب الدولة العثمانية ، تاريخ وحضارة ، اشراف وتقديم الدكتور أكمل الدين احسان أوغلي، نقله إلى العربية الدكتور صالح السعداوي، استانبول ، ١٩٩٩ .

١٣٥- ــــــــــ : الجاليات الأوروبية في الشام ، الجزء الثاني ، بيروت ١٩٨٦ .

١٣٦- ليلى عبد اللطيف أحمد (دكتور): الإدارة في مصر في العصر العثماني، القاهرة ١٩٧٨ .

١٣٧- ــــــــــ : دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام ، إبان العصر العثماني، القاهرة ١٩٧٩ .

١٣٨- ــــــــــ : شيخ العرب همام وحكم جرجا، القاهرة ١٩٨٤ .

١٣٩- ــــــــــ : المجتمع المصري في العصر العثماني، القاهرة ١٩٨٩ .

١٤٠- ل .م . ماير : الملابس المملوكية - ترجمة صالح الشيني، مراجعة دكتور عبدالرحمن فهمي ، القاهرة ١٩٧٢ .

١٤١- لويس عوض (دكتور) : تاريخ الفكر المصري الحديث من الحملة الفرنسية إلى عصر إسماعيل، القاهرة ١٩٨٧ .

١٤٢- محمد بن إياس الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق الدكتور محمد مصطفى، الأجزاء ٣، ٤، ٥ ، القاهرة ١٩٦٠-١٩٦١-١٩٦٢ .

١٤٣- محمد رفعت الإمام (دكتور) : تاريخ الجالية الأرمنية في القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٩٩ .

١٤٤- محمد رفعت رمضان (دكتور) : على بك الكبير ، القاهرة ١٩٥٠ .

١٤٥- محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ . الأقسام الثلاثة ، القاهرة ١٩٦٠ .

١٤٦- محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى : النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، دراسة وتحقيق وتعليق عبد الرازق عيسى عبد الرازق ، القاهرة ١٩٩٨ .

١٤٧- محمد أحمد أنيس (دكتور) الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤-١٩١٤ ، القاهرة ١٩٨١ .

١٤٨- محمد سيد الكيلانى : الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى، القاهرة ١٩٨٤ .

١٤٩- محمد رزوق (دكتور) الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦ ، ١٧ ، الدار البيضاء المغرب، ١٩٩٨ .

١٥٠- محمد فريد بك المحامى : تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق احسان حقى .

١٥١- محمد صبرى (دكتور) تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث، القاهرة ١٩٩٦ .

١٥٢- محمد عبد الستار عثمان (دكتور) : وثيقة جمال الدين يوسف الاستادار ، دراسة أثرية الإسكندرية ١٩٨٢ .

١٥٣- محمد العربى الخطابى : الطب والأطباء فى الأندلس الإسلامية، بيروت ١٩٨٨ .

١٥٤- محمد عبد العزيز عجمية : (دكتور) دراسات فى التطور الاقتصادى ، الإسكندرية ١٩٦٥ .

١٥٥- محمد فاتح عقيل (دكتور) : أهمية الموقع الجغرافى لسواحل مصر العربية ضمن أبحاث البحرية المصرية، الاسكندرية ١٩٧٤ .

١٥٦- محمد فؤاد شكرى (دكتور) : عبد الله جاك منو، وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة ١٩٦٠ .

١٥٧- ———— : بناء دولة مصر محمد على (السياسة الداخلية) القاهرة ١٩٤٨ .

١٥٨- محمد كامل الفقى (دكتور) : الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة، القاهرة ١٩٨٣ .

١٧١- يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ، الجزء الأول، استانبول ١٩٨٥ .

١٧٢- يوسف النحاس : الفلاح حالته الاقتصادية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٣٤ .

رابعًا : المراجع الأوروبية :

173-Afaf Loutfy El Sayed , The Role of the ulama in Egypt during the Early Nineteenth Century, Political and social change in Modern Egypt . Historical Studies from Ottoman conquest to the united Arab Republic, London , 1968 .

174- Baer Gabrial, Egyptian Guilds in Modern times, Jerusalem, 1964 .

175- Butcher El , The Story of the Church of Egypt, 2 vols , London , 1897 .

176- Combé , Etienne , L'Egypté Ottoman En Precis de L'histoire d'Egypté ed Mohamed Zaky El ebrach, T.3 Le Caire , 1933 .

177- Estéve Comte Mémoine Sur Les tribus Arabs des deserts de L'Egypté. T.2 . Paris, 1809 .

178- D, Kalimachs. Pattrah's of Alexandria Greek School at Cairo , 1940 .

179- Gamal El Din El Shayyal, Some Aspects of the inttellectual and social life in Eighteenth century in Egypt , Poltical and Social change in modern Egypt, Histroical Studies from Ottoman conquest to the united Arab Republic, London , 1968 .

180- Heyworth Dunne, An introduction to the History of Education in Modern Egypt, London, 1938 .

181- Heyed W, Historie du Commerce du Levant au Moyen Age. T.II Lepzig , 1925 .

182- Holt, P.M. Egypt and the Fertile crescent , (1516-1922) , London , 1966 .

183- Lane Pool Stanely , Social Life in Egypt in the Middle Ages, London ,, 1961 .

184- Lancret Michel Agge, Territorial et sur L'Administration des Provnces de L'Egypté dans Les deruicus années du goverment de Mamlouks, en Description d;Egypté Atat modern ist ed T.2. Paris, 1813 .

185- M. Papastetanou , Greek Education in Egypt, London , 1940 .

186- P.J. Vatikiotis , The Modern History of Egypt, London , 1938 .

187- Poliak , A. W , Feudalism in Egypt , Syria , Palastine and Lebanon 1250-1900, London 1909 .

188- Poocek, Adescription of the East , V.1, London , 1743 .

189- Stanford, J, Shaw Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution Cambridge Massachustts, 1964 .

190- Ottoman Egypt in the Egitheenth century , Tge Nizammama Misr of Gézzar Psha Translated from Original Turkish by Stanford Shaw, Harvard 1962 .

191- The Fianancial and Adminstrative Organization and development in Ottoman Egypt (1517-1798) New Jersy , 1962 .

خامسًا : الدوريات :

١- المجلة المصرية للدراسات التاريخية:

١٩٢- صبحى لبيب (دكتور) : التجارة الكارمية وتجارة العصور الوسطى عدد٤ ، القاهرة ١٩٥٢.

١٩٣- على الشاذلى الفرا: ذكر ما وقع لعسكر مُصر المحروسة، تحقيق الدكتور عبد القادر طليمات ، العدد (١٤) ١٩٦٨ .

١٩٤- محمد بن أبى السرور البكر الصديق: كشف الكربة برفع الطلبة، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، العدد (٢٣) القاهرة ١٩٧٣ .

١٩٥- محمد البرلس السعدى : بلوغ الأرب برفع الطلب، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبدالرحمن عبد الرحيم، العدد ٢٤، القاهرة ١٩٧٧ .

١٩٦- نسيم مقار (دكتور) : أضواء على تاريخ الهوارة فى صعيد مصر ، العدد ٢٦، القاهرة ١٩٧٦ .

١٩٧- يوسف الشربينى: دراسات نصية لكتاب هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المجلد العاشر، القاهرة ١٩٧٥ .

٢- المجلة العربية للعلوم الإنسانية :

١٩٨- أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : حفاظ العثمانيين على التراث الإسلامى ، الكويت، ١٩٨٨ .

١٩٩- عبد الرحيم عبد الرحمن (دكتور): العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية فى العصر العثمانى (١٥١٧-١٧٩٨) العدد التاسع، المجلد الثالث، الكويت ١٩٨٣ .

٣- مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة :

٢٠٠- محمد شفيق غربال: مصر عند مفترق الطرق ١٧٩٨-١٨٠١ ، ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية، كما شرحه حسين أفندى الروزنامجى فى عهد الجملة الفرنسية، المجلد الرابع، الجزء الأول، القاهرة ١٩٣٦ .

٤- مجلة كلية الآداب بسوهاج - جامعة أسيوط:

٢٠١- أحمد محمد محمود الطوخى (دكتور): القيسارات الإسلامية فى مصر والمغرب والأندلس، العدد ١٨ ، سوهاج ١٩٨٢ .

سادسًا : الرسائل العلمية:

٢٠٢- ابراهيم يونس محمد: تاريخ مصر العثمانية من ٩٢٣-١١٣١هـ / ١٥١٧-١٦٨١م من خلال تحقيق مخطوط «يوسف الملواني الشهير بابن الوكيل تحفة الأحباب عن ملك مصر من الملوك والنواب، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ، كلية الآداب- جامعة الاسكندرية ١٩٨١ .

٢٠٣- اسامة أحمد إسماعيل: الإسكندرية فى عصر دولة المماليك، رسالة ماسجتير غير منشورة- قسم التاريخ- كلية الآداب- جامعة الاسكندرية ١٩٨٧ .

٢٠٤- جميل عرفة منتصر: دور علماء الأزهر فى مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ١٩٨٣ .

٢٠٥- جميل عرفة منتصر : التجار فى مصر العثمانية، ٩٢٣-١٢١٣هـ / ١٥١٧-١٧٩٨م، رسالة دكتوراه غير منشورة ، قسم التاريخ، كلية الآداب الاسكندرية، ١٩٨٦ .

٢٠٦- سميرة فهمى عمر : إمارة الحج فى مصر العثمانية ٩٢٣-١٢١٣هـ ١٥١٧-١٧٩٨م، رسالة ماجستير غير منشورة من قسم التاريخ ، كلية الآداب- جامعة الاسكندرية ١٩٨٣م.

٢٠٧- عصمت محمد حسن: الجبرتى ومنهجه فى كتابة التاريخ ، رسالة ماجستير غير منشورة- قسم التاريخ - كلية الآداب- جامعة الاسكندرية ١٩٨٠ .

٢٠٨- عفاف مسعد العبد: دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر العثمانية ، رسالة ماجستير غير منشورة - قسم التاريخ- كلية الآداب- جامعة الاسكندرية ، ١٩٨٣ .

٢٠٩- محمود محمود الشال: تاريخ مدارس الطوائف الدينية ومدارس الجاليات الأوروبية فى مدينة الاسكندرية فى القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير غير منشورة- قسم التاريخ- كلية الآداب- جامعة الاسندرية ١٩٨٤م.

المحتويات

الفصل الثالث

الفصل الرابع



مكتبة بستان المعرفة
طباعة ونشر وتوزيع الكتب
☎: ٠٤٥/٢٢١١٤٩٥ & ٠١٢/١١٥١٢٣٧


Bibliotheca Alexandrina
0690974